(٣٥) سورة فاطر مكية وآياتها خمس وأربعون

سورة فاطر من السور المكيَّة التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والرسل » وسائر شئون الإيمان كما هو الحال في السور المكية ، وهي ختامُ السور المفتتحة بالحمد ، التي فصّلت فيها أصولُ النِّعم على العبادِ من ربِّ الأرباب ، وهي سورة « الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر » وهي خمسُ سور في القرآن ليس غير . سُميت بسورة فاطر لذكر هذا الاسم الجليل ، والنَّعْت الجميل في طليعتها ، ولما فيها من الوصف الدالِّ على عظمة ذي الجلال ، وعجيب صنعه ، وباهر قدرته ، فقد خلق الملائكة خلقاً عظيماً ، وجعلَهم ذوي أجنحةٍ متنوعة في العدد ، يطيرون بها ليبلّغوا ما أُمروا به سريعاً ﴿ الحمدُ للهِ فَاطرِ السمواتِ والأرضِ ، جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً أُولي أَجْنحةٍ مَثْنَى ، وثُلاَثَ ، ورُبَاعَ ، يزيدُ في الخَلْق ما يشاءُ ، إنَّ اللهَ على كلِ شيءٍ قدير ﴾ .

وتذكُرُ السورة بنعم الله على العباد ، فما مِنْ نعمةٍ إلاّ واللهُ مُسْديها ، ولا مِن فضلٍ وإحسانٍ إلاّ وهو من مِنَن الرحمن ، ولا من خلقٍ وتقدير إلاّ وهو من صنع العليّ القدير ﴿ ما يفتحِ اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمْسك لها ، وما يُمْسك فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . يا أيها الناسُ ذكروا نعمةَ الله عليكم ، هل من خالقٍ غيرُ الله يرزقُكم من السماء والأرض ؟ لا إلهَ إلاّ هو فأنّى يُؤْفكون ؟ ﴾ .

وتحذِّر السورة من الاغترار بهذه الحياة العاجلة الفانية ، ومن العدوِّ الأكبر إبليس اللعين الذي قعد للناس بالمرصاد ليصدَّهم عن دين الله ويجعلهم من حزبه ﴿يا أيها النَّاسُ إنَّ وعد اللهِ حقٌّ فلا تغرنَّكم الحياةُ الدنيا ، ولا يُغُرنَّكم باللهِ الغَرُور . إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتَّخِذوه عَدُوّاً ، إنما يدعو حزبَه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ .

وتقيم السورة الأدلة والبراهين على البعث والنشور في صفحاتِ هذا الكون المنظور بالأرض تحيا بعد موتها بنزول المطر ، وبخروج الزرع والثمر ، وهذا من أظهر الآيات وأوضحها على إمكان البعث بعد الموت ﴿والله الذي أرسَل الرياحَ فتثير سحاباً ، فَسُقْناه إلى بلدٍ ميِّتٍ ، فأحيَيْنا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور﴾ .

ثم تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الإنسان في أطوار ، وعن المياه في الأنهار والبحار ، وعن إيلاج الليل في النهار ، وتسخير الشمس والقمر عبرةً لأولي النُّهى والأبصار ﴿والله خَلَقَكُمْ من تُرابٍ ، ثُمَّ من نُطْفةٍ ، ثم جعلكم أَزْواجاً ، وما تَحْمِلُ من أُنْثَى ولا تَضَعُ إلا بعِلمِه ، وما يُعَمَّر من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُره إلاَّ في كتابٍ ، إنَّ ذلكَ على الله يسيرٌ . وما يستوي البحرانِ : هذا عذبٌ فُراتٌ سائغٌ شرابُه ، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حليةً تَلْبسونها ، وترى الفُلْكَ فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وسخَّر الشمسَ والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مُسمًّى ، ذلكم اللهُ ربُّكم له المُلْكُ ، والذين تدعون من دونه ما يَمْلكون مِنْ قِطْمير﴾ ثم يبيّن لهم قيمة الآلهة المزعومة التي لا تسمع الدعاء ، ولا تستجيب النداء ﴿إنْ تَدْعُوهم لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، ولَوْ سَمِعُوا ما استَجَابوا لكم ، ويومَ القيامةِ يَكْفُرون بِشِرْكِكُمْ ، ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير﴾ .

وتتحدث السورة عن الفارق الهائل بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وتضرب الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، والحيّ والميّت ليظهر لذي البصائر المؤمن الذي يسير على نورٍ من ربه ، والكافرُ الذي يتخبَّطُ في ظُلُماته ﴿وما يستوي الأعمى والبصيرُ . ولا الظلمات ولا النُّورُ . ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ . وما يستوي الأحياء ولا الأمواتُ ، إن الله يسمع من يشاء وما أنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القبور . إنْ أنتَ إلا نذير﴾ .

ومن العِبَر والعِظَات إلى الدلائل الواضحات على وحدانية الله العليّ القدير ، تتحدث السورة عن أنواع الثمار المختلفة الألوان ، من أصفرَ ، وأحمرَ ، وأخضرَ ، وأبيض مع أختلاف الطعوم والروائح ، وكلُّها تُسقى بماءٍ واحد ، ثم الاختلاف الواضح بين طبقات الأرض ، وبين سائر المخلوقات من البشر والدوابِّ والأنعام ، المختلفة الأشكال والأجناس والصُّوَر ، وكلُّها شاهدةٌ بوجود الله ، ناطقةٌ بعظمته وجلاله ﴿ألم تَرَ أنَّ اللهَ أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ، ومن الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلفٌ ألوانُها وغرابيبَ سُوْدٌ . ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك ، إنما يَخْشَي اللهَ من عبادِهِ العلماءُ ، إنَّ الله عزيزٌ غفورٌ﴾ .

وتتحدث السورة بعد ذلك عن ميراثِ الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائلِ الكتب ، ثم انقسام الناس أمام هذه الوراثةِ الربانية إلى ثلاثة أنواع : المقصِّر ، والمحسن ، والسابق بالخيرات . وكلُّهم من هذه الأمة المحمدية التي ورَّثها الله أشرف الرسالاتِ السماوية ﴿ثم أورثنا الكتابَ الَّذينَ اصْطَفَينا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفْسِهِ ، ومنهم مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذن الله ، ذلك هو الفضلُ الكبير . جناتُ عدنٍ يدخلونَها يُحلَّون فيها من أساورَ من ذهبٍ ولُؤْلُؤاً ، ولباسُهم فيها حرير﴾ وفي مقابل هؤلاء

السعداء الأبرار يأتي الحديث عن الأشقياء الفُجّار ، للموازنة بين الفريقين أهل الجنة وأهل النار ﴿ والذين كفروا لهم نارُ جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ، ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كلَّ كفور . وهم يصطرخون فيها ربَّنا أخرجنا نعملْ صالحاً غيرَ الذي كنّا نعمل ، أوَ لمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذكَّر فيه مَنْ تذكَّر ، وجاءكم النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ وتختم السورة الكريمة بفضل الله على العباد بإمهالهم حتى يتداركوا في هذه الحياة مافاتَ ، وهذا من نعم الله تعالى عليهم كما ذكَّرهم بنعمه الفائضة في أول السورة الكريمة ليتناسق البدء مع الختام ﴿ ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكنْ يؤخرهم إلى أجلٍ مُسمًّى ، فإذا جاء أجلُهم فإنَّ الله كان بعباده بصيراً﴾

سورة فاطر

سورة الملائكة

[٧٦٢] أخرج[1] جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[2] الآية حيث قال النبي [ﷺ]: **«اللّهم أعز دينك بعمر ابن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام»** فهدى الله عمر وأضل أبا جهل ففيهما أنزلت.

[٧٦٣] وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزلت فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3] الآية.

[٧٦٤] وأخرج البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيع بن الحارث عن عبدالله بن أبي أوفى قال: قال رجل للنبي [ﷺ]: يا رسول الله أن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم قال: **«لا أن النوم شريك الموت وليس في الجنة موت»** قال فما راحتهم فأعظم ذلك رسول الله [ﷺ] وقال: **«ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة»** فنزلت ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[4].

[٧٦٥] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول لو أن الله بعث منا نبياً ما كانت أمه من الأمم طوع لخالقها ولا أسمع لنبيها ولا أشد تمسكاً بكتابها منا فأنزل الله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[5] ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾[6] ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن

---

[٧٦٢] (١) كذا بالأصل والحديث رواه ابن ماجة في سننه (١٠٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ٩٣)، وابن حبان (٢١٨٠ موارد الظمآن).

(٢) سورة فاطر: الآية (٨).

[٧٦٣] (٣) سورة فاطر: الآية (٢٩).

[٧٦٤] (٤) سورة فاطر: الآية (٣٥).

[٧٦٥] (٥) سورة الصافات: الآية (١٦٧ و١٦٨).

(٦) سورة الأنعام: الآية (١٥٧).

جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾[1] وكانت اليهود تستفتح به على النصارى فيقولون إنا نجد نبياً يخرج.

* * *

(١) سورة فاطر: الآية (٤٢).

سورة فاطر

أربعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢] وقوله في الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء، فإن البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضي ذلك إلى التقاتل والتفاني، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفي قوله في سورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر، واستدللنا عليه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأجسام ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأرواح ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢] وقوله عن الكافرين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ [سبأ: ٣] وهاهنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي يجعلهم رسلاً يتلقون عباد الله، كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وعلى هذا فقوله تعالى ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يحتمل وجهين الأول: معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس، والثاني: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلاً، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله: آمنت. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ [سبأ: ٥٢] فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرساله الملائكة إليهم مبشرين، وبيَّن أنه يفتح لهم أبواب الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له جناحان وما

بعدهما زيادة، وقال قوم فيه: إن الجناح إشارة إلى الجهة، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما يأخذوه بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وقال تعالى في حقهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] فهما جناحان، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعله لا بواسطة، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر، والظاهر ما ذكرناه أولاً وهو الذي عليه إطباق المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ من المفسرين من خصصه وقال: المراد الوجه الحسن، ومنهم من قال: الصوت الحسن، ومنهم من قال: كل وصف محمود، والأولى أن يعمم، ويقال: الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقرر قوله: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر، وقال ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يعني إن رحم فلا مانع له، وإن لم يرحم فلا باعث له عليها، وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه: أحدها التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر، وهو وإن كان ضعيفًا لكنه وجه من وجوه الفضل، وثانيها: هو أن أنث الكناية في الأول فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائدًا إلى ما، ولكن قال تعالى: ﴿لَهَا﴾ ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهي واصلة إلى من رحمته، وقال عند الإمساك ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ فإنه مخصص مبين، وثالثها: قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد الله، فاستثنى ههنا وقال: لا مرسل له إلا الله، فنزل له مرسلاً. وعند الإمساك قال: لا ممسك لها، ولم يقل: غير الله، لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فإن من رحمه الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ

رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي كامل القدرة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي كامل العلم.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء.

فقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء.

وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء.

ثم بين أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نظرًا إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شيء قدير نافذ الإرادة في كل شيء ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظرًا إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف تصرفون عن هذا الظاهر، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت. ثم لما بين الأصل الأول: وهو التوحيد ذكر الأصل الثاني: وهو الرسالة فقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذِّب في العذاب. والمكذَّب له الثواب بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ثم بين الأصل الثالث: وهو الحشر.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

أي الشيطان وقد ذكرنا ما فيه من المعنى اللطيف في تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول: المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأي فيغتر بأدنى شيء، وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشيء وهون عليه مفاسده، وبين له منافع، يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه، وقد يكون قوي الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى الدرجة الأولى، وقال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ إشارة إلى الثانية ليكون واقعًا في الدرجة الثالثة وهي العليا فلا يغر ولا يغتر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾

[فاطر: ٥] ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولا تسمعوا قوله، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله في أمره طريقان: أحدهما: أن يعاديه مجازاة له على معاداته، والثاني: أن يذهب عداوته بإرضائه، فلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير.

واعلم أن من علم أن له عدوًّا لا مهرب له منه وجزم بذلك فإنه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فإنه معه، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة.

ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فالمعادي للشيطان وإن كان في الحال في عذاب ظاهر وليس بشديد، والإنسان إذا كان عاقلاً يختار العذاب المنقطع اليسير دفعًا للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذ عرض في طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التي في الدنيا إلى النار التي في الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ قد ذكر تفسيره مرارًا، وبين فيه أن الإيمان في مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن في النار، والعمل الصالح في مقابلته الأجر الكبير.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾

يعني ليس من عمل سيئًا كالذي عمل صالحًا، كما قال بعد هذا بآيات ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسيء الكافر والمحسن المؤمن، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئًا إلا قليل، فكان الكافر يقول: الذي له العذاب الشديد هو الذي يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها، والذي له الأجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا، فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فإن المحسن غير، ومن زين له العمل السيئ فرآه حسنًا غير، بل الذين زين لهم السيئ دون من أساء وعلم أنه مسيء فإن الجاهل الذي يعلم جهله والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذي لا يعلم يصر على الذنوب، والمسيء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم. والمسيء الذي يرى الإساءة إحسانًا له صفتا ذم الإساءة والجهل، ثم بين أن الكل

بمشيئة الله، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية في الحقيقة والإساءة والإحسان، والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فإذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله. ثم سلى رسول الله ﷺ حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ [الكهف: ٦]. ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد إيمانهم وإحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الإضلال، وإن كان لما به منهم من الإيذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

ثم عاد إلى البيان فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾.

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشأ السحاب، وقد لا ينشأ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ﴾ بلفظ الماضي وقال: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ بصيغة المستقبل، وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زمانًا ولا جزءًا من الزمان، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالإرسال، ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح وهو يؤلف في زمان فقال: ﴿فَتُثِيرُ﴾ أي على هيئتها.

المسألة الثانية: قال: ﴿أَرۡسَلَ﴾ إسنادًا للفعل إلى الغائب وقال: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك في قوله: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا﴾ وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال، ثم لما عرف قال: أنا الذي عرفتني سقت السحاب، وأحييت الأرض ففي الأول كان تعريفًا بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيرًا بالنعمة فإن كما (ل) نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء وقوله: (سقناه) و(أحيينا) بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله: ﴿أَرۡسَلَ﴾ وبين قوله: (تُثِيرُ).

المسألة الثالثة: ما وجه التشبيه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه وجوه: أحدها: أن الأرض الميتة

لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة، وثانيها: كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء، وثالثها: كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد؟ فنقول: لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض، وذكر من الأمور السماوية والأرواح وإرسالها بقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[فاطر: ١] ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾

لما بين برهان الإيمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون: إن هذه آلهتنا، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الأتباع له، فقال: إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة، فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في هذه الآية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨] فقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يدل على أن لا عزة لغيره فنقول: قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ أي في الحقيقة وبالذات وقوله: ﴿وَلِرَسُولِهِۦ﴾[المنافقون: ٨] أي بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي ﷺ ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١].

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ تقرير لبيان العزة، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون: نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده، لأن البعد من الملك ذلة، فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه في وجهه فهو ذليل، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحًا رفعه إليه، ومن عمل سيئًا رده عليه، فالعزيز من الذي عمله لوجهه والذليل من يدفع الذي عمله في وجهه، وأما هذه الأصنام فلا تعلم

شيئًا فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل، فلا عزة بها بل عليها ذلة، وذلك لأن ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه وإلهه حجارة أو خشبًا ماذا يكون هو؟!

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وجوه: أحدها: كلمة لا إله إلا الله هي الطيبة، وثانيها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب، ثالثها: هذه الكلمات الأربع وخامسة وهي تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم، فهو إليه يصعد.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ وفي الهاء وجهان أحدهما: هي عائدة إلى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب ورد في الخبر «**لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ قَوْلاً بِلاَ عَمَلٍ**». وثانيهما: هي عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا في الفاعل الرافع وجهان: أحدهما: هو الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] وثانيهما: الرافع هو الله تعالى.

المسألة الخامسة: ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثاني حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره، فنقول الكلام شريف، فإن امتياز الإنسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] أي بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة، وإن كان ظاهرًا أمن في نفسه ودمه وأهله وحرمه في الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النساء: ٥٧] ووجه آخر: القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه، وقال النبي ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)] وما في القلب لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو في أكثر الأمر لا يتكلم في نومه إلا نادرًا، لما ذكرنا أن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل، فالقول أشرف.

المسألة السادسة: قال الزمخشري: المكر لا يتعدى فبم انتصاب السيئات؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف، ويحتمل أن يقال استعمل المكر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (فضل من استبرأ لدينه) (١/ ١٥٣)، حديث رقم (٥٢) من طريق أبي نعيم... به، ومسلم في كتاب (المساقاة)، باب: (أخذ الحلال وترك الشبهات) (٣/ ١٠٧/ ١٢١٩) من طريق محمد بن عبد الله بن شمير الهمداني... عن أبي، كلاهما (أبو نعيم، محمد بن عبد الله) عن زكريا عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير... فذكره.

استعمال العمل فعداه تعديته كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤]وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤]يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفًا لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ إشارة إلى بقائه وارتقائه ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أي العمل السيئ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ إشارة إلى فنائه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قد ذكرنا مرارًا أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع في دلائل الأنفس، وقد ذكرنا تفسيره مرارًا وذكرنا ما قيل من أن قوله: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ إشارة إلى خلق آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى خلق أولاده، وبينا أن الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل بل ﴿خَلَقَكُم﴾ خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لأن كلهم من نطفة والنطفة من غذاء، والغذاء بالآخرة ينتهي إلى الماء والتراب، فهو من تراب صار نطفة.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ إشارة إلى كمال العمل، فإن ما في الأرحام قبل الانخلاق بل بعده ما دام في البطن لا يعلم حاله أحد، كيف والأم الحاملة لا تعلم منه شيئًا، فلما ذكر بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ كمال قدرته بين بقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ كمال علمه ثم بين نفوذ إرادته بقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ فبين أنه هو القادر العالم المريد والأصنام لا قدرة لها ولا علم ولا إرادة، فكيف يستحق شيء منها العبادة، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير، ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمله الأنثى يسير والكل على الله يسير والأول أشبه فإن اليسير استعماله في الفعل أليق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قال أكثر المفسرين: إن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان أو الكافر

والمؤمن، فالإيمان لا يشتبه بالكفر في الحسن والنفع كما لا يشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج. ثم على هذا، فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان دون حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات في خير ونفع إذ اللحم الطري يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجري فيهما، ولا نفع في الكفر والكافر، وهذا على نسق قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤] والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء، فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المستويان، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة، فإن اللحم الطري يوجد فيهما، والحلية تؤخذ منهما، ومن يوجد في المتشابهين اختلافًا ومن المختلفين اشتباهًا لا يكون إلا قادرًا مختارًا. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال أهل اللغة: لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح، وإنما يقال له ملح، وقد يذكر في بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحًا، ويؤاخذ قائله به. وهو أصح مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له إلا مالح، وماء ملح يقال للماء الذي صار من أصل خلقته كذلك، لأن المالح شيء فيه ملح ظاهر في الذوق، والماء الملح ليس ماء وملحًا بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر في الذوق، بخلاف ما هو من أصل خلقته كذلك، فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحًا راعى فيه الأصل فإنه جعله ماء جاوره ملح، وأهل اللغة حيث قالوا في البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة، والأجاج المر، وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ من الطير والسمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي ماخرات تمخر البحر بالجريان أي تشق، وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يدل على ما ذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ⁽١٣⁾﴾

استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مرارًا، وذكرنا أن قوله تعالى بعده: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها، فإن في الصيف تمر الشمس على سمت الرءوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ يعني سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذي فعل ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾.

أي ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فَطْرِ السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكًا والملك مخدوم بقدر ملكه، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها، ثم بين ما ينافي صفة الإلهية، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، وههنا لطيفة: وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف أحدهما: أن الخلق بالقدرة والإرادة، والثاني: الملك، واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣] ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهًا أي معبودًا، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين أحدهما: أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالعها فقال: لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئًا ولا ملكوا شيئًا، وثانيهما: أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئًا لملكه فإذا لم يملك قطميرًا ما خلق قليلاً ولا كثيرًا.

قوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾

إبطالاً لما كانوا يقولون: إن في عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها، والله لا يُرى ولا يصل إليه أحد فقال: هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب، ليسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة، وقال: هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للمحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع في المعقول فلا يمكن وقوعه في المحس به، ثم إنه تعالى قال: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ لما بين عدم النفع فيهم

في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي بإشراككم بالله شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] أي الإشراك وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون ذلك خطابًا مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة، وهذا القول مع كون الخبر عنه أمرًا عجيبًا هو كما قال، لأن المخبر عنه خبير، وثانيهما: هو أن يكون ذلك خطابًا غير مختص بأحد، أي هذا الذي ذكر هو كما قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أيها السامع كائنًا من كنت ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

لما كثر الدعاء من النبي ﷺ والإصرار من الكفار وقالوا: إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمرًا بالغًا ويهددنا على تركها مبالغًا، فقال تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن المخبر لا يخبر في الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم أن السامع لا علم له به، ثم أن يكون معلومًا عند السامع حتى يقول له: أيها السامع الأمر الذي تعرفه أنت فيه المعنى الفلاني، كقول القائل: زيد قائم أو قام أي زيد الذي تعرفه، ثبت له قيام لا علم عندك به، فإن كان الخبر معلومًا عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهًا لا تفهيمًا يحسن تعريف الخبر غاية الحسن، كقول القائل: الله ربنا ومحمد نبينا، حيث عرف كون الله ربًا، وكون محمد نبيًا، وههنا لما كان كون الناس فقراء أمرًا ظاهرًا لا يخفى على أحد قال: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرًا إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لما زاد في الخبر الأول وهو قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ زيادة وهو قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة لوجوب حصر العبادة في عبادته زاد في وصفه بالغني زيادة وهو كونه حميدًا إشارة إلى كونكم فقراء وفي مقابلته الله غني وفقركم إليه في مقابلة نعمه عليكم لكونه حميدًا واجب الشكر، فلستم أنتم فقراء والله مثلكم في الفقر بل هو غني على الإطلاق

ولستم أنتم لما افتقرتم إليه ترككم غير مقضي الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم، وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد.

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بيانًا لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ليس إذهابكم موقوفًا إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره، وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقًا جديدًا أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي الإذهاب والإتيان، وههنا مسألة: وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه حيث قال في حق نفسه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقال في هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] واستعمله في القائم بغيره حيث قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين؟ فنقول: العزيز هو الغالب في اللغة يقال من عزَّبَزَّ أي من غلب سلب، فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾. متعلق بما قبله، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبي ﷺ لو كان كاذبًا في دعائه لكان مذنبًا وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول أكابركم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي نفس وازرة ولم يقل: ولا تزر نفس وزر أخرى، ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل: ولا تزر نفس وازرة وزر أخرى، لفائدة أما الأول: فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى، لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة في أمرها ووجه آخر: وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى، قد يجتمع معها أن لا تزر وزرًا أصلاً كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزرًا رأسًا فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ بين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير وأما ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ إشارة إلى أن أحدًا لا يحمل عن أحد شيئًا مبتدئًا ولا بعد السؤال، فإن المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله، فإذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولاً: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيظن أن أحدًا لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادرًا على حمله، كما أن القوي إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا تحمل عنه، وأما إذا كان الحمل ثقيلاً قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ يعني ليس عدم الوزر لعدم كونه محلاً للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء.

المسألة الثالثة: زاد في ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي المدعو لو كان ذا قربى لا يحمله وفي الأول كان يمكن أن يقال لا يحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذي يرى عدوه تحت ثقل، أو الأجنبي الذي يرى أجنبيًا تحت حمل لا يحمل عنه فقال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي يحصل جميع المعاني الداعية إلى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الأخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونه سائلة داعية فإن السؤال مظنة الرحمة، لو كان المسؤول قريبًا فإذن لا يكون التخلف إلا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إشارة إلى أن لا إرشاد فوق ما أتيت به، ولم يفدهم، فلا تنذر إنذارًا مفيدًا إلا الذين تمتلئ قلوبهم خشية وتتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [فاطر: ٧] إشارة إلى عمل القلب ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [فاطر: ٧] إشارة إلى عمل الظواهر فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في ذلك المعنى، ثم لما بين ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بين أن الحسنة تنفع المحسنين. فقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فتزكيته لنفسه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلاً فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة إذ المصير إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾.

لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر، وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلاً بالبصير والأعمى، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى.

وفي تفسير الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير، والظلمة والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات؟ فنقول: الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئًا إن لم يكن في ضوء فذكر للإيمان والكفر مثلاً، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور، والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلاً وهو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر وتعب، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى: حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير، فإن الأعمى يشارك البصير في إدراك ما. والكافر غير مدرك إدراكًا نافعًا فهو كالميت، ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وعطف الظلمات والنور والظل والحرور، ثم أعاد الفعل، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ كأنه جعل هذا مقابلاً لذلك.

المسألة الثانية: كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء والأموات، ولم يكرر بين الأعمى والبصير، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة، فالظلمة تنافي النور وتضاده والعمى والبصر كذلك، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيرًا وهو بعينه يصير أعمى، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم، أكد بالتكرار، وأما الأحياء والأموات، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حيًا محلاً للحياة فيصير ميتًا محلاً للموت ولكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان في إدراك أشياء، ولا كذلك الحي والميت، كيف والميت يخالف الحي في

الحقيقة لا في الوصف على ما تبين في الحكمة الإلهية.

المسألة الثالثة: قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور، وأخره في مثلين وهو البصر والنور، وفي مثل هذا يقول المفسرون: إنه لتواخي أواخر الآي، وهو ضعيف لأن تواخي الأواخر راجع إلى السجع، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى، فنقول: الكفار قبل النبي ﷺ كانوا في ضلالة فكانوا كالعمي وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبي ﷺ وبين الحق، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال: وما يستوي من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان، فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد ﷺ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله في الإلهيات: سبقت رحمتي غضبي، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ﴾ أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها.

المسألة الرابعة: فإن قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت: نعم بفضل الله وهدايته، أما في الأعمى والبصير والظل والحرور، فلأنه قابل الجنس بالجنس، ولم يذكر الأفراد لأن في العميان وأولي الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوي فردًا من الجنس الآخر كالبصير الغريب في موضع والأعمى الذي هو تربية ذلك المكان، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البليد البصير، فالتفاوت بينهما في الجنسين مقطوع به فإن جنس البصير خير من جنس الأعمى، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر، إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حيًّا من الأحياء، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التي هي على صورة الملائكة، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوي النور، وقد ذكرنا في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] السبب في توحيد النور وجمع الظلمات، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور

والمستنير. مثاله الشمس إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يمسك الشعاع، فإن البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتًا آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثاني مضيئًا والأول مظلمًا، وإن لم يكن هناك حائل كالبيت الذي لا كوة له فإنه لا يضيء، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أي أمر كان من الأمور الثلاثة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ وفيه احتمال معنيين الأول: أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي، والثاني: أن يكون المراد تسلية النبي ﷺ فإنه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له: هؤلاء لا يسمعهم إلا الله، فإنه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء، وأما أنت فلا تسمع من في القبور، فما عليك من حسابهم من شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ۝٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ۝٢٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بيانًا للتسلية.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾ لما قال: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بين أنه ليس نذيرًا من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ تقريرًا لأمرين أحدهما: لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم، وثانيهما: إلزام القوم قبوله فإنه ليس بدعًا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾.

يعني أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضًا أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلاً إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمدًا ﷺ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ والكل آتيناها محمدًا، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين، وهذا يكون تقريرًا مع أهل الكتاب، واعلم أنه تعالى ذكر أمورًا ثلاثة أولها البينات، وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعًا ناسخًا، ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه

ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية، ومن يكون كذلك فهو من أولي العزم فقال: الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ سؤال للتقرير فإنهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾.

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل:

المسألة الأولى: ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ [فاطر: ٩] وفيه وجهان الأول: أن إنزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جدًا كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جدًا، فقال له غيره: أين هو؟ فإنه يقول له: في الموضع الفلاني، فإن لم يره، يقول له: الحق معك إنه خفي وأنت معذور، وإذا كان بارزًا يقول له: أما تراه هذا هو ظاهرًا، والثاني: وهو أنه ذكره بعدما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات، فقال له: أنت صرت بصيرًا بما ذكرناه ولم يبق لك عذر، ألا ترى هذه الآية.

المسألة الثانية: المخاطب من هو؟ يحتمل وجهين أحدهما: النبي ﷺ وفيه حكمة وهي أن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد، يقول لغيره: اسمع ولا تكن مثل هذا، ويكرر معه ما ذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة، والآخر: أن لا يخرج إلى كلام أجنبي عن الأول، بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الأول كلامًا آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة.

المسألة الثالثة: هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ممرات مختلفة، وفيه لطائف الأولى: قال: (أنزل) وقال: (أخرجنا). وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ﴾ فإن كان جاهلاً يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم، ووجه آخر: هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ﴾ علم الله بدليل، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين، فقال له: (أخرجنا) لقربه، ووجه ثالث: الإخراج أتم نعمة من الإنزال، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب.

اللطيفة الثانية: قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾.

كأن قائلاً قال: اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع. ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره، فقال تعالى: اختلاف البقاع ليس إلا بإرادة الله وإلا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض، والجدد جمع جدة وهي الخطة أو الطريقة، فإن قيل: الواو في: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾ ما تقديرها؟ نقول: هي تحتمل وجهين أحدهما: أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان، وفي الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة، رادة على من ينكر الإرادة في اختلاف ألوان الثمار، ثانيهما: أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال. قال الزمخشري: أراد ذو جدد.

واللطيفة الثالثة: ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال في موضع آخر: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد: ٤] مع أن هذا الدليل مثل ذلك، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر في الأول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ كان نفس إخراج الثمار دليلاً على القدرة ثم زاد عليه بيانًا، وقال: (مختلفًا) كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والإرادة، لأن كون الجبال في بعض نواحي الأرض دون بعضها والاختلاف الذي في هيئة الجبل فإن بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار، ثم زاده بيانًا وقال ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾، أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل.

المسألة الرابعة: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾، الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون أي بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص، وكذلك الأحمر، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى، وعلى هذا فنقول: لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب، لأن الأسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغًا غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف.

المسألة الخامسة: قيل بأن الغربيب مؤكد للأسود، يقال: أسود غربيب، والمؤكد لا يجيء إلا متأخرًا فكيف جاء غرابيب سود؟ نقول: قال الزمخشري: غرابيب مؤكد لذي لون مقدر في الكلام كأنه تعالى قال: سواد غرابيب، ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهي زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمرًا ومظهرًا، ومنهم من قال: هو على التقديم والتأخير، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ استدلالاً آخر على قدرته وإرادته، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين: حيوان وغير حيوان، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن، والنبات أشرف، وأشار إليه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ ثم ذكر المعدن بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الإنسان فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم ذكر الدواب، لأن منافعها في حياتها والأنعام منفعتها في الأكل منها، أو لأن الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الإنسان أشرف من غيره، وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ القول فيه كما أنها في أنفسها دلائل، كذلك في اختلافها دلائل. وأما قوله ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فذكر لكون الإنسان من جملة المذكورين، وكون التذكير أعلى وأولى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

الخشية بقدر معرفة المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فبين أن الكرامة بقدر التقوى، والتقوى بقدر العلم. فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه، فإن من يراه يقول: لو علم لعمل. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ذكر ما يوجب الخوف والرجاء، فكونه عزيزًا ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكونه غفورًا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ. وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله، معناها إنما يعظم ويبجل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه. وقوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إشارة إلى العمل البدني.

وقوله: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى العمل المالي، وفي الآيتين حكمة بالغة، فقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى عمل القلب، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ إشارة إلى عمل اللسان. وقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى عمل الجوارح، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة

بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه، لأنا بينا أن من يعظم ملكًا إذا رأى عبدًا من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم، وإلى هذا أشار بقوله: عبدي مرضت فما عدتني، فيقول العبد: كيف تمرض وأنت رب العالمين؟! فيقول الله: مرض عبدي فلان وما زرته ولو زرته لوجدتني عنده، يعني التعظيم متعلق بالشفقة فحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله.

وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حث على الإنفاق كيفما يتهيأ، فإن تهيأ سرًّا فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء، فإن ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿سِرًّا﴾ أي صدقة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أي زكاة، فإن الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب.

وقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص، أي ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله، فإن غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠ وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي ما يتوقعونه ولو كان أمرًا بالغ الغاية ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء في تفسير الزيادة ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿شَكُورٌ﴾ عند إعطاء الزيادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ﴾.

لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩] وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم﴾ [فاطر: ١١] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ﴾ [فاطر: ٢٧] ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة، فقال: ﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ﴾ وأيضًا كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال: ﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ﴾ تقريرًا لما بين من الأجر والثواب في تلاوة كتاب الله فإنه حق وصدق فتاليه محق ومحقق.

وفي تفسيرها مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿مِنَ الْكِتَٰبِ﴾ يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالي وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعني الذي أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعني الإرشاد والتبيين الذي أوحينا إليك من القرآن، ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال: أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ آكد من قول القائل: الذي أوحينا إليك حق، من وجهين أحدهما: أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور لأن الخبر في الأكثر يكون نكرة، لأن الإخبار في الغالب يكون إعلامًا بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا: زيد قام، فإن السامع ينبغي أن يكون عارفًا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به، فإذا كان الخبر أيضًا معلومًا فيكون الإخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا: زيد العالم في هذه المدينة، إذا كان علمه مشهورًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال مؤكدة لكونه حقًّا لأن الحق إذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله يكون خاليًا عن احتمال البطلان، وفي قوله ﴿مُصَدِّقًا﴾ تقرير لكونه وحيًا؛ لأن النبي ﷺ لما لم يكن قارئًا كاتبًا وأتى ببيان ما في كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال: التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان في التوراة فهو حق وباق على ما نزل، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلاف فهو ليس من التوراة، فالقرآن مصدق للتوراة، وفيه وجه آخر: وهو أن يقال: إن هذا الوحي مصدق لما تقدم لأن الوحي لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام في إنزال التوراة والإنجيل فإذا وجد الوحي ونزل على محمد ﷺ علم جوازه وصدق به ما تقدم، وعلى هذا ففيه لطيفة: وهي أنه تعالى جعل القرآن مصدقًا لما مضى مع أن ما مضى أيضًا مصدق له لأن الوحي إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ ولم يجعل ما تقدم مصدقًا للقرآن كونه معجزة يكفي في تصديقه بأنه وحي، وأما ما تقدم فلا بد معه من معجزة تصدقه.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر، فلا يكون باطلاً في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر، وثانيهما: أن يكون جوابًا لما كانوا يقولونه إنه لِمَ لم ينزل على رجل عظيم؟ فيقال: إن الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمدًا عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] أخبر بدخولهم الجنة وكلمة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ أيضًا تدل عليه لأن الإيراث

إذا كان بعد الإيحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والإيراث المراد منه الإعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى، ويحتمل أن يقال: المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] والمعنى على هذا: إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء إطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم لأن قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ دل على أن العباد أكابر مكرمون بالإضافة إليه، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالمًا مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر وسمي الشرك ظلمًا، وعلى الوجه الأول الظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ﴾ وهو المسيء ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيئات، فإن قال قائل: كيف قال في حق من ذكر في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع؟ فنقول: المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1] ويصحح هذا قول عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ظالمنا مغفور له»[2] وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وأما الكافر فيضع قلبه الذي به اعتبار الجسد في غير موضعه فهو ظالم على الإطلاق، وأما قلب المؤمن فمطمئن بالإيمان لا يضعه في غير التفكر في آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله، وفي المراتب الثلاث أقوال كثيرة: أحدها: الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذي تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذي ترجحت حسناته، ثانيها: الظالم هو الذي ظاهره خير من باطنه، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه، والسابق من باطنه خير، ثالثها: الظالم هو الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه، والمقتصد هو الموحد الذي يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف، والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد عن التوحيد،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأشربة)، باب: (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ﴾ [المائدة: ٩٠]) (١٠/ ٣٣)، حديث رقم (٥٥٧٨)، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (بيان نقصان الإيمان بالمعاصي) (١/ ١٠٠/ ٧٦) من طريق الأعمش... به.

(٢) ضعيف: رواه الثعالبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٢٥٦) من طريق عمرو بن الحصين عن الفضل بن عميرة عن ميمون الكردي عن أبي عثمان النهدي قال سمعت عمر بن الخطاب... فذكره، والبيهقي في (البعث والنشور) (١/ ٦٣)، حديث رقم (٥٩) من طريق عبيد الله بن موسى أنبأنا مسكين بن عبد العزيز حدثنا حفص بن خالد بن جابر حدثني ميمون بن سياه عن عمر... به، والعقيلي في (الضعفاء) (٧/ ١٧٨)، حديث رقم (١٦٤١) من طريق عمرو بن الحصين حدثنا الفضل بن عميرة القيسي عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي سمعت عمر بن الخطاب... به، وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٦٩٤٤)، وقال: رواه البيهقي في البعث عن ابن عمر.

ورابعها: الظالم صاحب الكبيرة، والمقتصد صاحب الصغيرة، والسابق المعصوم، خامسها: الظالم التالي للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه، والمقتصد التالي العالم، والسابق التالي العالم العامل، سادسها: الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم، سابعها: الظالم أصحاب المشأمة، والمقتصد أصحاب الميمنة، والسابق السابقون المقربون، ثامنها: الظالم الذي يحاسب فيدخل النار، والمقتصد الذي يحاسب فيدخل الجنة، والسابق الذي يدخل الجنة من غير حساب، تاسعها: الظالم المصر على المعصية، والمقتصد هو النادم والتائب، والسابق هو المقبول التوبة، عاشرها: الظالم الذين أخذ القرآن ولم يعمل به، والمقتصد الذي عمل به، والسابق الذي أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل، والمقتصد كامل والظالم ناقص، والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فإنه واضع للشيء في غير موضعه، والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فإنه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع في قلبه فترده النفس، والظالم تغلبه النفس، ونقول بعبارة أخرى: من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم، ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد، ومن قهر نفسه فهو السابق. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يحتمل وجوهًا أحدها: التوفيق المدلول عليه بقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، ثانيها: السبق بالخيرات هو الفضل الكبير، ثالثها: الإيراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير، أما الوجه الآخر وهو أن يقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي جنس الكتاب، كما قال تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] يرد عليه أسئلة أحدها: ثم للتراخي وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد ﷺ لم يكن فما المراد بكلمة ثم؟ نقول: معناه إن الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه تعالى قال: إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عبادًا ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾، ثانيها: كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه؟ نقول: منهم غير راجع إلى الأنبياء المصطفين، بل المعنى إن الذي أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلاً وآتيناهم كتبًا، ومنهم أي من قومك ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحًا، وثالثها: قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلاً، نقول: الداخلون هم السابقون، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لأول الأمر لا لما بعده، ويدل عليه قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] وقوله: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

وفي الداخلين وجوه أحدها: الأقسام الثلاثة وهي على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين، والثاني: الذين يتلون كتاب الله، والثالث: هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث:

الأول: تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقيًا كقولنا: ﴿ٱللَّهُ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١٩]، وقول القائل: زيد بنى الجدار، فإن الله موجود قبل كل شيء، ثم له فعل هو الخلق، ثم حصل به المفعول وهو السموات، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه، وإذا لم يكن المفعول حقيقيًا كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمرًا فإن الدار في الحقيقة ليس مفعولاً للداخل وإنما فعل من أفعال تحقق بالنسبة إلى الدار، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمي مفعولاً لا يحصل هذا الترتيب، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول: عمرًا ضربه زيد، فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكرها بالهاء في (يدخلونها)؟ وما الفرق بين هذا وبين قول القائل: يدخلونها جنات عدن؟ نقول: السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فإذا قيل له: أنت تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون، فإذا قيل له: دار زيد تدخلها، فبذكر الدار يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار، فإن بين المدخلين بونًا بعيدًا.

الثاني: قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ إشارة إلى سرعة الدخول فإن التحلية لو وقعت خارجًا لكان فيه تأخير الدخول فقال: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وفيها تقع تحليتهم.

الثالث: قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ بجمع الجمع فإنه جمع أسورة وهي جمع سوار، وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى.

الرابع: ذكر الأساور من بين سائر الحلي في كثير من المواضع منها قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] وذلك لأن التحلي بمعنيين أحدهما: إظهار كون المتحلي غير مبتذل في الأشغال لأن التحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل وثانيهما: إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلي إما باللآلئ والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلي بالجواهر واللآلئ يدل على أن المتحلي لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة

حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة، والتحلي بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد فإنها للبطش، فإذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

في الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهاب كل حزن والألف واللام للجنس واستغراقه وإذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغي وبقائه دائمًا فإن شيئًا منه لو لم يحصل لكان الحزن موجودًا بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد زواله وخوف فواته، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ذكر الله عنهم أمورًا كلها تفيد الكرامة من الله الأول: الحمد فإن الحامد مثاب، الثاني: قولهم (رَبَّنَا) فإن الله لم يناد بهذا اللفظ إلا واستجاب لهم، اللهم إلا أن يكون المنادي قد ضيع الوقت الواجب أو طلب ما لا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة، الثالث: قولهم: (غَفُورٌ)، الرابع: قولهم: ﴿شَكُورٌ﴾ والغفور إشارة إلى ما غفر لهم في الآخرة بما وجد لهم من الحمد في الدنيا، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم في الآخرة من الحمد.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي دار الإقامة، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي الإقامة والمفعول ربما يجيء للمصدر من كل باب يقال: ما له معقول، أي عقل، وقال تعالى: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩] وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول في الحقيقة، فإنه هو الذي فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفي قوله: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق. وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة، وكذلك النار لأهلها، وقولهم: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي بحكم وعده لا بإيجاب من عنده.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للإعياء فإن قال قائل إذا بين أنه لايمسهم فيها نصب علم أنه لا يمسهم فيها لغوب ولا ينفي المتكلم الحكيم السبب، ثم ينفي مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل: لا أكلت ولا شبعت، أو: لا قمت ولا مشيت، والعكس كثير فإنه يقال: لا شبعت ولا أكلت، لما أن نفي الشبع لا يلزمه انتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال: لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة، فنقول ما قاله الله في

غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فإن الدنيا أماكنها على قسمين: أحدهما: موضع نمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري والطرقات والأراضي، والآخر: موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي في الأسفار من الخانات فإن من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعدما يستريح فقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع العي، فقال: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي، لا نخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الإعياء وقرئ (لغوب) بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال: لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك، وهذا لأن القوي السوي إذا قال: ما تعبت اليوم، لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئًا لجواز أنه عمل عملاً لم يكن بالنسبة إليه متعبًا لوقته، فإذا قال: ما مسني ما يصلح أن يكون متعبًا يفهم أنه لم يعمل شيئًا لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعبًا لضعيف أو متعبًا بسبب كثرته، واللغوب هو ما يغلب منه وقيل النصب التعب الممرض، وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال: لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذي يعيا منه مباشرة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩] وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى ﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]

ثم قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي النار وفيه لطائف: الأولى: أن العذاب في الدنيا إن دام كثيرًا يقتل فإن لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجًا فاسدًا متمكنًا لا يحس به المعذب، فقال: عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا، إما أن يفنى وإما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم، الثانية: راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العذاب، ولا يفتر فقال: لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] أي بالموت، الثالثة: في المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم، ولم يقل: نزيدهم عذابًا. وفي المثابين ذكر الزيادة بقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣] ثم لما بين أن عذابهم لا يخفف.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي لا يخفف وإن اصطرخوا واضطربوا لا يخفف الله من عنده إنعامًا إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي صراخهم بهذا أي يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لا تأديب، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه: لا أرجع إلى ما فعلت وبئسما فعلت، يتركه، وأما المعذب فلا، وترتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لا يخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم بين أنه لا يقبل منهم وعدًا وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فإذا طال لبثه تطلب الإخراج من غير قطيعة على نفسه فإن لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول: أخرجني أفعل كذا وكذا.

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة ضال كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار، وعلى هذا قالوا: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ جازمين من غير استعانة بالله ولا مثنوية فيه، ولم يقولوا: إن الأمر بيد الله، فقال الله لهم: إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقدارًا يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال. وقولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم، وكأن الله تعالى كما لم يهدهم في الدنيا لم يهدهم في الآخرة، فما قالوا: ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعلمهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظرًا إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظرًا إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة، وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا: الحمد لله، وقالوا: ربنا غفور، اعترافًا بتقصيرهم: (شكور) إقرارًا بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم وقالوا: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥] أي لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ إغماضًا في حق تعظيمه وإعراضًا عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته، ثم إنه تعالى بين أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل في المحل، فإن النبي ﷺ كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات.

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله، وإما أن يكون في مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة، فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها وأتوا بالمعذرة في غير وقتها من نصير في وقت الحاجة ينصرهم، قال بعض الحكماء: قوله: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلاً مركبًا، وهو الذي يعتقد الباطل حقًّا في الدنيا وما له من نصير أي من علم ينفعه في الآخرة، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطانًا، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيرًا فما لهم من نصير أصلاً، ويمكن أن يقال: إن الله تعالى قال في آل عمران: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]وقال: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩]وقال هاهنا: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي هذا وقت كونهم واقعين في النار، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال: (ما لكم من نصير) أصلاً، وهناك كان الأمر محكيًّا في الدنيا أو في أوائل الحشر، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

تقريرًا لدوامهم في العذاب، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]ولا يزاد عليها، فلو قال قائل: الكافر ما كفر بالله إلا أيامًا معدودة، فكان ينبغي أن لا يعذب إلى مثل تلك الأيام، فقال تعالى: إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما في الصدور، وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده.

وفي قوله تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى، وهي أن لقائل أن يقول: الصدور هي ذات اعتقادات وظنون، فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور؟ ويقرر السؤال قولهم: أرض ذات أشجار وذات جنى، إذا كان فيها ذلك، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد، فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال: الدار ذات زيد، ويصح أن يقال: زيد ذو دار ومال، وإن كان هو فيها.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ

أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

تقريرًا لقطع حجتهم فإنهم لما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧]وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧]إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]أي آتيناكم عقولاً، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فإنكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف، لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتًا كالعبد الذي لا يخدم سيده واللاحق الذي أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذي ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالي لهم الذي رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة، فإن العمر كالرأس مال من اشترى به رضا الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

تقريرًا للتوحيد وإبطالاً للإشراك، وقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ المراد منه أخبروني؛ لأن الاستفهام يستدعي جوابًا، يقول القائل: أرأيت ماذا فعل زيد؟ فيقول السامع باع أو اشترى، ولولا تضمنه معنى أخبرني وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم، وقوله: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله، وإنما هم جعلوها شركاء، فقال: (شركاءكم)، أي الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال: (شركاءكم)، أي شركاءكم في النار لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]وهو قريب، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول، وقوله: ﴿أَرُونِى﴾ بدل عن ﴿أَرُونِى﴾ لأن كليهما يفيد معنى أخبروني، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ استفهام حقيقي و﴿أَرُونِى﴾ أمر تعجيز للتبين، فلما

قال: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة، فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي، أهي في الأرض؟ كما قال بعضهم: إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة الأرض، وهم الذين قالوا: أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها، أم هي في السموات؟ كما قال بعضهم: إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء في خلق السموات، وهذه الأصنام صورها، أم قدرتها في الشفاعة لكم؟ كما قال بعضهم: إن الملائكة ما خلقوا شيئًا ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا، فهل معهم كتاب من الله فيه إذنه لهم بالشفاعة؟ وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ في العائد إليه الضمير وجهان أحدهما: أنه عائد إلى الشركاء، أي هل أتينا الشركاء كتابًا؟ وثانيهما: أنه عائد إلى المشركين، أي هل آتينا المشركين كتابًا؟ وعلى الأول فمعناه ما ذكرنا، أي هل مع ما جعل شريكًا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله؟ فإن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، وعلى الثاني معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءًا من الأجزاء ولا في السماء شيئًا من الأشياء، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتابًا فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة، فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضًا ليس إلا غرورًا غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام.

ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله قدير بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ويحتمل أن يقال: لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١] ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كان حليمًا ما ترك تعذيبهم إلا حلمًا منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم وإنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حلمًا، وتحتمل الآية وجهًا ثالثًا: وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضًا كأنه تعالى قال: شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئًا ولا في السماء جزءًا ولا قدروا على الشفاعة، فلا عبادة لهم. وهب أنهم فعلوا شيئًا من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ويؤيد هذا قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فإذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، حليمًا حيث لم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفورًا يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ﴾.

لما بين إنكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلاً وقالوا: إنما نكذب بمحمد ﷺ لكونه كاذبًا، ولو تبين لنا كونه رسولاً لآمنا كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٩] وهذا مبالغة منهم في التكذيب، كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول: والله لو علمت أن له شيئًا علي لقضيته وزدت له، إظهارًا لكونه مطالبًا بالباطل، فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الأمم فلما جاءهم نذير أي محمد ﷺ جاءهم أي صح مجيئه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفورًا، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا بعد الرسالة، وقال بعض المفسرين: إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسلهم لما جاءوهم وقالو لو جاءنا رسول لأطعناه واتبعناه، وهذا فيه إشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقًا، فكيف كانوا يعترفون بالرسل، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وما جاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئًا وكذبوا في شيء؟ بل المراد ما ذكرنا أنهم كانوا يقولون: نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وإنما ننكر كون محمد رسولاً من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولاً لآمنا، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي فلما صح لهم مجيئه بالمعجزة، وفي قوله: ﴿أَهْدَىٰ﴾ وجهان أحدهما: أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ﴾ للنبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى، وثانيهما: أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل: زيد أولى من عمرو، وفي الأمم وجهان أحدهما: أن يكون المراد العموم أي أهدى من أي إحدى الأمم وفيه تعريض، وثانيهما: أن يكون المراد تعريف العهد أي أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان في زمانهم.

ثم قال تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون حالاً أي

مستكبرين في الأرض، وثانيها: أن يكون مفعولاً له أي للاستكبار، وثالثها: أن يكون بدلاً عن النفور، وقوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾ إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكرًا مكرًا سيئًا ثم عرف لظهور مكرهم، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيئ لكون السوء فيه أبين الأمور، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [فاطر: ١٠] أي يعملون السيئات، ومكرهم السيئ، وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول في الإيمان وإظهار الإنكار، ثم قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي لا يحيط إلا بفاعله وفي قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فوائد، أما في قوله: ﴿يَحِيقُ﴾ فهي أنها تنبئ عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس في قوله: ولا يلحق أو ولا يصل، وأما في قوله: ﴿بِأَهْلِهِۦ﴾ ففيه ما ليس في قول القائل ولا يحيق المكر السيئ إلا بالماكر، كي لا يأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيئ آخر قد يلحقه جزاء على سيئه، وأما إذا لم يكن سيئًا فلا يكون أهلاً فيأمن المكر السيئ، وأما في النفي والإثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيئ يحيق بأهله، فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله، فإن قال قائل: كثيرًا ما نرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك، فنقول: الجواب عنه من وجوه أحدها: أن المكر المذكور في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي ﷺ من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم، حيث قتلوا يوم بدر وغيره، وثانيها: هو أن نقول المكر السيئ عام وهو الأصح فإن النبي عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ تَمْكُرُوا وَلاَ تُعِينُوا مَاكِرًا فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السيئ إِلاَّ بِأَهْلِهِ» وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به (لاَ) يكون أهلاً فلا يرد نقضًا، وثالثها: أن الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا، ويبين هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾ يعني إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها، فيهلكون كما هلك الأولون.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾ أي ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين، فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمرًا: عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ما له من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ما له من العلم والحكمة فكذلك

سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ لأنها سنة من سنن الله، إذا علمت هذا فنقول أضافها في الأول إليهم حيث قال: ﴿سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فإذا قال سنة الأولين تميزت وفي الثاني أضافها إلى الله، لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع، وثانيهما: أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار، وسنة الله استئصالهم بإصرارهم فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها.

المسألة الثانية: التبديل تحويل فما الحكمة في التكرار؟ نقول: بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره، وبقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء.

المسألة الثالثة: المخاطب بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يحتمل وجهين وقد تقدم مرارًا: أحدهما: أن يكون عامًّا كأنه قال: فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلاً، والثاني: أن يكون مع محمد ﷺ وعلى هذا فكأنه قال: سنة الله أنه لا يهلك ما بقي في القوم من كتب الله إيمانه، فإذا آمن من في علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ﴾ [نوح: ٢٧]أي تمهل الأمر وجاء وقت سنتك.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾

لما ذكر أن للأولين سنة وهي الإهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فإنهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمدًا وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمدًا ومن تقدمه، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ قد ذكرناه في سورة الروم، بقي فيه أبحاث:

الأول:قال هناك: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ﴾ [الروم: ٩]من غير واو، وقال ههنا بالواو فما الفرق؟ نقول: قول القائل: أما رأيت زيدًا كيف أكرمني وأعظم منك؟ يفيد أن القائل يخبره بأن زيدًا أعظم، وإذا قال: أما رأيته كيف أكرمني هو أعظم منك؟ يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار، إذا علمت هذا فنقول: المذكور

ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير، ولعل ذلك كان ظاهرًا عندهم فقال بالواو أي نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فإنه قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] وفي موضع آخر قال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غافر: ٨٢] ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلومًا عندهم فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون بيانًا لهم أي أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لا يعجزوه، والثاني: أن يكون قطعًا لأطماع الجهال فإن قائلاً لو قال: هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعمارًا لكنا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا﴾ بأفعالهم وأقوالهم: ﴿قَدِيرٗا﴾ على إهلاكهم واستئصالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون: عجل لنا عذابنا، فقال الله: للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم فإن الإنسان ظلوم جهول، وإنما يؤاخذ بالإصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الإيمان ممن كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون؟ نقول: الجواب من وجوه أحدها: أن خلق الدواب نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولاً ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنيًا وإما أن يكون ناميًا والنامي إما أن يكون حيوانًا وإما أن يكون نباتًا، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للإنسان، الثاني: هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فإن بقاء الأشياء بالإنسان كما أن بقاء الإنسان بالأشياء وذلك لأن الإنسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى

الأشياء ثم ينتفع بها الإنسان فيبقى الإنسان فإذا كان الهلاك عامًّا لا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الإنسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف، الثالث: هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله في حق العباد فإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الوجه الثالث: لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ كناية عن الأرض وهي غير مذكورة فكيف علم؟ نقول: مما تقدم ومما تأخر، أما ما تقدم فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها، وأما ما تأخر فقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لأن الدواب على ظهر الأرض، فإن قيل: كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض وظهر الأرض، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد؟ نقول: من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها، على أن الظهر في مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن.

المسألة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وجوه أحدها: إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور في كثير من المواضع، ثانيها: يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن على ما تقدم، ثالثها: لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ تسلية للمؤمنين، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وقال: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] قال: فإذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير، إما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريبًا من الله لا تعذيبًا، لا يقال: قد ذكرت أن الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم، وإنما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا، نقول قد ذكرنا أن الإماتة والإفناء إن كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب وإهلاك، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذة، والله لا يؤاخذ الناس إلا عند عموم الكفر، وقوله: ﴿بَصِيرًۢا﴾ اللفظ أتم في التسلية من العليم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة فاطر

مكيةٌ في قولِ الجميع، وهي خمسٌ وأربعون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجوز في «فاطر» ثلاثةُ أَوْجُهٍ: الخفضُ على النعت، والرفعُ على إضمارِ مبتدأ، والنصبُ على المدح. وحكى سيبويه: الحمدُ للهِ أهل الحمد [مثله]، وكذا «جاعِلِ الملائكةِ»[1]. والفاطِرُ: الخالق. وقد مضى في «يوسف»[2] وغيرِها. والفَطْر: الشَّقُّ عن الشيء؛ يقال: فَطرتُه فانْفَطر. ومنه: فَطَرَ نابُ البعير: طَلَعَ، فهو بعيرٌ فاطِرٌ. وتفطَّر الشيءُ: تَشَقَّق. وسيفٌ فُطار، أي: فيه تشقُّقٌ؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كِمْعِي سلاحي لا أفَلَّ ولا فُطارا[3]

والفَطْرُ: الابتداءُ والاختراع؛ قال ابن عباس: كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر، فقال أحدُهما: أنا فَطرتُها، أي: أنا ابتدأتُها. والفَطْر: حلبُ الناقة بالسبَّابة والإبهام[4]. والمرادُ بِذِكْرِ السماوات والأرض

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٦٢-٦٣.

(٢) ١١/ ٤٦٣.

(٣) ديوان عنترة ص٤٣، والمعاني الكبير ٢/ ١٠٨٢، والصحاح (فطر) والكلام منه. قال ابن قتيبة: العقيقة: لمعة البرق. كِمْعي: ضجيعي، يريد أنه إلى جانبي، أفلّ: به فُلول، والفُطار: الذي لم يصقل، فهو متشقِّق.

(٤) الصحاح (فطر)، وخبر ابن عباس أخرجه أبو عبيد في غريب القرآن ٤/ ٤٧٣، والطبري ٩/ ١٧٥، وأبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧١-٧٢، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٨.

العالمُ كلُّه، ونبَّه بهذا على أنَّ مَن قدر على الابتداء قادرٌ على الإعادة.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لا يجوزُ فيه التنوين؛ لأنَّه لِمَا مَضى. ﴿رُسُلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ، ويقالُ: على إضمارِ فعلٍ؛ لأنَّ «فاعلاً» إذا كان لِمَا مضى لم يعمل[1] شيئاً، وإعمالُه على أنه مستقبلٌ حُذِفَ التنوينُ منه تخفيفاً. وقرأ الضحاك: «الحمدُ للهِ فَطَر السماواتِ والأرض» على الفعل الماضي[2].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ الرسلُ منهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ومَلَكُ الموت، صلى الله عليهم أجمعين. وقرأ الحسن: «جَاعِلُ الملائكة» بالرفع[3]. وقرأ خُلَيد بن نَشِيط: «جَعَلَ الملائكة»[4] وكلُّه ظاهر.

﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ نعتٌ، أي: أصحابَ أجنحةٍ. ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضُهم له جناحان، وبعضُهم ثلاثةٌ، وبعضُهم أربعةٌ[5]، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرةُ كذا في وقتٍ واحد، أي: جَعَلَهم رسلاً. قال يحيى بن سلام: إلى الأنبياء. وقال السُّدِّيُّ: إلى العباد برحمةٍ أو نقمة[6].

وفي «صحيح» مسلم[7] عن ابن مسعود ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى جبريلَ عليه السلام له ستُّ مئة جَناح.

وعن الزُّهريِّ: أنَّ جبريل عليه السلام قال له: «يا محمد، لو رأيتَ إسرافيل، إنَّ

---

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): فيه، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة: ص١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨.

(٣) القراءات الشاذة: ص١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨.

(٤) المحتسب ٢/ ١٩٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٢٦.

(٦) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦١. وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

(٧) برقم (١٧٤)، وهو عند أحمد (٣٧٨٠)، والبخاري (٣٢٣٢).

له لَاثْنَي عَشَرَ جناحاً[١]، منها جناحٌ بالمَشْرقِ، وجناحٌ بالمغرب، وإنَّ العرش لَعَلَى كاهله، وإنه في الأحايين ليتضاءلُ لعظمةِ الله حتى يعود مثل الوَصَع ـ والوَصَعُ: العصفورُ الصغير ـ حتى ما يحمل عرشَ ربِّك إلاَّ عَظَمتُه»[٢].

و«أُولُو» اسمُ جمعٍ لـ«ذو»، كما أن هؤلاء اسم جمع لـ «ذا»، ونظيرُهما في المتمكِّنة: المخَاض والخَلِفة[٣]. وقد مضى الكلام في ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ في «النساء» وأنه غيرُ منصرِف[٤].

﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي: في خَلْقِ الملائكة، في قول أكثر المفسِّرين؛ ذكره المهدويُّ. وقال الحسن: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: في أجنحة الملائكة ما يشاء.

وقال الزُّهريُّ وابنُ جُريح: يعني حُسْنَ الصوت[٥]. وقد مضى القولُ فيه في مقدِّمة الكتاب[٦]. وقال الهيثم الفارسيُّ: رأيت النبيَّ ﷺ في منامي، فقال: أنت الهيثمُ الذي تُزيِّن القرآنَ بصوتك، جزاك الله خيراً[٧].

وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ المَلاحَة في العينين، والحُسْن في الأنف، والحلاوة في الفم[٨].

---

(١) في النسخ: لاثني عشر ألف جناح، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) أخرجه مطولاً ابن المبارك في الزهد (٢٢١)، وذكره أبو الليث ٣/ ٨٠ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٨ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨. والمخاض اسم للنوق الحوامل، واحدتها خَلِفَة. النهاية (مخض).

(٤) ٦/ ٣٠ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢ ، وقول الزهري أخرجه البيهقي في الشعب (١١٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) ١/ ٢١ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ .

(٨) أخرجه ابن عدي ٣/ ٩١٧ ، والبيهقي في الشعب (٩١٦) مختصراً بذكر الملاحة في العينين. وكذا ورد في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ ، والكشاف ٣/ ٢٩٨ .

وقيل: الخطُّ الحَسَن. وقال مُهاجِر الكَلاعيُّ: قال النبيُّ ﷺ: «الخطُّ الحَسَنُ يَزيدُ الكلامَ وضوحاً»[١].

وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجهُ الحسن، والصوتُ الحَسَن، والشَّعر الحسن[٢]؛ ذكره القُشَيريُّ.

النقَّاش: هو الشعرُ الجَعْد. وقيل: العقلُ والتمييز. وقيل: العلومُ والصنائع[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النقصان والزيادة.

الزمخشريُّ[٤]: والآيةُ مُطْلَقةٌ تتناولُ كلَّ زيادةٍ في الخَلْقِ؛ من طولِ قامةٍ، واعتدالِ صورةٍ، وتَمامٍ في الأعضاء، وقوةٍ في البَطْش، وحَصَافةٍ في العقل، وجَزَالةٍ في الرأي، وجرأةٍ في القلب، وسَماحةٍ في النفس، وذَلاقةٍ في اللسان، ولَباقةٍ في التكلُّم، وحُسْنِ تأتٍّ في مُزاولةِ الأمور؛ وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا لا يحيطُ به وَصْفٌ.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ﴾ وأجاز النَّحْويون في غير القرآن: «فلا مُمْسِكَ له» على لَفْظِ «ما». و«لها» على المعنى. وأجازوا: «وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لها» [على معنى «ما»]. وأجازوا: «ما يفتحُ الله للناس من رحمةٍ» ـ بالرفع ـ تكونُ «ما» بمعنى الذي[٥].

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٦٠ ، وقال عن مهاجر، ولست أعرف له صحبة. وذكر الخبر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ ، والذهبي في الميزان ٢/ ٣٥٨ وقال: هذا خبر منكر. ووقع في هذه المصادر: «... يزيد الحق وضوحاً».

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢ .

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٩٨ .

(٥) وقال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٦٢: ولا أعلم أحداً قرأ به. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

أي: إنَّ الرسل بُعثوا رحمةً للناس، فلا يَقْدِرُ على إرسالهم غيرُ الله. وقيل: ما يأتيهم به اللهُ من مطرٍ أو رزقٍ فلا يقدرُ أحدٌ أن يمسكه، وما يُمسِك من ذلك فلا يقدرُ أحدٌ على أن يرسله.

وقيل: هو الدعاء؛ قاله الضحاك. ابن عباس: من توبة. وقيل: من توفيقٍ وهداية(١).

قلت: ولفظُ الرحمةِ يجمعُ ذلك؛ إذ هي منكَّرةٌ للإشاعة والإبهام، فهي مُتَناولةٌ لكلِّ رحمةٍ على البدل، فهو عامٌّ في جميع ما ذُكر. وفي «موطأ» مالك(٢): أنَّه بلغه أنَّ أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس: مُطِرْنا بنَوْءِ الفتح، ثم يتلو هذه الآية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم(٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ معنى هذا الذِّكْرِ الشُّكْرُ. ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يجوز في «غير» الرفعُ والنَّصْبُ والخَفْض، فالرفعُ من وجهين: أحدُهما بمعنى: هل من خالقٍ إلاَّ اللهُ؛ بمعنى ما خالقٌ إلاَّ اللهُ. والوجه الثاني: أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأنَّ المعنى: هل خالقٌ غيرُ اللهِ، و«مِن» زائدة. والنصبُ على الاستثناء. والخفضُ على اللفظ(٤).

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢-٤٦٣. وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

(٢) ١/ ١٩٢.

(٣) ١/ ٤٢٩ و٢/ ٤٠٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠. وقرأ بنصب «غير» الفضل بن إبراهيم النحوي كما في القراءات الشاذة ص١٢٣، وستأتي القراءة بالرفع والجر.

قال حُميد الطويل: قلت للحسن: مَن خَلَق الشرَّ؟ فقال: سبحان الله! هل مِن خالقٍ غيرُ الله جلَّ وعزَّ خَلَقَ الخيرَ والشرّ[(١)].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿هل مِن خالقٍ غيرِ اللهِ﴾ بالخفض. الباقون بالرفع[(٢)].

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: النبات. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من الأَفْك ـ بالفتح ـ وهو الصَّرْف؛ يقال: ما أَفَكَكَ عن كذا؟ أي: ما صَرَفَكَ عنه. وقيل: من الإفك ـ بالكسر ـ وهو الكذب، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدَّم؛ لأنه قولٌ مصروفٌ عن الصِّدْقِ والصَّواب، أي: مِن أين يقعُ لكم التكذيبُ بتوحيد الله. والآيةُ حُجَّةٌ على القَدَرية لأنه نَفَى خالقاً غيرَ اللهِ، وهم يُثْبِتون معه خالِقينَ، على ما تقدَّم في غير موضع[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفارَ قريش ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ﴾ يعزِّي نبيَّه ويسلِّيه ﷺ، وليتأسَّى بمَن قَبْلَه في الصَّبْر. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرأ الحسنُ والأعرجُ ويعقوبُ وابنُ عامرٍ وأبو حيوةَ وابن مُحَيْصِنٍ وحميدٌ والأعمشُ وحمزةُ ويحيى والكسائيُّ وخلفٌ بفتح التاء على أنه مسمَّى الفاعل[(٤)]. واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]. الباقون: ﴿تُرْجَعُ﴾ على الفعل المجهول.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ﴾ هذا وعْظ للمُكَذِّبين للرسول بعد إيضاح

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠ .

(٢) السبعة ص٥٣٤ ، والتيسير ص١٨٢ .

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و٢٨٥ .

(٤) السبعة ص١٨١ ، والتيسير ص٨٠ ، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩ .

الدليل على صحةِ قوله: إنَّ البعثَ والثوابَ والعقابَ حقٌّ. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قال سعيد بن جُبير: غرورُ الحياةِ الدنيا: أنْ يشتغل الإنسانُ بنعيمها ولذّاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤][1].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال ابن السكّيت وأبو حاتم: «الغرور»: الشيطان[2]. وغُرورٌ: جمعُ غَرٍّ، وغَرٌّ مصدر. ويكون «الغُرور» مصدراً، وهو بعيدٌ عند أبي إسحاق[3]؛ لأنَّ «غَرَرْته» متعدٍّ، والمصدر [من] المتعدِّي إنَّما هو على فَعْل؛ نحو: ضربتُه ضرباً، إلاَّ في أشياءَ يسيرةٍ لا يُقاسُ عليها؛ قالوا: لزمْته لُزوماً، ونَهَكه المرض نُهوكا. فأمَّا معنى الحرفِ فأحْسَنُ ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير؛ قال: الغرورُ بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنَّى على الله المغفرةَ.

وقراءة العامة: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين: وهو الشيطان، أي: لا يَغرَّنَّكم بوساوسه في أنَّه تعالى[4] يتجاوزُ عنكم لفَضْلِكم. وقرأ أبو حَيْوةَ وأبو السَّمَّال العدويُّ ومحمد ابن السَّمَيْفَع: «الغُرور» برفع الغين[5]، وهو الباطل، أي: لا يغرَّنَّكم الباطل. وقال ابن السِّكِّيت: والغُرور بالضم: ما اغتُرَّ به من متاعِ الدنيا[6]. قال الزجَّاج[7]: ويجوز أن يكون الغُرور جمعَ غارٍّ، مثل قاعد وقُعود. النحاس: أو جمع غَرٍّ، أو يُشبَّه بقولهم:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦١ . وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥ .

(٢) قول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٣٦٧ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٣١ عن ابن عباس.

(٣) في النسخ: عند غير أبي إسحاق، والتصويب من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦١ (والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه). وكلام أبي إسحاق (وهو الزجاج) في معانيه ٤/ ٢٦٣-٢٦٤ .

(٤) قوله: تعالى، من (ظ).

(٥) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦١ عن سماك، ووقع في النسخ الخطية: وأبو سماك، بدل: وأبو السمال، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في البحر ٧/ ٣٠٠ ووقع في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ : سماك العبدي. وسلف ١٤/ ٨١ أن سماك بن حرب وأبا حيوة وابن السميفع قرؤوا: «الغُرور» بالضم في الآية (٣٣) من سورة لقمان.

(٦) إصلاح المنطق ص٣٦٧ ، والصحاح (غرر).

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٦٣ .

نَهَكَه المرضُ نُهوكاً، ولَزِمَه لُزوماً(١). الزمخشريُّ(٢): أو مصدرُ «غرَّه» كاللُّزوم والنُّهوك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فَعَادُوه ولا تُطيعوه. ويدلُّكم على عَداوتِهِ إخراجُه أباكم من الجنة، وضمانُه إضلالَكم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الآية [النساء:١١٩]. وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأعراف:١٦-١٧]. فأخبرنا جلَّ وعزَّ أنَّ الشيطان لنا عدوٌّ مبين، واقتصَّ علينا قصَّته، وما فَعلَ بأبينا آدمَ ﷺ، وكيف انْتَدَبَ لعداوتنا وغرورنا من قَبْلِ وجودنا وبعده، ونحن على(٣) ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا. وكان الفضيل ابن عِياض يقول: يا كذَّاب يا مُفْتَرٍ، اتَّقِ الله ولا تَسُبَّ الشيطانَ في العَلانية وأنت صديقُه في السِّرّ. وقال ابن السَّمّاك: يا عَجباً لمن عصَى المُحْسِنَ بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللَّعينَ بعد معرفته بعداوته! وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوَّداً(٤).

و﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: مُعَادٍ، فيثنَّى ويُجمع ويؤنَّث(٥). ويكون بمعنى النَّسبِ، فيكون موحَّداً بكلِّ حال، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء:٧٧]. وفي المؤنَّث على هذا أيضاً: عدوّ. النحاس(٦): فأمَّا

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٣٨ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٠ .

(٣) في (د): مع.

(٤) ٣/ ١٣ .

(٥) بعدها في (ظ)، ويذكر.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦١ ، وما قبله منه.

قولُ بعضِ النَّحويين: إنَّ الواوَ خفيةٌ[١]، فجاؤوا بالهاء، فخطأٌ، بل الواو حرفٌ جَلْدٌ.

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ كفَّتْ «ما» «إنَّ» عن العمل فوقع بعدها الفعلُ. ﴿حِزْبَهُۥ﴾ أي: أشْياعَه. ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهذه عداوتُه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يكونُ «الَّذِينَ» بدلاً من «أصحابِ» فيكون في موضعِ خَفْضٍ، أو يكونُ بدلاً من «حِزْبَه» فيكون في موضع نصبٍ، أو يكون بدلاً من الواو، فيكون في موضعِ رفعٍ. وقولٌ رابعٌ وهو أحسنُها: يكونُ في موضعِ رفعٍ بالابتداء، ويكونُ خبرُهُ: «لَهم عذابٌ شديدٌ»[٢]، وكأنه سبحانه بَيَّنَ حالَ مُوافقتِه ومُخالفتِه، ويكون الكلامُ قد تَمَّ في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداء أيضاً، وخبرُه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ «مَنْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداء، وخبرُه محذوفٌ. قال الكسائيُّ: والذي يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ فالمعنى: أفَمَن زُيِنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً ذهبتْ نفسُك عليهم حسرات! قال: وهذا كلامٌ عربيٌّ ظريفٌ[٣] لا يعرفُه إلاَّ قليل ـ وذكره الزمخشريُّ عن الزجاج[٤] ـ قال النحاس[٥]: والذي قاله الكسائيُّ أحسنُ ما قيل في الآية؛ لِمَا ذَكَره من الدلالةِ

---

(١) في (ظ): خفيفة، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢.

(٣) في (خ) و (م): طريف، والمثبت من باقي النسخ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢، والكلام منه.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠١، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٢.

على المحذوف، والمعنى: أنَّ الله جلَّ وعزَّ نهى نبيَّه عن شدة الاغتمام بهم والحزنِ عليهم، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف:٦] قال أهل التفسير: قاتِلٌ. قال نصر بن عليٍّ: سألتُ الأصمعيَّ عن قول النبيِّ ﷺ في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً وأبْخَعُ طاعةً»[١] ما معنى أبْخَعُ؟ فقال: أنْصَحُ. فقلت له: إنَّ أهلَ التفسيرِ مجاهداً وغيرَه يقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الشعراء:٣]: معناه: قاتِلٌ نفسَك. فقال: هو مِن ذاك بعَيْنه، كأنه من شدة النُّصْح لهم قاتِلٌ نفسَه.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخير، مَجازُهُ: أفَمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حَسَناً، فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسَراتٍ، فإنَّ الله يُضلُّ مَن يشاءُ ويهدي مَن يشاء[٢].

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، المعنى: أفَمن زُيِّن له سوءُ عملِه كَمَن هُدي، ويكون يَدلُّ على هذا المحذوف: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾[٣].

وقرأ يزيد بن القَعْقاع: ﴿فلا تُذْهِبْ نفْسَك﴾[٤].

وفي ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أربعةُ أقوال:

أحدها: أنَّهم اليهودُ والنصارى والمجوس؛ قاله أبو قِلابة[٥]. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: معاندة الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أنَّهم الخوارج؛ رواه عمرو[٦] بن القاسم. فيكونُ «سُوءُ عَمَلِهِ»: تحريف التأويل.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٦)، ووقع في مطبوعه: أنجع، وعليه شرح السندي ـ كما في حاشية المسند ـ فقال: أنجع طاعة، أي: الطاعة فيهم أكثر نفعاً لخلوص قلوبهم! والذي في الفائق ١/ ٨٢، والنهاية (بخع)، وغريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٥٨ : أبخع ـ بالخاء ـ كما ذكره المصنف عن النحاس.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٥٦٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٣ .

(٤) النشر ٢/ ٣٥١ ، والقراءة من العشرة.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥ ، والكلام في النكت والعيون ٤/ ٤٦٣ .

(٦) في النسخ عدا (ظ): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

الثالث: الشيطان؛ قاله الحسن(١). ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: الإغواء.

الرابع: كفارُ قريشٍ؛ قاله الكلبيُّ. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: الشِّرْك. وقال: إنَّها نزلت في العاص بنِ وائل السَّهْمي والأسود بنِ المطَّلب. وقال غيره: نزلت في أبي جهل بنِ هشام. ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: صواباً؛ قاله الكلبيُّ. وقيل: جميلاً(٢).

قلت: والقولُ بأنَّ المرادَ كفارُ قريشٍ أظْهَرُ الأقوالِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقولِه في هذه الآية: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾. وهذا ظاهِرٌ بيِّن، أي: لا ينفعُ تأسُّفُكَ على مُقامِهم على كفرهم، فإنَّ الله أضلَّهم. وهذه الآيةُ تَرُدُّ على القدرية قولَهم على ما تقدَّم(٣)، أي: أفَمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً تُريدُ أن تَهْدِيَه، وإنَّما ذلك إلى الله لا إليك، والذي إليك هو التبليغ.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ وابنُ مُحَيْصن: «فَلا تُذهِب» بضمِّ التاءِ وكَسْرِ الهاءِ، «نفسَك» نصباً على المفعول، والمعنيان مُتقارِبان(٤).

«حَسَرَاتٍ» منصوبٌ مفعولٌ من أجْله، أي: فلا تَذْهَبْ نَفسُكَ للحسرات. و«عليهم» صلةُ «تَذْهَبْ»، كما تقول: هَلَكَ عليه حُبًّا، ومات عليه حزناً. أو هو بيانٌ للمتحسَّر عليه(٥). ولا يجوز أن يتعلَّق بالحسرات؛ لأنَّ المصدر لا يتقدَّمُ عليه صِلَتُه.

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٣٤ ، والكلام في النكت والعيون ٤/ ٤٦٣ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٦٣ .

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و٢٨٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣ عن أبي جعفر، وهو يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة، وسلفت قريباً.

(٥) في النسخ: وهو بيان للمتحسَّر عليه، والمثبت من الكشاف ٣/ ٣٠١ ، والكلام منه، وكذا وقع في البحر ٧/ ٣٠١ ، وروح المعاني ٢٢/ ١٧٠ ، قال الألوسي: فيكون ظرفاً مستقرًّا، ومتعلَّقهُ مقدَّرٌ، كأنه قيل: على مَن تذهب؟ فقيل: عليهم.

ويجوز أن يكون حالاً، كأنَّ كلَّها صارتْ حسراتٍ لفَرْطِ التَّحسُّرِ، كما قال جرير:

مَشَقَ الهواجِرُ لحمَهُنَّ مع السُّرَى   حتى ذَهَبْنَ كَلاكِلاً وصُدُورا[(١)]

يريد: رَجَعْنَ كَلاكِلاً وصدوراً، أي: لم يَبْقَ إلاَّ كَلالُها وصدورُها. ومنه قولُ الآخر:

فَعَلَى إثْرِهم تَساقَطُ نَفْسِي   حَسَراتٍ وذِكْرُهم لي سَقامُ[(٢)]

أو مَصْدراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ مَيِّت ومَيْت واحد، وكذا مَيِّتَة ومَيْتة، هذا قولُ الحُذَّاق من النَّحْويين. وقال محمد بن يزيد: هذا قولُ البصريين، ولم يَسْتَثْنِ أحداً، واستدلَّ على ذلك بدلائلَ قاطعةٍ، وأنشد:

لَيسَ مَن ماتَ فاستراحَ بِمَيْتٍ   إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ

إنَّما المَيْتُ مَن يعيشُ كئيباً   كاسِفاً بالُه قليلَ الرَّخاءِ[(٣)]

قال: فهل تَرى بين مَيْتٍ ومَيِّتٍ فرقاً؟ وأنشد:

هَيْنونَ لَيْنونَ أيسارٌ بنو يَسَرٍ   سُوَّاسُ مَكْرُمةٍ أبناءُ أيْسارِ[(٤)]

---

(١) ديوان جرير ١/ ٢٢٧ ، والكشاف ٣/ ٣٠١ ، والكلام منه، وهو في كتاب سيبويه ١/ ١٦٢ ، قوله: مَشَقَ، أي: أذهب لحومهن، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدرِ فلذلك ذكر معه الصدر، وصف رواحلَ أهْزلها دُؤوبُ السير في الهواجر والليل. شرح الشواهد للشنتمري ص١٣٣ .

(٢) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٩ ، والأصمعيات ص١٨٨ ، والحماسة البصرية ١/ ٢٣٨ .

(٣) البيتان لعديّ بن الرَّعلاء النسائي، وسلف البيت الأول ٣/ ٢٣ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣ . قال النحاس: ويروى: قليل الرجاء.

(٤) نُسب لعبيد بن العرندس الكلابي كما في الكامل للمبرد ١/ ١٠٦ ، والحماسة البصرية ١/ ١٥٠ ، =

قال: فقد أجمعوا على أنَّ هَيْنون وهيِّنون[1] واحدٌ، وكذا مَيْتٌ ومَيِّت، وسَيْدٌ وسَيِّد.

وقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ بعدَ أن قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وهو من بابِ تَلْوينِ الخطاب. وقال أبو عبيدةَ: سبيلُه «فَنَسُوقُه»[2]، لأنَّه قال: «فَتُثِيرُ سَحَاباً». الزَّمَخْشريّ[3]: فإن قلتَ: لَمَ جاء «فتثير» على المُضَارَعةِ دونَ ما قَبْلَه وما بعدَه؟ قلت: لتَحْكيَ الحالَ التي تقعُ فيها إثارةُ الرياحِ السحابَ، وتَسْتَحْضِرَ تلك الصورةَ البديعةَ الدالَّةَ على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوعُ تمييزٍ وخصوصيةٌ بحالٍ تُستغرب، أو تَهمُّ المخاطَبَ، أو غير ذلك؛ كما قال تأبَّط شرًّا:

بأني قد لقيتُ الغُولَ تَهْوي ... بسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحانِ
فأضرِبُها بلا دَهَشٍ فخرَّتْ ... صريعاً لليدين وللجِرَانِ[4]

لأنه قَصَدَ أنْ يصوِّر لقومه الحالةَ التي تَشَجَّع فيها بزَعْمِه على ضَرْبِ الغُول، كأنه يُبصِّرهم إياها، ويُطْلِعُهم على كُنْهِها مشاهدةً، للتعجب[5] من جرأته على كلِّ هَوْلٍ، وثَباته عند كلِّ شدَّةٍ. وكذلك سَوقُ السحابِ إلى البلد الميِّت وإحياءُ الأرض بالمطر بعدَ موتها لمَّا كانا من الدلائلِ على القدرةِ الباهرةِ قيل: «فَسُقْنا» و«أحيينا» معدولاً

= ونسب للعرندس كما في أمالي القالي ١/ ٢٣٩ ، ومعجم الشعراء ص١٣٧ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩٣ ، وقال المرزباني: وقيل: هو أبو العرندس. قوله: أيسار، قال المرزوقي: جمع يَسَر، وهم الذين يجتمعون في الميسر على الجزور عند الجدب والقحط، فيُجيلون القِدَاح عليها، ثم يفرقونه في الفقراء وأرباب الحاجة.

(١) في النسخ: هينون ولينون، والمثبت عن إعراب القرآن للنحاس.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٥٢، ووقع في (د) و(ز) و(م): فتسوقه. قال أبو عبيدة: والعرب قد تضع «فعلنا» في موضع «نفعل».

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠١-٣٠٢ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) ديوان تأبط شرًّا ص٢٢٤-٢٢٥، والأغاني ٢١/ ١٣٤ . قوله: بسهب، السهب: الفلاة، والصحصحان: ما استوى من الأرض. قوله: وللجِران، جِران البعير: مقدَّم عنقه من مذبحه إلى منحره. القاموس (سهب) و(صحح) و(جرن).

(٥) في الكشاف: للتعجيب.

بهما عن لفظِ الغيبةِ إلى ما هو أدْخَلُ في الاختصاص وأدَلُّ عليه.

وقراءةُ العامَّةِ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾. وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ وابنُ كثير والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿الريحَ﴾ توحيداً[1]. وقد مضى بيانُ هذه الآيةِ والكلامُ فيها مستوفىً[2].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: كذلك تحيَوْن بعد ما متُّم، مِن نَشَرَ الإنسانَ نشوراً. فالكافُ في محلِّ الرفع، أي: مثلُ إحياءِ المواتِ نَشْرُ الأمواتِ. وعن أبي رَزِينٍ العُقَيْليِّ قال: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله المَوْتَى، وما آيةُ ذلك في خَلْقِه؟ قال: «أمَا مَرَرْتَ بوادي أهلِكَ مُمْحِلاً، ثم مَرَرْتَ به يَهتزُّ خَضِراً؟» قلت: نعم يا رسولَ الله. قال: «فكذلك يُحيي الله الموتَى، وتلك آيتُه في خَلقِه»[3] وقد ذكرنا هذا الخبرَ في «الأعراف» وغيرِها[4].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ التقديرُ عندَ الفرَّاء: مَن كان يريد عِلْمَ العزَّةِ. وكذا قال غيرُه من أهلِ العلم. أي: مَن كان يريدُ عِلْمَ العزَّةِ التي لا ذِلَّةَ معها؛ لأنَّ العزةَ إذا كانت تؤدِّي إلى ذلَّةٍ فإنَّما هي تَعَرُّضٌ للذلَّة، والعزةُ التي لا ذُلَّ معها للهِ عزَّ وجلَّ. ﴿جَمِيعًا﴾ منصوبٌ على الحال. وقدَّر الزجَّاج معناه: مَن كان يريد بعبادته اللهَ عزَّ وجلَّ العزَّةَ ـ والعزةُ له سبحانه ـ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعِزُّه في الآخرة والدنيا[5].

---

(١) السبعة ص١٧٢-١٧٣، والتيسير ص٧٨ عن ابن كثير وحمزة والكسائي.

(٢) ٢/ ٤٩٨-٥٠٢ و٩/ ٢٥٣-٢٥٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٢.

(٤) ١/ ٢٩٦ و٩/ ٢٥٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٧، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤.

قلت: وهذا أحسنُ، وروي مرفوعاً على ما يأتي.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ ظاهِرُ هذا إيئاسُ السَّامِعينَ من عزَّته، وتعريفُهم أنَّ ما وجب له من ذلك لا مَطْمَعَ فيه لغيره، فتكون الألفُ واللامُ للعَهْدِ عند العالِمينَ به سبحانه، وبما وَجَبَ له من ذلك، وهو المفهومُ من قوله الحقِّ في سورة يونس: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ [الآية: ٦٥].

ويحتملُ أنْ يريدَ سبحانه أنَّ يُنبِّهَ ذوي الأقدارِ والهمم من أين تُنالُ العزةُ، ومن أين تُستحقُّ، فتكونُ الألفُ واللامُ للاستغراق، وهو المفهومُ من آيات هذه السورة. فَمَن طلب العزةَ من الله وصدقه في طلبها بافتقارٍ وذلٍّ وسكونٍ وخضوع، وجَدَها عنده ـ إن شاء الله ـ غيرَ ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنه؛ قال ﷺ: «مَن تَواضعَ للهِ رَفَعَه الله»[(١)]. ومَن طَلَبها من غيرِه وكَله[(٢)] إلى مَن طَلَبها عنده. وقد ذَكَر تعالى قوماً طلبوا العزةَ عندَ مَن سواه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فأنبأك[(٣)] صريحاً لا إشكالَ فيه أنَّ العزةَ له يُعِزُّ بها مَن يشاء ويُذِلُّ مَن يشاء. وقال ﷺ مفسِّراً لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾: «مَن أراد عزَّ الدَّارينِ فَلْيُطِعِ العزيز»[(٤)]. وهذا معنى قولِ الزجَّاج، ولقد أحْسَنَ مَن قال:

وإذا تـذلَّـلـت الـرقـابُ تـواضُـعـاً   مـنَّـا إلـيـك فـعـزُّهـا فـي ذلِّـهـا[(٥)]

فَمن كان يريد العزةَ لينال الفوزَ الأكبر، ويدخلَ دارَ العزَّةِ ـ ولله العزةُ ـ فلْيقصِدْ بالعزة[(٦)] اللهَ سبحانه والاعتزازَ به؛ فإنَّه مَن اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله، ومَن اعتزَّ بالله

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٠٦)، ومسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (ظ): وكل.

(٣) في (ظ): فأبان.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٨٠ و٨/ ١٧١ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/١٢ .

(٥) قائله أبو إسحاق الصابي كما في يتيمة الدهر ٢/ ٣٢٥ ، وسلف ١١/ ١٢٩ .

(٦) في (خ) و(ظ): بالذلة.

أعزَّه الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وتمَّ الكلام. ثم تَبتدئُ ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ على معنى: يرفعُه الله، أو يرفعُ صاحبَه. ويجوز أن يكون المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكلمَ الطيِّبَ(١)؛ فيكون الكلامُ متَّصلاً على ما يأتي بيانه.

والصعود: هو الحركةُ إلى فوق، وهو العروجُ أيضاً. ولا يُتَصَوَّرُ ذلك في الكلام لأنَّه عَرَضٌ، لكنْ ضُرب صعودُه مثلاً لقبوله؛ لأنَّ موضعَ الثوابِ فوق، وموضعُ العذابِ أسفل(٢).

وقال الزجَّاج: يقال: ارتفع الأمر إلى القاضي، أي: عَلِمَه، فهو بمعنى العلم(٣). وخصَّ الكلام الطيب(٤) بالذكر لبيانِ الثوابِ عليه.

وقوله: «إليه» أي: إلى الله يصعد. وقيل: يصعد إلى سمائه والمحلِّ(٥) الذي لا يجري فيه لأحدٍ غيرِه حُكْمٌ. وقيل: أي: يُحمل الكتاب الذي كُتب فيه طاعاتُ العبدِ إلى السماء.

و«الكَلِمُ الطيِّبُ» هو التوحيدُ الصادِرُ عن عقيدةٍ طيِّبةٍ. وقيل: هو التحميدُ والتمجيدُ، وذكرُ اللهِ ونحوُه. وأنشدوا:

لا تَرْضَ من رجلٍ حلاوةَ قولِهِ ... حتى يُزَيِّنَ ما يقولُ فَعالُ
فإذا وَزَنْتَ فَعالَه بِمَقالِهِ ... فتوازَنا فإخاءُ ذاك جَمالُ(٦)

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٤٨، والوقف عند ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وقف حسن، كما ذكر أبو بكر الأنباري.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٥٩٣.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/٥٠٢ دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٤) في (ظ): الكلم الطيب، وفي (م): الكلام والطيب.

(٥) في الوسيط للواحدي ٣/٥٠٢ (والكلام منه): وهو المحل، بدل: والمحل.

(٦) ذكرهما ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/١٦٢ عن إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي. قوله: فَعال، كسَحاب: هو اسم الفعل الحسن. القاموس (فعل).

وقال ابنُ المُقفَّع: قولٌ بلا عملٍ، كَثَرِيدٍ بلا دَسَمٍ، وسَحابٍ بلا مَطَرٍ، وقَوْسٍ بلا وَتَرٍ(١). وفيه قيل:

لا يـكـونُ الـمـقـالُ إلاَّ بـفـعـلٍ ... كـلُّ قـولٍ بـلا فِـعـالٍ هَـبَـاءُ

إنَّ قـولاً بـلا فِـعـالٍ جـمـيـلٍ ... ونِـكـاحـاً بـلا وَلـيٍّ سـواءُ

وقرأ الضحاك: «يُصعَد» بضمِّ الياء(٢). وقرأ جمهورُ الناسِ: «الكَلِمُ» جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن: «الكلامُ»(٣).

قلت: فالكلامُ على هذا قد يُطْلَقُ بمعنى الكلِمِ وبالعكس؛ وعليه يخرَّج قولُ أبي القاسم: أقسامُ الكلامِ ثلاثة(٤)؛ فوَضَعَ الكلامَ مَوْضعَ الكَلِم، والله أعلم.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ وغيرهما: المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكَلِمَ الطيب(٥). وفي الحديث «لا يَقْبلُ الله قولاً إلا بعملٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً إلا بنيَّةٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً ونيَّةً إلا بإصابةِ السُّنة»(٦). قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ الله وقال كلاماً طيِّباً وأدَّى فَرائضَه، ارتفع قولُه مع عمله، وإذا قال ولم يؤدِّ فرائضَه؛ رُدَّ قولُه على عمله. قال ابن عطية(٧): وهذا قولٌ يَردُّه مُعتقَدُ أهلِ السُّنةِ،

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وقراءة: «الكلام» في القراءات الشاذة ص١٢٣.

(٤) الجمل في النحو لأبي القاسم الزَّجَّاجي ص١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٠.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٠٢، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩٢) من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده أبان بن أبي عياش وهو متروك. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ١٥٠ من حديث ابن مسعود ﷺ، وفي إسناده أحمد بن الحسن المصري قال ابن حبان: كذاب. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٠، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩١٤ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو يحيى زكريا بن يحيى الوَقَّار، قال ابن عدي: يضع الحديث، كذَّبه صالح جَزَرة. وينظر أيضاً الكامل لابن عدي ٣/ ١٠٧١، والميزان ١/ ٦٣٣ و٢/ ٧٧، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٣٨-١٣٩.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وما قبله منه، وخبر ابن عباس أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٣٩.

ولا يصحُّ عن ابن عباس. والحقُّ أنَّ العاصيَ التارِكَ للفرائض إذا ذَكَر الله وقال كلاماً طيباً فإنَّه مكتوبٌ له مُتقَبَّلٌ منه، وله حسناتُه وعليه سيئاتُه، واللهُ تعالى يتقبَّلُ مِن كلِّ مَن اتَّقى الشِّرْك. وأيضاً فإنَّ الكلامَ[1] الطيبَ عملٌ صالح. وإنَّما يستقيمُ قولُ مَن يقول: إنَّ العملَ هو الرافعُ للكَلِم، بأنْ يُتأوَّلَ أنه يزيده[2] في رَفْعِه وحُسْنِ مَوْقِعِه إذا تعاضَدَ معه. كما أنَّ صاحب الأعمالِ من صلاةٍ وصيام وغير ذلك؛ إذا تخلَّل أعمالَه كَلِمٌ طَيِّبٌ وذِكْرُ اللهِ تعالى كانت الأعمالُ أشرفَ، فيكون قولُه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ موعظةً وتَذْكرةً وحَضًّا على الأعمال. وأمَّا الأقوالُ التي هي أعمالٌ في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولةٌ.

قال ابن العربيِّ[3]: إنَّ كلامَ المرءِ بِذِكْرِ اللهِ إنْ لم يقترن به عملٌ صالح لم يَنْفَع، لأنَّ مَن خالَفَ قولَه فِعْلُه فهو وبالٌ عليه. وتحقيقُ هذا: أنَّ العملَ إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مُرْتَبِطاً به، فإنه لا قبولَ له إلا به، وإن لم يكن شرطاً فيه [ولا مرتبطاً به] فإنَّ كَلِمَه الطيبَ يُكتبُ له. وعملُه السَّيِّئ يُكتبُ عليه، وتقعُ الموازنةُ بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران.

قلت: ما قاله ابنُ العربيِّ تحقيقٌ. والظاهِرُ أنَّ العمل الصالح شَرْطٌ في قَبولِ القولِ الطيِّب. وقد جاء في الآثار: «أنَّ العبدَ إذا قال: لا إلهَ إلاَّ الله بنيَّةٍ صادقةٍ، نَظَرت الملائكةُ إلى عمله، فإن كان العملُ مُوافقاً لقوله صَعِدَا[4] جميعاً، وإن كان عملُه مخالفاً وقفَ قولُه حتى يتوبَ من عمله»[5]. فعلى هذا: العملُ الصالح يَرفعُ الكَلِمَ

---

(١) في (ظ) والمحرر الوجيز: الكلم.

(٢) في المحرر الوجيز: يزيد.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ): فإن كان العمل صالحاً صعدا.

(٥) أخرجه بنحوه الثعلبي وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٨، وذكر نحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٢ عن الحسن قولَه، وهو الأشبه.

الطيِّبَ إلى الله، والكنايةُ في «يرفعُه» ترجعُ إلى الكَلِم الطيِّب. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وشَهْر بن حَوشَب وسعيد بن جُبير ومجاهدٍ وقتادةَ وأبي العاليةِ والضَّحاك[١].

وعلى أنَّ «الكَلِم الطيِّب» هو التوحيدُ، فهو الرافِعُ للعمل الصالح؛ لأنه لا يُقبَلُ العملُ الصالح إلاَّ مع الإيمانِ والتوحيد، أي: والعملُ الصالح يرفعُه الكَلِمُ الطيِّبُ، فالكناية تعودُ على العمل الصالح. ورُوي هذا القولُ عن شَهْر بن حَوْشَب قال: «الكَلِمُ الطيِّبُ» القرآن، «والعمل الصالحُ يرفعُه» القرآن[٢].

وقيل: تعودُ على الله جلَّ وعزَّ، أي: أنَّ العملَ الصالحَ يرفعُه اللهُ على الكَلِم الطيِّب؛ لأنَّ العمل تحقيقُ الكلِم، والعاملُ أكثرُ تعباً[٣] من القائل، وهذا هو حقيقةُ الكلام؛ لأنَّ الله هو الرافعُ الخافِضُ. والثاني والأولُ مَجازٌ، ولكنَّه سائغٌ جائز.

قال النحاس[٤]: القولُ الأوَّلُ أَوْلاها وأصحُّها لعلُوِّ مَن قال به، وأنَّه في العربية أَوْلى؛ لأنَّ القُرَّاءَ على رَفْعِ العمل، ولو كان المعنى: والعمل الصالح يرفعُه الله، أو العمل الصالح يرفعُه[٥] الكَلِمُ الطيِّب، لكان الاختيارُ نَصْبَ العمل. ولا نَعلمُ أحداً قرأه منصوباً إلاَّ شيئاً رُوي عن عيسى بن عمر أنه قال: قرأه أناس: «والعملَ الصالحَ يرفعُه الله»[٦].

وقيل: والعملُ الصالح يرفعُ صاحبَه، وهو الذي أراد العزَّةَ وعَلِمَ أنَّها تُطلب من الله تعالى؛ ذكره القُشيريُّ.

الثانية: ذكروا عند ابن عباس أنَّ الكلب يقطعُ الصلاةَ، فقرأ هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩-٣٤٠، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤١.

(٢) ذكر هذا القول عن شهر بن حوشب النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢.

(٣) في (ظ): نفعا.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢.

(٥) في النسخ: يرفع، والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٣.

يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ .وهذا استدلالٌ بعموم، على مذهب السَّلَفِ في القول بالعموم. وقد دخل [هذا] في الصلاة بشروطها، فلا يقطعُها عليه شيءٌ إلا بثبوتِ ما يُوجبُ ذلك، من مِثْلِ ما انعقدت به من قرآنٍ أو سُنَّةٍ أو إجماع[1]. وقد تعلَّق مَن رأى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «يقطعُ الصلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلبُ الأسود» فقلت: ما بالُ الكلب الأسودِ من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال: «إنَّ الأسْوَدَ شيطانٌ» خرَّجه مسلم[2]. وقد جاء ما يُعارِضُ هذا، وهو ما خرَّجه البخاريُّ عن ابن أخي ابنِ شهابٍ أنَّه سأل عمَّه عن الصلاة: يَقْطَعُها شيءٌ؟ فقال: لا يقطعُها شيء؛ أخبرني عروة بنُ الزبير أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ قالت: لقد كان رسولُ الله ﷺ يقوم فيُصلِّي من الليل، وإنِّي لَمعتَرِضةٌ بينه وبينَ القبلةِ على فراشِ أهله[3].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذكر الطبريُّ في كتابِ «آداب النفوس»: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا سفيانُ، عن لَيْث بنِ أبي سُليم، عن شَهْر ابن حَوْشَبٍ الأشعريِّ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ قال: هم أصحابُ الرِّياء[4]. وهو قولُ ابن عباس ومجاهدٍ وقتادة[5].

وقال أبو العالية: هم الذين مَكَروا بالنبيِّ ﷺ لمَّا اجتمعوا في دار النَّدْوة. وقال

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق (٢٣٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤٥٩ .

(٢) في صحيحه (٥١٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٢٣)، وهو من حديث أبي ذر ﷺ. والقائل: فقلت، هو عبد الله بن الصامت الرواي عن أبي ذرّ ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٥١٥)، وبنحوه عند أحمد (٢٤٠٨٨)، ومسلم (٥١٢).

(٤) وأخرجه الطبري أيضاً بهذا الإسناد في التفسير ١٩/ ٣٤١ ، وسلف الكلام على كتابه آداب النفوس ١/ ٣٥ .

(٥) أخرجه عن مجاهد ابن المبارك في الزهد (٦١- زوائد نعيم)، والبيهقي في الشعب (٦٨٤٥)، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقتادة.

الكلبيُّ: يعني الذين يعملون السيئاتِ في الدنيا. مقاتل: يعني الشرك[(١)]، فتكون «السَّيئات» مفعولةً[(٢)]. ويقال: بارَ يَبورُ: إذا هَلَكَ وبطل. وبارتْ السوقُ، أي: كَسَدتْ، ومنه: نعوذُ بالله من بَوارِ الأيِّم. وقولُه: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] أي: هَلْكَى. والمَكْر: ما عُمل على سبيل احتيالٍ وخديعة. وقد مضى في «سبأ»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال سعيدٌ عن قتادةَ: يعني آدمَ عليه السلام، والتقديرُ على هذا: خَلَقَ أصْلَكم من تراب. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال: أي: التي أخرجَها من ظهورِ آبائِكم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قال: أي: زوَّجَ بعضَكم بعضاً[(٤)]. فالذَّكَرُ زوجُ الأنثى ليتمَّ البقاءُ في الدنيا إلى انقضاءِ مُدَّتِها. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: جَعَلَكم أزواجاً، فيتزوَّجُ الذكرُ بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حملٌ ولا وضعٌ إلا واللهُ عالمٌ به، فلا يخرجُ شيءٌ عن تدبيره.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ سمَّاه معمَّراً بما هو صائرٌ إليه. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ إلاَّ كُتِبَ عمرُه، كم هو سنةً، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعةً، ثم يُكتبُ في كتابٍ آخرَ: نقصَ من عمره يومٌ، نقصَ شهرٌ، نقصَ سنةٌ، حتى يستوفيَ أجلَه[(٥)]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً؛

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٣/ ٥٦٧ .

(٢) يعني على قول الكلبي ومقاتل، حيث ضُمِّن «يمكرون» معنى يكسبون، وعلى قول أبي العالية ينتصب «السيئات» على نعتِ مصدرٍ محذوف، أي: المكراتِ السيئات، وهي: إثباته أو قتله أو إخراجه. ينظر البحر ٧/ ٣٠٤ ، والدر المصون ٩/ ٢١٨ .

(٣) ص٣٠٢ من هذا الجزء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٤٢ .

(٥) بنحوه في تفسير الطبري ١٩/ ٣٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٥ ، ومعاني القرآن له ٥/ ٤٤٤ .

قال: فما مَضَى من أجَلِه فهو النقصانُ، وما يُستقبلُ فهو الذي يُعَمَّرُه[١]، فالهاءُ على هذا للمعمَّر.

وعن سعيد أيضاً: يكتبُ عمرُه كذا وكذا سنةً، ثم يكتب في أسفلِ ذلك: ذهب يومٌ، ذهب يومان، حتى يأتيَ على آخره. وعن قتادة: المعمَّرُ مَن بلغ ستِّينَ سنةً، والمَنْقوصُ من عمره مَن يَموتُ قبل ستِّين سنة[٢].

ومذهبُ الفرَّاءِ[٣] في معنى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكونُ من عمره ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بمعنى معمَّرٍ آخرَ، أي: ولا يُنْقَصُ الآخرُ من عمره ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ فالكنايةُ في «عمره» تَرْجِعُ إلى آخرَ غيرِ الأوَلِ، وكَنَى عنه بالهاء كأنه الأوّلُ، ومثلُه قولُك: عندي درهمٌ ونصفُه، أي: نصفُ آخرَ.

وقيل: إنَّ الله كتب عمرَ الإنسان مئةَ سنةٍ إن أطاع، وتسعين إن عَصَى، فأيَّهما بلغ فهو في كتاب[٤]. وهذا مثلُ قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أحَبَّ أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسأ له في أَثَرِه، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[٥]. أي: إنَّه يُكتَبُ في اللَّوح المحفوظ: عمرُ فلانٍ كذا سنةً، فإنْ وَصَلَ رَحِمَه زِيْدَ في عمرِه كذا سنةً. فبيَّن ذلك في موضع آخَرَ من اللَّوحِ المحفوظ، أنَّه سَيَصِلُ رَحِمَه. فَمَن اطَّلع على الأوّل دونَ الثاني ظَنَّ أنَّه زيادةٌ أو نقصان. وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]. والكنايةُ على هذا ترجعُ إلى العمر.

وقيل: المعنى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: هَرِم ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ آخرُ [﴿مِنْ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٥ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٣ ، وأخرج الخبرين ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٧ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٦ .

(٥) أخرجه أحمد (١٣٥٨٥)، والبخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١٠/ ٢٠٢ و١٢/ ٨٩ .

﴿عُمُرِهِۦٓ﴾] من عمرِ الهَرِمِ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: بقضاءٍ من الله جلَّ وعزَّ. رُوي معناه عن الضحَّاك واختاره النحَّاس، قال: وهو أشبهها بظاهرِ التنزيل(١). ورُوي نحوُه عن ابن عباس(٢). فالهاءُ على هذا يَجوزُ أن تكون للمعمَّر، ويجوز أن تكون لغيرِ المعمَّر.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي: كتابةُ الأعمالِ والآجالِ غيرُ مُتعذِّرٍ عليه. وقراءةُ العامَّةِ: ﴿يُنقَصُ﴾ بضمِّ الياء وفتحِ القاف. وقَرأتْ فرقةٌ منهم يعقوبُ: ﴿يَنْقُص﴾ بفتح الياء وضمِّ القاف(٣)، أي: لا يَنْقُصُ من عمرِه شيءٌ. يقال: نَقَصَ الشيءُ بنفسه ونقَصَه غيرُه، وزاد بنفسه وزاده غيره، متعدٍّ ولازمٌ.

وقرأ الأعرجُ والزُّهريُّ: «مِن عُمْره» بتخفيفِ الميم(٤). وضمَّها الباقون. وهما لغتان مثل: السُّحْق والسُّحُق. و«يسيرٌ» أي: إحْصَاءُ طويلِ الأعمارِ وقصيرِها لا يتعذَّر عليه شيءٌ منها ولا يَعْزُب. والفعلُ منه: يَسُر. ولو سمَّيتَ به إنساناً انْصَرَفَ؛ لأنه فَعِيل(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأْكُلُونَ لَحْمٗا طَرِيّٗا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةٗ تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٞ فُرَاتٞ﴾ **فيه أربعُ مسائلَ:**

الأولى: قال ابن عباس: «فُراتٌ» حُلْوٌ، و«أُجَاجٌ» مرٌّ. وقرأ طلحةُ: «هذا مَلِحٌ أُجاجٌ» بفتحِ الميم وكَسْرِ اللامِ بغير ألف. وأمَّا المالحُ فهو الذي يُجعلُ فيه الملح(٦).

(١) معاني القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٣ .
(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٣ .
(٣) النشر ٢/ ٣٥٢ .
(٤) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٥٣٤ رواية عن أبي عمرو، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٣ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦ .
(٦) المصدر السابق.

وقرأ عيسى وابنُ أبي إسحاقَ: «سيِّغ شرابه» مثل: سيِّد وميِّت[١]. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لا اختلافَ في أنه منهما جميعاً. وقد مضى في «النحل» الكلامُ فيه[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ مذهبُ أبي إسحاق أنَّ الحلية إنَّما تستخرجُ من الملح، فقيل: منهما؛ لأنَّهما مُخْتلِطان. وقال غيره: إنَّما تُسْتَخرجُ الأصدافُ التي فيها الحليةُ - من الدرِّ وغيرِه - من المواضع التي فيها العذبُ والمِلْحُ نحو العيون[٣]، فهو مأخوذٌ منهما[٤]؛ لأنَّ في البحر عيوناً عذبةً، وبينهما يخرج اللؤلؤُ عند التَّمَازُجِ. وقيل: من مطر السماء.

وقال محمد بنُ يزيد قولاً رابعاً، قال: إنَّما تُستخرَجُ الحليةُ من المِلْح خاصةً؛ النحاس[٥]: وهذا أحْسَنُها، وليس هذا عندَه لأنَّهما مُختلِطان، ولكنْ جُمِعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص:٧٣] وكما تقول: لو رأيتَ الحسنَ والحجَّاجَ لرأيتَ خيراً وشَرّاً. وكما تقول: لو رأيتَ الأصمعيَّ وسيبويه لملأتَ يدك لغةً ونَحْواً. فقد عرف معنى هذا، وهو كلامٌ فصيحٌ كثير، فكذا: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاجتمعا في الأوَّلِ وانفردَ المِلْحُ بالثاني.

الثالثة: وفي قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على أنَّ لباسَ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه؛ فالخاتمُ يُجعل في الإصبع، والسِّوارُ في الذِّراع، والقِلَادَةُ في العنق، والخَلْخالُ في الرِّجْل.

---

(١) القراءات الشاذة ص٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣ عن عيسى. وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغ» مخفَّفاً من المشدَّد، وكذا ضبطت في (ز)، وهي في المحتسب ٢/ ١٩٨ ، والبحر ٧/ ٣٠٥ .

(٢) ١٢/ ٢٩٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦ ، وقول أبي إسحاق الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٦٦ .

(٤) في (ظ): منها، وليست في (د). والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٤/ ٤٦٧ ، والكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٦ ، وما قبله منه.

وفي البخاريِّ والنسائيِّ عن ابن سِيرين قال: قلتُ لعَبِيدةَ: افتراشُ الحرير كَلُبْسِه؟ قال: نعم[١]. وفي الصِّحاح عن أنس: فقمتُ على حَصيرٍ لنا قد اسْوَدَّ من طولِ ما لُبس. الحديث[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قال النحاس[٣]: أي: ماءِ الملحِ خاصةً، ولولا ذلك لقال: فيهما. وقد مَخَرت السفينةُ تَمْخُر: إذا شقَّت الماءَ. وقد مضى هذا في «النحل»[٤].

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال مجاهد: التجارةُ في الفُلْكِ إلى البلدان البعيدةِ في مدَّةٍ قريبة[٥]، كما تقدَّم في «البقرة»[٦]. وقيل: ما يُستخرج من حِلْيتهِ ويُصادُ من حِيتَانه. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم من فَضْلِه. وقيل: على ما أَنْجاكم مِن هَوْله.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٧] وغيرِها. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تقدَّم في «لقمان»

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً في: باب افتراش الحرير، فقال: وقال عبيدة: هو كَلُبْسِه. ووصله الحارث بن أبي أسامة من طريق محمد بن سيرين بلفظ المصنف، كما في الفتح ١٠/ ٩٢ ، ولم يخرجه النسائي، ولكن أخرجه من طريقه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٦٥ .

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠)، وصحيح مسلم (٦٥٨)، وهو عند أحمد (١٢٣٤٠).

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٧ .

(٤) ١٢/ ٣٠٢ .

(٥) ذكره مختصراً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٧ .

(٦) ٢/ ٤٩٧ .

(٧) ٥/ ٨٥ - ٨٧ .

بيانُه[١]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: هذا الذي مِن صُنْعِه ما تقرَّرَ هو الخالقُ المدبِّر، والقادرُ المقتدرُ، فهو الذي يُعْبَد. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: الأصنامَ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يقدرون عليه ولا على خَلْقِه. والقِطْميرُ: القِشْرةُ الرقيقةُ البيضاءُ التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسِّرين[٢]. وقال ابن عباس: هو شَقُّ النَّواةِ[٣]، وهو اختيارُ المبرِّد، وقاله قتادةُ. وعن قتادةَ أيضاً: القِطْميرُ: القَمْعُ الذي على رأس النواة[٤]. الجوهَرِيُّ[٥]: ويقال: هي النكتةُ البيضاءُ التي في ظَهْرِ النواةِ، تَنْبُتُ منها النخلة.

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي: إنْ تَستغيثوا بهم في النَّوائب لا يسمعوا دعاءَكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ ولا تسمع. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ إذ ليس كلُّ سامعٍ ناطقاً. وقال قتادةُ: المعنى: لو سَمِعوا لم ينفعوكم[٦]. وقيل: أي: لو جَعَلْنا لهم عقولاً وحياةً فسمعوا دعاءَكم لكانوا أطوعَ للهِ منكم، ولَمَا استجابوا لكم على الكفر.

---

(١) عند تفسير الآية (٢٩) منها.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم.

(٣) لم نقف عليه، وقد روي هذا القول عن ابن عباس في تفسير الفتيل، كما في معاني القرآن للنحاس ٤٤٨/٥، والدر المنثور ٢/ ١٧١، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، وروي عنه في معنى القطمير أنه القشر ـ وفي لفظ: الجلد ـ الذي يكون على ظهر النواة. تفسير الطبري ٣٤٩/١٩، ومعاني القرآن للنحاس ٤٤٨/٥، والدر المنثور ٢/ ١٧١ و ٢٤٨/٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥٠ من طريق جويبر عن بعض أصحابه، وأخرج عن قتادة أنه قال: القطمير: القشرة التي على رأس النواة.

(٥) في الصحاح (قطمر).

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٣٥١/١٩.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يجحدون أنَّكم عَبَدْتُموهم، ويَتَبرَّؤون منكم. ثم يجوزُ أن يرجع هذا إلى المعبودينَ ممَّا يَعْقِلُ، كالملائكة والجنِّ والأنبياءِ والشَّياطين، أي: يجحدون أن يكون ما فعلتُموه حقًّا، وأنَّهم أمروكم بعبادتهم، كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. ويجوزُ أن يندرج فيه الأصنامُ أيضاً، أي: يحُييها الله حتى تُخْبِرَ أنَّها ليست أهلاً للعبادة. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هو اللهُ جلَّ وعزَّ، أي: لا أحدَ أخْبَرُ بخلقِ اللهِ من الله، فلا ينبِّئك مثلُه في عمله[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في بقائكم وكلِّ أحوالِكم. الزَّمخشريُّ: فإنْ قلتَ: لِمَ عرَّف «الفقراء؟» قلتُ: قَصَدَ بذلك أن يُريَهم أنَّهم لشدَّةِ افتقارِهم إليه هم جنسُ الفقراء، وإن كانت الخلائقُ كلُّهم مفتقرين إليه؛ من الناس وغيرِهم؛ لأنَّ الفقر ممَّا يَتبعُ الضَّعْفَ، وكلَّما كان الفقيرُ أضْعَفَ كان أفقرَ[٢]؛ وقد شَهِدَ اللهُ سبحانه على الإنسان بالضَّعْفِ في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ولو نَكَّر لكان المعنى: أنتم بعضُ الفقراء.

فإن قلت: قد قُوبِلَ «الفقراء» بـ «الغنيّ» فما فائدةُ «الحميد»؟

قلتُ: لمَّا أثبتَ فَقْرَهم إليه وغِناهُ عنهم، وليس كلُّ غنيٍّ نافعاً بغناه إلاَّ إذا كان الغنيُّ جواداً مُنعِماً، وإذا جاد وأنْعمَ حَمِدَه المنْعَمُ عليهم واستحقَّ عليهم الحمدَ، ذَكَر «الحميد» ليدلَّ به على أنَّه الغنيُّ النافعُ بغناه خَلْقَه، الجوادُ المنعمُ عليهم، المستحِقُّ بإنعامه عليهم أن يَحْمَدوه[٣].

---

(١) في (خ) و (ز): علمه.

(٢) في (خ): أحقر.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥ .

وتخفيفُ الهمزةِ الثانيةِ أَجْوَدُ الوجوهِ عند الخليلِ، ويجوزُ تخفيفُ الأولى وحذَها[١]، وتخفيفُهما وتحقيقُهما جميعاً. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تكون «هو» زائدةً، فلا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وتكون مبتدأةً فيكون موضعُها رفعاً[٢].

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ فيه حذفٌ، المعنى: إنْ يشأْ [أن] يُذْهِبَكم يُذْهِبْكم[٣]، أي: يفنيكم. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أطْوعَ منكم وأزكى. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ممتنعٍ عَسيرٍ مُتعذِّر. وقد مضى هذا في «إبراهيم»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

تقدَّم الكلامُ فيه[٥]، وهو مقطوعٌ ممَّا قَبْلَه. والأصلُ: «تَوْزِر» حُذفت الواوُ اتباعاً لِيَزِر. ﴿وَازِرَةٌ﴾ نعتٌ لمحذوفٍ، أي: نفسٌ وازرةٌ. وكذا ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ قال الفرَّاء[٦]: أي: نفسٌ مُثْقَلةٌ، أو دابَّة. قال: وهذا يقع للمذكَّر والمؤنَّث. قال الأخفش[٧]: أي: وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إنساناً إلى حِمْلِها، وهو ذنوبها. والحِمْلُ: ما كان

---

(١) في (د): وحذفها، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨ ، وسهَّل الثانية كالياء وأبدلها واواً مكسورة: نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وحققها الباقون وأما تخفيف الأولى؛ فهو لحمزة وهشام عند الوقف حسب أصولهما فيه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٧-٣٦٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١٢/ ١٢٥ .

(٥) ٩/ ١٤٥ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٦٦٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٨ .

على الظَّهر، والحَمْل: حَمْلُ المرأةِ، وحَمْلُ النخلة؛ حكاهما الكسائيُّ بالفتح لا غير. وحَكَى ابن السِّكِّيت أنَّ حمل النخلة يُفتح ويُكسر.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسانُ المدعوُّ ذا قُرْبَى. وأجاز الفرَّاء: ولو كان ذو قُرْبَى. وهذا جائزٌ عند سيبويه، ومثلُه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فتكون «كان» بمعنى: وقع، أو يكون الخبرُ محذوفاً، أي: وإن كان فيمَن تطالبون ذو عسرة. وحكى سيبويه: الناسُ مَجْزِيُّونَ بأعمالهم إنْ خيرٌ فخيرٌ؛ على هذا، وخيراً فخيراً[١]؛ على الأوّل.

وروي عن عكرمةَ أنه قال: بلغني أنَّ اليهوديَّ والنَّصْرانيَّ يرى الرجلَ المسلمَ يومَ القيامةِ فيقولُ له: ألم أكن قد أَسْديتُ إليك يداً، ألم أكن قد أَحْسنتُ إليك؟ فيقول: بلى. فيقول: انفعني؛ فلا يزالُ المسلم يسأل الله تعالى حتى يُنْقِصَ من عذابه. وأنَّ الرجل ليَأتي إلى أبيه يومَ القيامةِ فيقول: ألم أَكُنْ بك باراً، وعليك مُشْفِقاً، وإليك مُحْسِناً؟ وأنت ترى ما أنا فيه، فهَبْ لي حسنةً من حسناتك، أو احْمِلْ عنِّي سيئةً، فيقول: إنَّ الذي سَأَلْتني يسيرٌ، ولكنِّي أخافُ مثلَ ما تَخاف. وأنَّ الأبَ ليقول لابنه مثلَ ذلك، فَيرُدُّ عليه نحواً من هذا. وأنَّ الرجل ليقول لزوجته: ألم أَكُنْ حَسَنَ[٢] العِشرة لكِ؟ فاحْمِلي عنِّي خطيئةً لَعَلِّي أنْجو، فتقول: إنَّ ذلك ليسيرٌ ولكنِّي أخاف ممَّا تخاف منه. ثم تلا عكرمة: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[٣].

---

(١) في (د) و (م): وخيراً فخيرٌ، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس، وكلا الوجهين صحيح، والتقدير: إن كان الذي عَمِلَ خيراً جُزي خيراً، أو: إن كان الذي عَمِلَ خيراً فالذي يُجزى به خيرٌ. وإذا رفع الاثنين فالتقدير: إن كان في عمله خير فالذي يجزى به خير. ينظر الكتاب ١/ ٢٥٨-٢٦٠. وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨. وقول الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥.

(٢) في (د) و (م): أحسن.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٩، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٨.

وقال الفُضيل بنُ عِياض: هي المرأةُ تَلْقَى ولدَها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاءً؟ ألم يكن ثديي لك سِقَاءً؟ ألم يكن حِجْري لك وِطَاءً؟ فيقول: بلى يا أمَّاه! فتقول: يا بنيَّ، قد أثْقلتني ذنوبي فاحِمْلْ عنِّي منها ذنباً واحداً، فيقول: إليكِ عنِّي يا أمَّاه، فإنِّي بذَنْبي عنكِ مشغول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: إنَّما يقبلُ إنذارَك مَن يخشى عقابَ الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: مَن اهتَدَى فإنَّما يَهْتدي لنفسه. وقُرئ: «ومَنِ ازَّكَّى فإنَّما يَزَّكَّى لِنفسِه»(١). ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليه مَرْجِعُ جميعِ الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافرُ والمؤمنُ، والجاهلُ والعالم. مثل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ قال الأخْفشُ سعيد(٢): «لا» زائدةٌ؛ والمعنى: ولا الظلماتُ والنور، ولا الظلُّ والحَرُور.

قال الأخفش: والحَرُورُ لا يكون إلا مع شمسِ النهار، والسَّمُوم يكون بالليل(٣)،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦، والبحر ٧/ ٣٠٨ عن طلحة، وهي قراءة شاذة.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤١٩، وفيه: ... والسموم يكون بالليل والنهار، ولم نقف على هذا القول في معاني القرآن للأخفش.

وقيل بالعكس(١). وقال رُؤْبةُ بنُ العجاج: الحَرُورُ يكونُ بالليل(٢) خاصةً، والسَّمُومُ يكون بالنهار(٣) خاصةً، حكاه المهدوِيُّ(٤). وقال الفرَّاء: السَّمومُ لا يكونُ إلا بالنهار، والحرورُ يكونُ فيهما(٥). النحاس(٦): وهذا أصحُّ؛ لأنَّ الحَرُور فَعُولٌ من الحرِّ، وفيه معنى التكثير، أي: الحرّ المؤذي.

قلت: وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ قال: «قالت النار: ربِّ أكلَ بَعْضِي بعضاً، فأْذَنْ لي أَتنفَّسْ، فأَذِنَ لها بنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصيف، فما وجدتُم من بَرْدٍ أو زَمْهرَيرٍ فمِنْ نَفَسِ جهنَّمَ، وما وجدتُم من حرٍّ أو حَرُورٍ فمِنْ نَفَسِ جهنَّم»(٧).

ورُوي من حديث الزُّهريِّ، عن سعيدٍ، عن أبي هريرة: «فما تَجِدون من الحرِّ فَمِنْ سَمُومِها، وشدَّةُ ما تَجِدون من البرد فمِن زَمْهَريرِها»(٨) وهذا يجمعُ تلك الأقوالَ، وأنَّ السَّمومَ والحَرُورَ يكون بالليل والنهار، فتأمَّله.

وقيل: المرادُ بالظلِّ والحَرُورِ: الجنة والنار، فالجنةُ ذاتُ ظلٍّ دائمٍ، كما قال

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩ فقال: وقيل: الحرور لا يكون إلا بالليل، والسموم يكون بالنهار.

(٢) في (د) و (م): بالنهار.

(٣) في النسخ: بالليل، والمثبت عن مجاز القرآن ٢/ ١٥٤، وتفسير الطبري ١٩/ ٣٥٦، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٥١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥، وزاد المسير ٦/ ٤٨٣.

(٤) بعدها في (ظ): وقال السموم في الليل.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٣٠٨، والنكت والعيون ٤/ ٤٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٦، وزاد المسير ٦/ ٤٨٣، ولم نقف عليه في معاني القرآن له.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٧) صحيح مسلم (٦١٧): (١٨٧)، وهو عند أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٥٣٧) و(٣٢٦٠).

(٨) أخرجه بنحوه بهذا الإسناد مرفوعاً أحمد (٧٢٤٧)، والبخاري (٥٣٧). وأخرجه بلفظ المصنف ابن ماجه (٤٣١٩) وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ١٦-١٧ عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، والنارُ ذات حَرُورٍ؛ قال معناه السُّدِّيُّ[١]. وقال ابن عباس: أي ظلُّ الليل، وحَرُّ السَّموم بالنهار. قُطرب: الحَرُورُ: الحرُّ، والظلُّ: البرد[٢].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ قال ابن قُتيبة[٣]: الأحياءُ: العُقَلاء، والأموات: الجهَّال. قال قتادة: هذه كلُّها أمثالٌ، أي: كما لا تستوي هذه الأشياءُ كذلك لا يستوي الكافرُ والمؤمن[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُسمعُ أولياءَه الذين خلَقَهم لجنَّته، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: الكفارَ الذين أمات الكفرُ قلوبَهم، أي: كما لا تُسمع مَن مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبُه.

وقرأ الحسنُ وعيسى الثَّقَفيُّ وعمرو بن ميمون: «بمسمِعِ مَن في القبورِ» بحذفِ التنوينِ تخفيفاً، أي: هم بمنزلةِ [أهلِ] القبورِ في أنَّهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يَقْبَلونه[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي: رسولٌ منذِرٌ، فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهُدَى شيءٌ، إنَّما الهُدَى بيد الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً بالجنة أهلَ طاعَتِه،

---

(١) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٩، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٩.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٩، ولم نقف على خبر ابن عباس.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٣٦١.

(٤) الوسيط ٣/ ٥٠٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن علي ﷺ.

ونذيراً بالنار أهلَ معصيته. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: سَلَفَ فيها نبيٌّ. قال ابن جُريج: إلا العرب[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني: كفارَ قريشٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءَهم، يُسلِّي رسولَه ﷺ. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزاتِ الظَّاهِراتِ والشرائعِ الواضحات. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح. وكرَّر الزُّبرَ والكتابَ وهما واحدٌ لاختلافِ اللفظين. وقيل: تَرجعُ البيناتُ والزبرُ والكتابُ إلى معنىً واحدٍ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كانت عقوبتي لهم. وأثبت وَرْشٌ عن نافعٍ وشيبة الياءَ في «نكيري» حيث وقعت في الوَصْلِ دون الوَقْف. وأثْبَتَها يعقوب في الحالَيْن، وحَذَفَها الباقون في الحالين[٢]. وقد مضى هذا كلُّه، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هذه الرؤيةُ رؤيةُ القَلْبِ والعلمِ، أي: أَلَمْ ينتهِ علمُكَ ورأيتَ بقلبك أنَّ الله أنزل، فـ«أنَّ» واسمُها وخبرُها سَدَّت مَسَدَّ مفعولَيْ الرؤية.

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٢) التيسير ص١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٢.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ هو من بابِ تلوينِ الخطاب. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ نُصِبتْ «مُختَلِفاً» نعتاً لـ«ثَمَرَاتٍ»، «أَلْوَانُهَا» رفع بـ«مختلف». وصلح أن يكون نعتاً لـ«ثَمَرَات» لِمَا عاد عليه مِن ذِكْرِه. ويجوزُ في غيرِ القرآنِ رَفْعُه، ومثلُه: رأيتُ رجلاً خارجاً أبوه[1].

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالماء وهو واحدٌ، والثمراتُ مختلفةٌ. ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ الجُدَدُ: جمعُ جُدَّة، وهي الطرائقُ المختلفةُ الألوان، وإنْ كان الجميعُ حجراً أو تراباً. قال الأخفش[2]: ولو كان جمعَ جديدٍ لقال: جُدُد ـ بضمِّ الجيمِ والدال ـ نحو: سَرير وسُرُر. وقال زهير:

كأنه أسفعُ الخدَّين ذو جُدَدٍ   طاوٍ ويرتعُ بعد الصيفِ عُريانا[3]

وقيل: إنَّ الجُدَدَ: القِطَع، مأخوذٌ من جددتُ الشيء: إذا قطعتَه؛ حكاه ابن بحر[4].

قال الجوهريُّ[5]: والجُدَّة: الخُطَّة التي في ظهر الحمارِ تُخالفُ لونَه. والجُدَّة: الطَّريقة، والجمعُ جُدَد؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: طرائقُ تُخالفُ لونَ الجبل. ومنه قولُهم: رَكِبَ فلانٌ جُدَّةً من الأمر: إذا رأى فيه رأياً. وكساءٌ مجدَّد: فيه خطوطٌ مختلفة.

الزمخشريُّ[6]: وقرأ الزُّهريُّ: «جُدُد» بالضم جمع جَدِيدة، وهي الجُدَّة؛ يقال:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠ ، ولم نقف عليه في ديوان زهير. قوله: أسفع الخدين، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٢٧٢ : السفعة في الخد: كل لون يخالف سائر لونه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠ .

(٥) في الصحاح (جدد).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٠٧ .

جديدة وجُدُد وجَدَائد، كسفينة وسُفُن وسَفَائن. وقد فسّر بها قول أبي ذُؤيب:

جَـوْنُ الـسَّـرَاةِ لـه جَـدَائـدُ أربـعُ[1]

ورُوي عنه «جَدَد» بفتحتين، وهو الطريقُ الواضح المُسْفِر، وَضَعَه موضعَ الطرائقِ والخطوطِ الواضحةِ المنفصِلِ بعضُها من بعضٍ[2].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ﴾ وقُرِئ: «والدوابِ» مخفَّفاً، ونظيرُ هذا التخفيفِ قراءةُ مَن قرأ: «وَلا الضَّأْلِّين»؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما فرَّ من التقاءِ الساكنَيْنِ، فحرَّك ذاك أوَّلهما، وحَذفَ هذا آخِرَهما؛ قاله الزمخشريُّ[3].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: فيهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وغيرُ ذلك، وكلُّ ذلك دليلٌ على صانعٍ مُختارٍ، وقال: «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» فذكَّر الضميرَ مُراعاةً لـ«من»؛ قاله المُؤرِّج. وقال أبو بكر بن عياش: إنَّما ذكَّر الكنايةَ لأَجْلِ أنَّها مردودةٌ إلى «ما» مُضْمَرةٍ، مَجازُه: ومِن الناس ومن الدوابِّ ومن الأنعام ما هو مختلفٌ ألوانه، أي: أبيضُ وأحمرُ وأسود.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال أبو عبيدة[4]: الغِربيبُ: الشديدُ السَّوادِ، ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى: ومن الجبال سودٌ غرابيبُ. والعربُ تقول للشديد السَّوادِ الذي لونُه كَلَوْنِ الغُراب: أسودُ غِربيبٌ.

---

(١) ديوان الهذليين ص٤ ، والخزانة ١/ ٤٢٠ ، وصدره: والدهر لا يبقى على حِدْثانه قال البغدادي: الحدثان بمعنى الحادثة، والسَّراة: أعلى الظهر. والجَوْن: الأسود المائل إلى الحمرة، أراد الحمار الوحشي. اهـ. والجدائد: الأُتُنُ التي لا ألبانَ لها، واحدها جَدود، بفتح الجيم. أو أنها الخطوط التي على ظهر الحمار ـ وهو المراد هنا ـ كما نقل المصنف عن الزمخشري أعلاه.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٧ ، والقراءتان في المحتسب ٢/ ١٩٩-٢٠٠ ، وقراءة «جَدَد» بفتح الجيم ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٣-١٢٤ .

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠٧ ، وقراءة: «والدوابِ» بالتخفيف في المحتسب ٢/ ٢٠٠ عن الزهري. وقراءة: «الضأْلين» بالهمز في القراءات الشاذة ص١ ، والمحتسب ١/ ٤٦ عن أيوب السختياني.

(٤) بنحوه في مجاز اللغة ٢/ ١٥٤ .

قال الجوهريُّ[(١)]: وتقول: هذا أسودُ غِربيبٌ، أي: شديدُ السَّواد. وإذا قلتَ: غرابيبُ سودٌ، تَجعلُ السودَ بدلاً من غرابيبَ؛ لأنَّ تواكيدَ الألوانِ لا تَتقدَّم.

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله يُبغِضُ الشيخَ الغِرْبيبَ» يعني الذي يَخْضِبُ بالسَّواد[(٢)]. قال امرؤ القيس:

العينُ طامحةٌ واليَدُ سابحةٌ والرِّجْلُ لافحةٌ والوجهُ غِرْبيبُ[(٣)]

وقال آخَرُ يَصِفُ كَرْماً:

ومن تَعَاجيبِ خَلْقِ اللهِ غاطِيَةٌ يُعصَر منها مُلاَحِيٌّ وغِرْبيبُ[(٤)]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ هنا تمامُ الكلام[(٥)]، أي: كذلك تختلفُ أحوالُ العبادِ في الخشية، ثم اسْتَأنفَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني بالعلماء: الذين يخافون قدرته، فَمَن عَلِم أنه عزَّ وجلَّ قديرٌ، أيْقنَ بمعاقبته على المعصية، كما رَوَى عليّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: الذين عَلِموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[(٦)].

وقال الربيع بنُ أنس: مَن لم يَخْشَ الله تعالى فليس بعالِمٍ[(٧)].

---

(١) في الصحاح (غرب).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠ . والحديث أخرجه ابن عدي ٣/ ١٠١٦ ، وفي إسناده رشدين بن سعد، قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧١ ، ورواية الديوان ص٢٢٦:

والعينُ قادِحةٌ واليدُ سابِحةٌ والرجلُ طامحةٌ واللونُ غربيبُ

قال شارح الديوان: قادحة: غائرة، واليد سابحة: إذا مدَّت يديها فكأنها تسبح، يريد السرعة (والكلام عن فرسه)، وقوله: طامحة، أي: سريعة الدفع. وقوله: غربيب، يريد السواد، يعني أنها دهماء.

(٤) أدب الكاتب ص٣٧٨، وجمهرة اللغة ٢/ ١٩١، واللسان (غطي). قال ابن دريد: كل شجرة منبسطة على الأرض فهي غاطية، يعني الكرم، وعنب مُلاَحي: إذا كان أبيض.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٤٨٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٦٤ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٤٧١ .

وقال مجاهد: إنَّما العالِمُ مَن خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ. وعن ابن مسعود: كَفَى بخشية الله تعالى عِلماً، وبالاغترار [به] جَهْلاً[١].

وقيل لسعد بن إبراهيم: مَن أَفْقَهُ أهل المدينة؟ قال: أتقاهُم لربِّه عزَّ وجلَّ[٢]. وعن مجاهدٍ قال: إنَّما الفقيهُ مَن يَخافُ الله عزَّ وجلَّ[٣]. وعن عليٍّ ﷺ قال: إنَّ الفقيه حقَّ الفقيهِ مَن لم يُقنِّط الناسَ من رحمة الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي اللهِ تعالى، ولم يؤمِّنْهم من عذابِ الله، ولم يَدَع القرآنَ رغبةً عنه إلى غيره؛ إنَّه لا خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا عِلْمٍ لا فِقْهَ فيه، ولا قراءةٍ لا تَدَبُّر فيها[٤].

وأسند الدارميُّ أبو محمد عن مكحولٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فَضْلَ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلي على أدْناكُم». ثم تلا هذه الآيةَ: «﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ إنَّ الله وملائكتَه وأهلَ سماواتِه وأهلَ أرَضِيه والنونَ في البحر يُصلُّون على الذين يعلِّمون الناس الخير» الخبرُ مرسَل[٥].

قال الدارميُّ[٦]: وحدَّثني أبو النعمان، حدَّثنا حمَّاد بن زيد، عن يزيد بن حازم قال: حدثني عمِّي جرير بنُ زيد[٧] أنه سمع تُبَيْعاً يحدِّثُ عن كعبٍ قال: إنِّي لأَجِدُ نعتَ قومٍ يتعلَّمون لغيرِ العمل، ويَتَفقَّهون لغيرِ العبادة، ويطلبون الدنيا بعملِ الآخرَةِ،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١ ، وما بين حاصرتين منه، وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٦)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩١ . وسيرد تخريج قول مجاهد.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦٧ ، والدارمي (٢٩٦).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٩٧) و(٢٩٨)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٦٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٦٠-١٦١ .

(٥) سنن الدارمي (٢٨٩)، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٥) مرفوعاً من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ، وقال: هذا حديث غريب.

(٦) في سننه (٢٩٩).

(٧) في النسخ: يزيد، والمثبت من سنن الدارمي، وهو الصواب. وترجمته في تهذيب الكمال ٤/ ٥٣٢ .

ويَلْبَسون جلودَ الضَّأنِ، قلوبُهم أمَرُّ من الصَّبر؛ فبي يغترُّون، وإياي يُخادِعون، فبي حلفتُ لأُتيحَنَّ لهم فتنةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حَيْرانَ. خرَّجه الترمذيُّ مرفوعاً من حديث أبي الدرداء، وقد كتبناه في مقدِّمة الكتاب[١].

الزمخشريُّ[٢]: فإن قلتَ: فما وجهُ قراءةِ مَن قرأ: «إنَّما يَخْشَى اللهُ» بالرفع «مِن عِبادِهِ العُلَمَاءَ» بالنصب، وهو عمر بنُ عبد العزيز، وتُحكى عن أبي حنيفة.

قلتُ: الخشيةُ في هذه القراءةِ استعارةٌ، والمعنى: إنَّما يُجِلُّهم ويُعظِّمُهم ـ كما يُجَلُّ المَهِيبُ المَخشِيُّ من الرجال بين الناسِ ـ من بين جميعِ عبادِه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ، لدلالته على عقوبةِ العُصَاةِ وقَهْرِهم، وإثابةِ أهلِ الطاعةِ والعفوِ عنهم. والمعاقِبُ والمُثيبُ حقُّه أن يُخْشَى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هذه آيةُ القُرَّاءِ العامِلين العالِمينَ الذين يُقيمون الصَّلاةَ الفرضَ والنفلَ، وكذا في الإنفاق. وقد مضى في مقدِّمة الكتابِ ما ينبغي أن يتخلَّق به قارئُ القرآن[٣].

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ قال أحمد بن يحيى: خبرُ «إنَّ»: «يرجون»[٤].

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قيل: الزيادةُ: الشفاعةُ في الآخرة. وهذا مِثلُ الآيةِ الأُخرى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾

---

(١) ١/ ٣٥، ولم يخرجه الترمذي، وينظر الكلام على الحديث ثمة.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٨.

(٣) ١/ ٤٨ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١.

[النور:٣٧]، وقوله في آخرِ «النساء»: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الآية:١٧٣] وهناك بيَّنَّاه. ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ للذُّنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ يَقْبلُ القليلَ من العمل الخالص، ويُثيب عليه الجزيلَ من الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآنَ ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: هذه الآيةُ مُشْكِلةٌ؛ لأنَّه قال جلَّ وعزَّ: ﴿ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وقد تكلَّم العلماءُ فيها مِن الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم. قال النحاس[(١)]: فَمِن أصحِّ ما رُوي في ذلك ما رُوي عن ابن عباس ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: الكافر؛ رواه ابنُ عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار[(٢)]، عن ابن عباس. وعن

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧١.

(٢) بعدها في النسخ: عن عطاء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥، والبيهقي في البعث والنشور (٧٤)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وليس فيه: عن عطاء.

ابن عباس أيضاً: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: نَجَتْ فرقتان[١]، ويكون التقدير في العربية: «فمِنهم» أي: مِن عبادنا «ظالمٌ لنفسه» أي: كافر ـ وقال الحسن: أي: فاسق ـ ويكون الضميرُ الذي في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على المقتصِدِ والسابقِ لا على الظالم.

وعن عكرمةَ وقتادةَ والضحَّاكِ والفرَّاءِ أنَّ المقتصدَ: المؤمنُ العاصي، والسابق: التَّقيُّ على الإطلاق. قالوا: وهذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ الآية [الواقعة: ٧]. قالوا: وبَعيدٌ أن يكون ممَّن يُصطَفَى ظالم[٢]. ورواه مجاهدٌ عن ابن عباس[٣]. قال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾: أصحاب المَشْأَمة، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: أصحاب المَيْمَنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾: السابقون من الناس كلِّهم[٤].

وقيل: الضميرُ في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على الثلاثةِ الأصناف، على ألاَّ يكون الظالمُ هاهنا كافراً ولا فاسقاً. وممَّن روي عنه هذا القولُ عمرُ وعثمانُ وأبو الدَّرْداءِ، وابنُ مسعودٍ وعقبةُ بن عمرو وعائشةُ، والتقديرُ على هذا القولِ: أن يكون الظالمُ لنفسه: الذي عَمِلَ الصغائر. والمقتصِدُ، قال محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقَّها والآخرةَ حقَّها، فيكون «جَنّاتُ عَدْنٍ يَدخُلُونَها» عائداً على الجميع على هذا الشرح والتَّبيين[٥]. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧١ بنحوه، والكلام من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٩-٣٧٠ ، وأخرجه عن عكرمة وقتادة الطبري ١٩/ ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧١ عن طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٢ ، وأخرجه عن عمر وعثمان رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٢٣٠٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٦٦)، وإسناده غير قوي كما ذكر في البيهقي، وخبر عمر ﷺ سيرد مرفوعاً من حديثه، وسيأتي الخبر عن أبي الدرداء وابن مسعود وعائشة ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١١٧٤٥)، والترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال ابن كثير عند هذه الآية: وفي إسناده مَن لم يُسَمَّ.

وقال كعب الأحبار: استوَتْ مَنَاكِبُهم وربِّ الكعبة، وتفاضَلوا بأعمالهم. وقال أبو إسحاق السَّبيعيُّ: أمَّا الذي سمعت منذ ستين سنةً: فكلُّهم ناجٍ[(١)].

وروى أسامةُ بن زيد: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلُّهم في الجنة»[(٢)].

وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآيةَ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابِقُنا سابِقٌ، ومُقْتَصِدُنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»[(٣)]. فعلى هذا القولِ يقدَّر مفعولُ الاصطفاءِ من قوله: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مضافاً حُذف كما حُذف المضافُ في ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: اصْطَفَيْنا دينَهم، فبقي: اصْطَفَيْناهم، فحذف العائدُ إلى الموصول كما حُذف في قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١] أي: تَزْدَريهم، فالاصطفاءُ إذاً موجَّهٌ إلى دِينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

قال النحاس[(٤)]: وقولٌ ثالثٌ: يكون الظالمُ صاحبَ الكبائر، والمقتصدُ الذي لم يَستحِقَّ الجنةَ بزيادةِ حسناته على سيئاته، فيكون: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ للذين سَبَقوا بالخيرات لا غير. وهذا قولُ جماعةٍ من أهلِ النَّظَرِ؛ لأنَّ الضمير ـ في حقيقةِ النَّظَرِ ـ لِمَا يليه أوْلَى.

قلت: القولُ الوَسَطُ أوْلاها وأصحُّها إن شاء الله؛ لأنَّ الكافر والمنافقَ لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ ، وأخرجهما الطبري ١٩/ ٣٧٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ ، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٤١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٦ : فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيِّئ الحفظ.

(٣) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٥) عن طريق ميمون بن سياه عن عمر به، وهو منقطع كما ذكر البيهقي، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٣ ، والبغوي ٣/ ٥٧١ من وجه آخر من طريق ميمون من سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر به، وفيه الفضل بن عميرة وهو ضعيف. ينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٩ . وذكر البغوي عن أبي قلابة قوله: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٢ .

يُصْطفَوْا بحمد الله، ولا اصْطُفيَ دينُهم، وهذا قولُ ستةٍ من الصحابة، وحَسْبُك. وسَنَزِيدُه بياناً وإيضاحاً في باقي الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أعْطَينا. والميراثُ عطاءٌ حقيقةً أو مَجازاً؛ فإنَّه يقال فيما صار للإنسان بعد موتِ آخَرَ. و«الكتابَ» هاهنا يريد به معانيَ الكتابِ وعِلْمَه وأحكامَه وعقائدَه، وكأنَّ الله تعالى لمَّا أعْطَى أمةَ محمدٍ ﷺ القرآنَ، وهو قد تضمَّنَ، معانيَ الكتبِ المنزلة، فكأنه وَرَّثَ أمَّةَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام الكتابَ الذي كان في الأمم قَبْلَها(١).

﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخْتَرْنا. واشتقاقُه من الصَّفْو، وهو الخلوصُ من شوائب الكَدَر. وأصلُه: اصْتفَوْنا، فأُبْدِلَت التاءُ طاءً والواوُ ياءً.

﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ قيل: المرادُ أمةُ محمدٍ ﷺ؛ قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه. وكأن اللَّفظَ يَحْتَمِلُ جميعَ المؤمنين من كلِّ أمةٍ، إلاَّ أنَّ عبارةَ توريثِ الكتابِ لم تكن إلاَّ لأمةِ محمدٍ ﷺ، والأُوَلُ لم يَرِثُوه(٢).

وقيل: المصطفَوْن الأنبياء، تَوَارَثوا الكتابَ، بمعنى: أنَّه انتقل عن(٣) بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقال: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]. فإذا جاز أن تكون النبوَّةُ موروثةً فكذلك الكتابُ، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مَن وَقَعَ في صغيرةٍ. قال ابن عطية(٤): وهذا قولٌ مردودٌ من غير ما وَجْهٍ.

قال الضحاك: معنى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: من ذرِّيَّتهم ظالمٌ لنفسه، وهو المُشْرِكُ. الحسن: من أُمَمِهم، على ما تقدَّم ذِكْرُه من الخلاف في الظالم. والآيةُ في أمَّةِ محمدٍ ﷺ.

---

(١) في النسخ عدا (ظ): قبلنا، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٨ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٨ ، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٩/ ٣٦٨ ، والبيهقي في البعث والنشور (٧٣).

(٣) في (ظ): من.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ .

وقد اختلفت عبارات أربابِ القلوبِ في الظالم والمُقْتَصِدِ والسَّابِق، فقال سهل ابن عبد الله: السابِقُ العالم، والمقتصِدُ المتعلِّم، والظالمُ الجاهل.

وقال: ذو النون المصريُّ: الظالم الذَّاكِرُ اللهَ بلسانه فقط، والمقتصدُ الذاكرُ بقلبه، والسابقُ الذي لا ينساه.

وقال الأنطاكيُّ: الظالمُ صاحبُ الأقوال، والمقتصدُ صاحبُ الأفعال، والسابقُ صاحبُ الأحوال(١).

وقال ابن عطاء: الظالمُ الذي يحبُّ اللهَ من أَجْلِ الدنيا، والمقتصدُ الذي يحبُّه من أجل العُقْبَى، والسابقُ الذي أسقط مُرادَه بمراد الحقِّ(٢).

وقيل: الظالم الذي يعبدُ اللهَ خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبدُ الله طمعاً في الجنة، والسابقُ الذي يعبدُ الله لوجهه لا لسبب.

وقيل: الظالم الزاهدُ في الدنيا؛ لأنَّه ظلم نَفْسَه فترك لها حظّاً وهي المعرفةُ والمحبة، والمقتصِدُ العارِفُ، والسابقُ المحِبُّ.

وقيل: الظالمُ الذي يَجزعُ عند البلاء، والمقتصدُ الصابرُ على البلاء، والسابقُ المتلذِّذُ بالبلاء.

وقيل: الظالم الذي يعبدُ الله على الغَفْلةِ والعادة، والمقتصدُ الذي يعبدُه على الرَّغْبةِ والرَّهْبة، والسابقُ الذي يعبدُه على الهَيْبة.

وقيل: الظالمُ الذي أُعْطِيَ فمَنَعَ، والمقتصدُ الذي أُعْطِيَ فبذَل، والسابقُ الذي مُنع فشَكَر وآثَرَ.

ويروَى أنَّ عابِدَين التقيا، فقال: كيف حالُ إخوانِكم بالبَصرة؟ قال: بخير، إنْ أُعْطُوا شَكروا، وإن مُنعوا صبروا. فقال: هذه حالةُ الكلابِ عندنا ببَلْخٍ! عُبَّادُنا إنْ

(١) ذكر هذه الأقوال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ .

(٢) في (ظ): بمراد الله.

مُنِعوا شَكروا، وإن أُعطوا آثَروا[١].

وقيل: الظالمُ مَن استغنَى بماله، والمقتصدُ من استغنَى بدينه، والسابقُ مَن استغنَى بربِّه.

وقيل: الظالمُ التالي للقرآن ولا يعملُ به، والمقتصِدُ التالي للقرآن ويعملُ به، والسابقُ القارئُ للقرآن العاملُ به والعالِم به.

وقيل: السابقُ الذي يدخل المسجدَ قبل تأذين المؤذِّن، والمقتصدُ الذي يدخل المسجدَ وقد أذّن، والظالم الذي يدخل المسجدَ وقد أُقيمت الصلاة؛ لأنه ظَلَم نفسَه الأجرَ فلم يحصِّل لها ما حصَّله غيرُه[٢].

وقال بعضُ أهلِ العلمِ في هذا: بل السابقُ الذي يدركُ الوقتَ والجماعةَ فيُدْرِكُ الفضيلتين، والمقتصد الذي إنْ فاتَتْه الجماعةُ لم يُفرِّط في الوقت، والظالمُ الغافِلُ عن الصلاة حتى يفوتَ الوقتُ والجماعةُ، فهو أَوْلَى بالظُّلم.

وقيل: الظالمُ الذي يحبُّ نفسَه، والمقتصدُ الذي يحبُّ دِينَه، والسابقُ الذي يحبُّ ربَّه.

وقيل: الظالمُ الذي ينتصِفُ ولا يُنصِفُ، والمقتصدُ الذي يَنتصِفُ ويُنصِفُ، والسابقُ الذي يُنصِفُ ولا ينتصِفُ.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: السابقُ الذي أسْلَم قبلَ الهجرة، والمقتصدُ مَن أسْلَم بعدَ الهجرة، والظالمُ مَن لم يُسْلِم إلَّا بالسيف، وهم كلُّهم مغفورٌ لهم[٣].

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٧ عن إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي.

(٢) في (ظ): فلم يحصل له ما حصل لغيره.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ وعزاه للثعلبي، إلا أنه قال في آخره: والظالم نحن، بدل: والظالم من لم يسلم...، وأخرجه بنحوه الطيالسي (١٤٨٩)، والحاكم ٢/ ٤٢٦ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه الصلت بن دينار، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي. وقولها رضي الله عنها: والظالم نحن، (كما في رواية ابن عطية، وبنحوه عند الطيالسي والحاكم) هو من باب التواضع =

قلت: ذكر هذه الأقوالَ وزيادةً عليها الثعلبيُّ في «تفسيره». وبالجملة فَهُمْ طَرَفانِ وواسِطَةٌ، وهو المقتصدُ الملازِمُ للقَصْدِ، وهو تَرْكُ الميل، ومنه قولُ جابر بن حُنَيٍّ التَّغْلبيِّ:

نُعاطي الملوكَ السِّلْمَ ما قَصَدُوا لنا وليس علينا قَتْلُهم بمحَرَّمِ[١]

أي: نُعاطيهم[٢] الصُّلْحَ ما ركبوا بنا القَصْدَ، أي: ما لم يجوروا، وليس قَتْلُهم بمحرَّمٍ علينا إنْ جاروا، فلذلك[٣] كان المقتصِدُ منزلةً بين المنزلتين، فهو فوقَ الظالمِ لنفسِه ودون السابقِ بالخيرات.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني إتيانَنا[٤] الكتابَ لهم. وقيل: ذلك الاصطفاءُ مع عِلْمِنا بعيوبهم هو الفضلُ الكبير. وقيل: وعْدُ الجنةِ لهؤلاء الثلاثةِ فضلٌ كبير.

الثالثة: وتكلَّم الناسُ في تقديم الظالمِ على المقتصِدِ والسابِقِ؛ فقيل: التقديمُ في الذِّكر لا يقتضي تشريفاً، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقيل: قدَّم الظالمَ لكثرةِ الفاسقين منهم وغَلَبتِهم، وأنَّ المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم، والسابقون أقلُّ من القليل؛ ذَكَره الزَّمخشري[٥]، ولم يَذْكُرْه غيرُه.

وقيل: قدَّم الظالم لتأكيدِ الرجاءِ في حقِّه؛ إذ ليس له شيءٌ يتَّكِلُ عليه إلاَّ رحمةُ

= كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وقال: وهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

(١) المفضليات ص٢١١ ، ومنتهى الطلب ٤/ ٤٩ .

(٢) في (ظ): نعطيهم.

(٣) في (ظ): فكذلك.

(٤) في (ظ): ايتاؤنا.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٠٩ .

ربِّه. واتَّكَلَ المقتصدُ على حُسْنِ ظنِّه، والسابقُ على طاعته.

وقيل: قدَّم الظالـمَ لئلاَّ ييئسَ من رحمة الله، وأخَّر السابقَ لئلَّا يُعجب بعمله.

وقال جعفر بنُ محمد بن عليٍّ الصادقُ ﷺ: قدَّم الظالـمَ ليُخْبِرَ أنه لا يُتَقرَّبُ إليه إلا بصِرْفِ رحمته وكرمه، وأنَّ الظلم لا يؤثِّر في الاصطفائيةِ إذا كانت ثَمَّ عنايةٌ، ثم ثنَّى بالمقتصدينَ لأنَّهم بين الخوفِ والرجاء، ثم خَتَم بالسابقين لئلَّا يَأمنَ أحدٌ مَكْرَ الله، وكلُّهم في الجنة بحُرْمةِ كلمةِ الإخلاص: لا إلهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ[1].

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ: جَمَعَهم في الاصطفاءِ إزالةً للعللِ عن العطاء؛ لأنَّ الاصطفاءَ يوجبُ الإرْثَ، لا الإرث يوجبُ الاصطفاءَ، ولذلك قيل في الحكمة: صحِّح النِّسْبةَ ثم ادَّعِ في الميراث[2].

وقيل: أخَّر السابقَ ليكون أقربَ إلى الجناتِ والثواب، كما قدَّم الصوامعَ والبِيَعَ في سورة الحج على المساجد، لتكون الصوامعُ أقربَ إلى الهدمِ والخراب، وتكون المساجدُ أقربَ إلى ذكر الله.

وقيل: إنَّ الملوك إذا أرادوا الجمعَ بين الأشياءِ بالذِّكْر[3] قدَّموا الأدْنى؛ كقوله تعالى: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ [الحشر: ٢٠].

قلت: ولقد أَحْسَنَ مَن قال:

وغايةُ هذا الجودِ أنتَ وإنَّما ... يُوَافَى إلى الغاياتِ في آخِرِ الأَمْرِ

الرابعة: قولُه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جَمَعَهم في الدخول لأنَّه ميراثٌ، والعاقُّ

(١) ذكره بنحوه البغوي ٣/ ٥٧٢ .

(٢) في (ظ): ثم ادعى للميراث، وفي (خ) و (د) و (ز): ثم ادعى في الميراث، والمثبت من (م).

(٣) في (ظ): في الذكر.

والبارُّ في الميراثِ سواءٌ إذا كانوا مُعترِفينَ بالنَّسَب، فالعاصي والمطيعُ مُقِرُّون بالرَّبِّ.

وقرئ: «جَنَّةُ عَدْنٍ» على الإفراد، كأنَّها جنةٌ مُختصَّةٌ بالسابقين لقلَّتهم، على ما تقدَّم(١).

و«جَنَّاتِ عَدْنٍ» بالنصب على إضمارِ فعلٍ يفسِّرُه الظاهِرُ، أي: يَدخُلون جناتِ عَدْنٍ يَدْخُلونها(٢). وهذا للجميع، وهو الصحيحُ إن شاء الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو: ﴿يُدْخَلونها﴾ بضمِّ الياءِ وفتح الخاء(٣). قال: لقوله: «يُحَلَّوْن». وقد مضى في «الحجّ» الكلامُ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال أبو ثابت: دخل رجلٌ المسجدَ فقال: اللهمَّ ارْحَمْ غُرْبتي، وآنِسْ وَحْدتي، ويَسِّرْ لي جليساً صالحاً. فقال أبو الدَّرْداءِ: لئن كنتَ صادقاً فَلأنَا أسْعَدُ بذلك منكَ، سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: فيجيءُ هذا السابِقُ فيدخل الجنةَ بغير حساب، وأمَّا المقتصدُ فيُحاسَبُ حساباً يسيراً، وأمَّا الظالمُ لنفسِه فيُحبَس في المقام ويُوَبَّخ ويقرَّعُ، ثم يدخل الجنة، فهم الذين قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٤).

وفي لَفْظٍ آخَر: «وأمَّا الذين ظلموا أنفسَهم فأولئك يُحبَسون في طولِ المَحْشَرِ،

---

(١) في المسألة السابقة، والقراءة في الكشاف ٣/ ٣٠٩، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠ لزر ابنِ حُبَيْش.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٩ . والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن الجحدري.

(٣) السبعة ص٥٣٤ ، والتيسير ص١٨٢ .

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٦٩٧)، والطبري ١٩/ ٣٧٥ ، والبغوي ٣/ ٥٧١ ، من طريق الأعمش عن أبي ثابت. وأبو ثابت ـ أو ثابت كما وقع على الشك عند أحمد ـ غير منسوب، وفي إسناد الحديث اختلاف على الأعمش.

ثم هم الذين يَتَلافاهم[١] الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾»[٢].

وقيل: هو الذي يُؤخَذُ منه في مُقامه، يعني يُكفَّر عنه بما يُصيبُه من الهمِّ والحزن، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] يعني: في الدنيا. قال الثعلبيُّ: وهذا التأويلُ أَشْبهُ بالظاهر؛ لأنه قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، ولقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، والكافرُ والمنافقُ لم يُصْطَفَوْا.

قلت: وهذا هو الصحيحُ، وقد قال ﷺ: «ومَثَلُ المنافقِ الذي يقرأ القرآنَ مَثَلُ الرَّيحانة، رِيحُها طيِّبٌ وطَعْمُها مرٌّ»[٣]. فأخبر أنَّ المنافق يقرؤه، وأخبر الحقُّ سبحانه وتعالى أنَّ المنافق في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، وكثيرٌ من الكفارِ اليهودِ[٤] والنصارى يقرؤونه في زماننا هذا. وقال مالكٌ: قد يَقْرأُ القرآن مَن لا خيرَ فيه[٥]. والنَّصَب: التعب. واللُّغوب: الإعياء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ لمَّا ذَكَر أهلَ الجنةِ وأحوالَهم ومَقَالتَهم، ذَكَر أهلَ النارِ وأحوالَهم ومقالتَهم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ مثل: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ مثل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم

(١) في (م): يتلقاهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٢٧)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) قطعة من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أخرجه البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧)، وسلف ١/ ١٣ .

(٤) في (م): وكثير من الكفار واليهود، وفي (ظ): وكثير من اليهود.

(٥) سلف ٢/ ١٦٦ .

بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: كافرٍ باللهِ ورسوله.

وقرأ الحسن: «فيموتون» بالنون، ولا يكونُ للنفي حينئذٍ جوابٌ، ويكون «فيموتون» عطفاً على «يُقْضَى»، تقديرُه: لا يُقضَى عليهم ولا يموتون[١]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] قال الكسائيُّ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ بالنون في المصحف لأنَّه رأسُ آيةٍ، و﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [بغير نون] لأنه ليس رأسَ آيةٍ. ويجوزُ في كلٍّ واحدٍ منهما ما جاز في صاحبه[٢].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يستغيثون في النار بالصوت العالي. والصُّراخُ: الصوتُ العالي، والصارخُ: المستغيثُ، والمُصْرِخُ: المُغيثُ؛ قال:

كنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ كان الصراخُ له قرعَ الظَّنابيبِ[٣]

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي: يقولون: ربَّنا أخرِجْنا من جهنَّم، ورُدَّنا إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: نَقُلْ: لا إله إلا الله[٤]. وهو معنى[٥] قولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: من الشرك، أي: نؤمنُ بَدَلَ الكفر، ونطيعُ بدلَ المعصية، ونمتثلُ أمرَ الرُّسل.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جوابُ دعائِهم، أي: فيقالُ لهم، فالقولُ مضمَر. وترجم البخاريُّ: بابُ مَن بَلَغ ستِّين سنةً فقد أَعْذَرَ اللهُ إليه في العمر،

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠٢، قال ابن جني: والمفعول محذوف، أي: لا يقضى عليهم الموت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص١٢٥، والصحاح (ظنب). قال الجوهري: الظُّنْبوب: العظم اليابس من قدم الساق، عنى به سرعة الإجابة، وجعل قرع السوط على ساق الخفِّ في زجر الفرس قرعاً للظُّنبوب. وقال الأصمعي في شرح الديوان: يقال: ضَرب لهذا الأمر ظنبوبه: إذا هو جَدَّ فيه.

(٤) الوسيط ٣/ ٥٠٦.

(٥) في (د) و (ظ): ومعنى، بدل: وهو معنى.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يعني الشيب. حدَّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال: حدَّثنا عمر بنُ علي قال: حدَّثنا مَعْن بنُ محمد الغِفاريُّ، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أعْذَرَ اللهُ إلى امرئٍ أخَّرَ أجَلَه حتى بلَّغه ستِّين سنةً»[1].

قال الخَطَّابيّ[2]: أعْذَرَ إليه، أي: بلَغ به أقْصَى العُذْرِ، ومنه قولُهم: قد أعْذَرَ مَن أنْذَر، أي: أقام عُذْرَ نَفْسِه في تقديم نِذارتِه. والمعنى: أنَّ مَن عمَّره الله ستِّين سنةً لم يَبْقَ له عذرٌ؛ لأنَّ الستِّين قريبٌ من مُعتَركِ المنايا، وهو سنُّ الإنابةِ والخشوعِ، وترقُّبِ المنيَّة ولقاءِ الله تعالى، ففيه إعذارٌ بعد إعذار[3]، الأوَّلُ بالنبيِّ ﷺ، والمُوْتان[4] في الأربعين والستين[5]. قال عليٌّ وابن عباس وأبو هريرةَ في تأويلِ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: إنَّه سِتُّون سنة[6]. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال في موعظته: «ولقد أبْلَغَ في الإعذارِ مَن تقدَّم في الإنذار، وإنه لينادي مُنادٍ من قِبَلِ الله تعالى أبناءَ الستين: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾»[7].

---

(١) صحيح البخاري (٦٤١٩)، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، وقوله: يعني الشيب، هو في بعض روايات البخاري دون بعض كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٢٣٩ .

(٢) بنحوه في غريب الحديث له ٢/ ٣٥٩ .

(٣) في (د): إنذار، وفي (ظ): إنذاره.

(٤) أي: الموت الكثير الوقوع. معجم متن اللغة (موت). ووقع في (ز) و(ظ): والمرتان، بدل: والموتان وينظر التعليق التالي.

(٥) سلف نحو هذا الكلام ٩/ ٣٢٢ ، وفيه: ففيه إعذار بعد إعذار، الأول بالنبي ﷺ، والثاني بالشيب، وذلك عند كمال الأربعين.

(٦) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق ٢/ ١٣٨ ، والطبري ١٩/ ٣٨٥ . وأخرجه عن علي ﷺ الطبري ١٩/ ٣٨٦ .أما أبو هريرة ﷺ فقد سلف الحديث عنه مرفوعاً: «أعذر الله إلى امرئ...» وقد أخرجه بنحوه الرامهرمزي في الأمثال ص٩٨ وزاد بعده: يريد: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وروي نحوه عن ابن عباس على ما يأتي.

وذكر الترمذيُّ الحكيم من حديثِ عطاء بنِ أبي رَباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامةِ نُوديَ أبناءُ الستِّين، وهو العمرُ الذي قال الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾»(١).

وعن ابن عباس أيضاً: أنه أربعون سنةً. وعن الحسن البصريِّ ومسروقٍ مثلُه(٢). ولهذا القولِ أيضاً وجهٌ، وهو صحيحٌ؛ والحجةُ له قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الآية [الأحقاف: ١٥]. ففي الأربعين تَنَاهي العقلِ، وما قبلَ ذلك وما بعدَه مُنْتقِصٌ عنه، والله أعلم.

وقال مالك: أدركتُ أهلَ العلمِ ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلمَ ويُخالِطون الناسَ، حتى يأتيَ لأحدهم أربعون سنةً، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناسَ واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيَهم الموتُ. وقد مضى هذا المعنى في سورة الأعراف(٣).

وخرَّج ابن ماجه عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أعمارُ أمَّتي ما بين الستِّين إلى السبعين، وأَقلُّهم مَن يُجاوِزُ ذلك»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، وقرئ: «وجاءتكم النُّذُرُ»(٥) واخْتُلفَ فيه؛ فقيل: القرآن. وقيل: الرسول؛ قاله زيد بنُ عليٍّ وابن زيد(٦). وقال ابنُ عباس وعكرمةُ وسفيان ووكِيعٌ والحسين بن الفضل والفرَّاء والطبريُّ: هو الشيب(٧).

---

(١) نوادر الأصول ص١٧٧، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٥، والطبراني في الكبير (١١٤١٥)، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل، قال الحافظ في التقريب: متروك.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٤ عن ابن عباس ومسروق. وذكره عن الحسن البغوي ٣/ ٥٧٣.

(٣) ٩/ ٣٢٢.

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٣٦)، وسلف ٥/ ٢١٨.

(٥) الكشاف ٣/ ٣١١.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٧ عن ابن زيد.

(٧) أخرجه عن ابن عباس البيهقي ٣/ ٣٧٠، وسلف ٩/ ٣٢٢، وذكره عن عكرمة وسفيان ووكيع البغويُّ =

وقيل: النذيرُ الحُمَّى. وقيل: موتُ الأهلِ والأقارب. وقيل: كمالُ العقلِ[١]. والنذير بمعنى الإنذار.

قلت: فالشيبُ والحُمَّى وموتُ الأهلِ كلُّه إنذارٌ بالموت؛ قال ﷺ: «الحُمَّى رائدُ الموت»[٢]. قال الأزهريُّ: معناه: أنَّ الحمَّى رسولُ الموت[٣]، أي: كأنَّها تُشعِرُ بقدومه وتُنْذرُ بمجيئه. والشيبُ نذيرٌ أيضاً؛ لأنه يأتي في سنِّ الاكتهال، وهو علامةٌ لمفارقةِ سنِّ الصِّبَا الذي هو سِنُّ اللَّهوِ واللَّعِب، قال:

رأيتُ الشيبَ من نُذُرِ المنايا ... لصاحبه وحَسْبُك مِن نذيرِ

وقال آخرُ:

فقلتُ لها المَشيبُ نذيرُ عمري ... ولستُ مُسَوِّداً وَجْهَ النَّذيرِ[٤]

وأمَّا موتُ الأهلِ والأقاربِ والأصحابِ والإخوانِ؛ فإنذارٌ بالرحيل في كلِّ وقتٍ وأوَان، وحينٍ وزمان، قال:

وأراكَ تحملُهم ولستَ تَردُّهم ... فكأنَّني بك قد حُمِلتَ فلم تُرَدّ

وقال آخرُ:

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشُر الكَفَنَا ... ونحن في غفلةٍ عمَّا يُرادُ بنا[٥]

= ٣/ ٥٧٣ . وذكره عن الفراء والطبري الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٤٧٦ ، وسلف في ترجمة عند البخاري قريباً.

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٦ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ١٦٤ ، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٥/ ٩٤-٩٥ من حديث عبد الرحمن بن المرقع ﷺ. قال الهيثمي: فيه المحبر بن هارون، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. ا هـ. وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٨٧٠) عن الحسن مرسلاً.

(٣) تهذيب اللغة ١٤/ ١٦٣ .

(٤) نسبه المبرِّد في الكامل ٢/ ٧٠٣ للعُتْبي، وهو بلا نسبة في عيون الأخبار ٤/ ٥١ ، والعقد الفريد ٣/ ٥١ .

(٥) البيت لمحمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زمنين، كما في جذوة المقتبس ص٥٧ ، والصلة لابن بشكوال ص ٤٨٤ .

وأمَّا كمالُ العقلِ فبِهِ تُعرفُ حقائقُ الأمور، ويُفْصَلُ بين الحسناتِ والسيئات، فالعاقلُ يَعملُ لآخِرته ويَرغَبُ فيما عندَ ربِّه، فهو نذير.

وأمَّا محمدٌ ﷺ فبعثَه الله بشيراً ونذيراً إلى عباده قَطْعاً لحججهم؛ قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ يريدُ عذابَ جهنَّم؛ لأنَّكم ما اعتبرتُم ولا اتَّعَظْتُم[١].

﴿فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: مانعٍ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

تقدَّم معناه في غير موضع. والمعنى: عَلِمَ أنه لو ردَّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. و﴿عَـٰلِمُ﴾ إذا كان بغيرِ تنوينٍ صلح أن يكون للماضي والمستقبل [والحال]، وإذا كان منوَّناً لم يَجُزْ أن يكون للماضي[٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال قتادةُ: خَلَفاً بعد خَلَفٍ، وقَرْناً بعد قرن[٣]. والخَلَفُ هو التالي للمتقدِّم، ولذلك قيل لأبي بكر: يا خليفةَ الله، فقال: لستُ بخليفةِ الله، ولكنِّي خليفةُ رسولِ الله ﷺ، وأنا راضٍ بذلك[٤].

---

(١) في (ظ): ما آمنتم ولا أطعتم.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٧، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٧، والطبري ١٩/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٤) أخرجه أحمد (٥٩) من طريق ابن أبي مليكة قال: قيل: لأبي بكر...، وابن أبي مليكة لم يدرك أبا بكر ﷺ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاءُ كُفْرِه، وهو العقابُ والعذاب. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بغضاً وغضباً. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكاً وضلالاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ «شركاءكم» منصوبٌ بالرؤية، ولا يجوزُ رَفْعُه، وقد يجوز الرفعُ عند سيبويه في قولهم: قد علمتُ زيداً أبو مَن هو؟ لأنَّ زيداً في المعنى مُسْتَفهَمٌ عنه. ولو قلتَ: أرأيتَ زيداً أبو مَن هو؟ لم يَجُزِ الرفعُ. والفرقُ بينهما أنَّ معنى هذا: أخْبِرني عنه، وكذا معنى هذا: أخْبِروني عن شركائكم الذين تَدْعون من دون الله، أعَبَدْتُموهم لأنَّ لهم شَرِكةً في خَلْقِ السماوات، أم خَلَقوا من الأرض شيئاً؟! ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أي: أم عندَهم كتابٌ أنزلناه إليهم بالشَّرِكَة. وكان في هذا رَدٌّ على مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم لا يجدون في كتابٍ من الكتب أنَّ الله عزَّ وجلَّ أمر أن يُعْبَد غيرُه[1].

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزةُ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بالتوحيد، وجَمَعَ الباقون[2]. والمَعْنَيان مُتقاربان إلَّا أنَّ قراءةَ الجمع أوْلَى؛ لأنَّه لا يخلو مَن قرأه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ من أن يكون خالَفَ السوادَ الأعظمَ، أو يكون جاء به على لغةِ مَن قال: جاءني طلحت[3]، فوقف بالتاء، وهذه لغةٌ شاذَّةٌ قليلة؛

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) السبعة ص٥٣٥، والتيسير ص١٨٢.

(٣) في (د) و (ظ): طلحة. وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦ والكلام منه.

قاله النحاس[١].

وقال أبو حاتم وأبو عبيد: الجمعُ أَوْلَى لموافقته الخطَّ، لأنَّها في مصحفِ عثمانَ: «بيِّناتٍ» بالألف والتاء.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: أباطيلَ تَغرُّ، وهو قولُ السادةِ للسِّفْلة: إنَّ هذه الآلهةَ تَنْفعُكم وتقرِّبكم. وقيل: إنَّ الشيطان يَعِدُ المشركين ذلك. وقيل: وَعَدَهم بأنَّهم يُنصَرون عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ لمَّا بيَّنَ أنَّ آلهتَهم لا تَقْدِرُ على خَلْقِ شيءٍ من السماوات والأرض بيَّن أنَّ خالقَهما ومُمْسِكَهما هو الله، فلا يوجد حادثٌ إلَّا بإيجاده، ولا يبقى إلَّا ببقائه. و«أنَّ» في موضعِ نصبٍ بمعنى: كراهةَ أنْ تَزولا، أو لئلَّا تزولا، أو يُحملُ على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إنَّ الله يَمنعُ السماواتِ والأرضَ مِن[٢] أنْ تزولا، فلا حاجةَ على هذا إلى إضمارٍ، وهذا قولُ الزجَّاج[٣].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاء[٤]: أي: ولو زالتا ما أمسكهما مِن أحدٍ، و«إنْ» بمعنى ما. قال: وهو مثلُ قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١]. وقيل: المرادُ زوالُهما يومَ القيامة[٥].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٢) قوله: من، من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦، والكلام منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٧٣.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣-٢٧٤.

وعن إبراهيمَ قال: دخل رجلٌ من أصحاب ابنِ مسعودٍ إلى كعب الأحبارِ يتعلَّم منه العلمَ، فلمَّا رجع قال له ابن مسعود: ما الذي أصبتَ من كعب؟ قال: سمعتُ كعباً يقول: إنَّ السماء تدورُ على قُطْبٍ مثلِ قُطْبِ الرَّحى، في عمودٍ على منكبِ مَلَكٍ، فقال له عبد الله: وددتُ أنك انقلبتَ براحلتك ورَحْلِها، كَذَبَ كعبٌ، ما ترك يهوديَّته! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إنَّ السماواتِ لا تدورُ، ولو كانت تدورُ لكانت قد زالت[1].

وعن ابن عباس نحوُه، وأنه قال لرجلٍ مُقْبِلٍ من الشام: مَن لَقِيتَ به؟ قال: كعباً. قال: وما سمعتَه يقول؟ قال: سمعتُه يقول: إنَّ السماوات على منكبِ مَلَكٍ. قال: كَذَبَ كعب، أمَا ترك يهوديَّته بعدُ! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾[2].

والسماواتُ سبعٌ والأرضونَ سبعٌ، ولكنْ لمَّا ذكَّرهما أجراهما مجرى شيئين، فعادت الكنايةُ إليهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ثم ختم الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لأنَّ المعنى فيما ذكره بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الله يمسكُ السماواتِ والأرضَ أنْ تزولا مِن كُفرِ الكافرين، وقولِهم: اتَّخذ الله ولداً. قال الكلبيُّ: لمَّا قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله، كادت السماواتُ والأرضُ أنْ تزولا عن أمكنتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية فيه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا . تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم: ٨٩-٩٠].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٩٢، وأخرجه أيضاً ١٩/ ٣٩١ من طريق أبي وائل عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ هم قريشٌ؛ أقسموا قبل أنْ يبعث الله رسولَه محمداً ﷺ، حين بَلَغهم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبوا رسلَهم، فلَعنوا مَن كذَّب نبيَّه منهم، وأقسموا بالله جلَّ اسمُه: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نبيٌّ ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ يعني ممَّن كذَّب الرسلَ من أهلِ الكتاب[(١)].

وكانت العربُ تتمنَّى أن يكون منهم رسولٌ كما كانت الرسلُ من بني إسرائيلَ، فلمَّا جاءهم ما تَمنَّوْه ـ وهو النذيرُ من أنفسهم ـ نَفَروا عنه ولم يؤمنوا به.

﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: عُتُوًّا عن الإيمان ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: مَكْرَ العملِ السيِّئ، وهو الكفرُ وخَدْعُ الضعفاء، وصدُّهم عن الإيمان ليكثُر أتباعُهم. وأنَّث «مِن إحدى الأمم» لتأنيثِ أُمَّة؛ قاله الأخفش[(٢)].

وقرأ حمزةُ والأعمش: ﴿ومكرَ السيِّئْ ولا يَحِيق المَكْرُ السيئُ﴾[(٣)] فحذف الإعرابَ من الأول وأثبته في الثاني. قال الزجَّاج: وهو لحن[(٤)]، وإنَّما صار لحناً لأنَّه حَذَفَ الإعراب منه. وزعم المبرِّدُ أنه لا يجوزُ في كلامٍ ولا في شعر؛ لأنَّ حركاتِ الإعرابِ لا يجوز حَذْفُها، لأنها دخلت للفرق بين المعاني. وقد أعْظَم بعضُ النحويين أن يكون الأعمشُ على جلالته ومحلِّه يقرأ بهذا، وقال: إنَّما كان يقف عليه، فغلط

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧ .

(٣) السبعة ص٥٣٥-٥٣٦، والتيسير ص١٨٢ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٥ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧ ، وما سيأتي هو من كلام النحاس.

مَن أدَّى[١] عنه، قال: والدليلُ على هذا أنه تمامُ الكلامِ، وأنَّ الثاني لمَّا لم يكن تمامَ الكلامِ أُعرِبَ باتِّفاق، والحركةُ في الثاني أَثْقَلُ منها في الأوّل لأنها ضمةٌ بين كسرتين. وقد احتجَّ بعض النحويين لحمزةَ في هذا بقولِ سيبويه، وأنه أنشد هو وغيرُه:

إذا اعْـوَجَـجْـنَ قـلـتُ صـاحِـبْ قَـوِّمِ[٢]

وقال الآخر:

فـالـيـومَ أشْـرَبْ غـيـرَ مُـسْـتَـحْـقِـبٍ ... إثْـمـاً مِـن الـلـهِ ولا واغِـلِ[٣]

وهذا لا حجةَ فيه؛ لأنَّ سيبويه لم يُجِزْه، وإنَّما حكاه عن بعض النحويين، والحديثُ إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجةٌ، فكيف وإنَّما جاء به على الشُّذوذِ ولضرورةِ الشعر. وقد خُولفَ فيه، وزعم الزجَّاج أنَّ أبا العباس أنشده:

إذا اعْـوَجَـجْـنَ قـلـتُ صـاحِ قَـوِّمِ

وأنه أنشد:

فـالـيـومَ فـاشْـرَبْ[٤] غـيـرَ مُـسْـتَـحْـقِـبٍ

ذَكَر جميعَه النحاس[٥].

الزمخشريُّ: وقرأ حمزةُ: «ومكر السيِّئْ» بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات [مع الياء والهمزة]، ولعله اخْتَلَسَ فظُنَّ سكوناً، أو وَقَفَ وقفةً خفيفةً ثم

(١) في (د): ادعى.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٠٣، وسلف ٢/ ١١٢، وعجزه: بالدَّوِّ أمثالَ السَّفينِ العُوَّمِ.

(٣) الكتاب ٤/ ٢٠٤، والبيت لامرئ القيس، وسلف ٢/ ١١٢، وجاء في رواية الأصمعي للديوان ص١٢٢: فاليوم أسقى. وفي رواية الطوسي ص٢٥٨: فاليوم فاشرب، وستأتي.

(٤) في النسخ: اشرب، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٨ والكلام منه، قال النحاس: فاليوم فاشرب بالفاء. اهـ. وهذا موافق لرواية الطوسي للديوان ص٢٥٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧-٣٧٨، ووقع في (د) و (م) قبل قوله ذكر جميعه النحاس: بوصل الألف على الأمر.

ابتدأ: «ولا يحِيق». وقرأ ابن مسعود: «ومَكْراً سيئاً»[١].

وقال المهدويُّ: ومَن سكَّن الهمزةَ من قوله: «ومكر السيِّئ» فهو على تقدير الوقفِ عليه، ثم أجرى الوصلَ مُجرى الوقفِ، أو على أنه أَسكن الهمزةَ لتَوالي الكَسْراتِ[٢] والياءات، كما قال:

فاليومَ أشربْ غيرَ مستحقبٍ

قال القُشَيريُّ: وقرأ حمزة: «ومكر السيِّئْ» بسكون الهمزة، وخطَّأه أقوامٌ. وقال قومٌ: لعله وقف عليه لأنه تمامُ الكلام، فغَلِطَ الراوي ورَوَى ذلك عنه في الإدراج.

وقد سبق الكلامُ في أمثالِ هذا، وقلنا: ما ثبت بالاستفاضةِ أو التواتُرِ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأه فلابدَّ من جوازِه، ولا يجوزُ أن يقال: إنه لحنٌ[٣]. ولعلَّ مُرادَ مَن صار إلى التخطئةِ أنَّ غيره أفصحُ منه، وإنْ كان هو فصيحاً.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: لا تَنْزلُ عاقبةُ الشركِ إلاَّ بمَن أَشْرَكَ. وقيل: هذا إشارةٌ إلى قتلهم ببدر.

وقال الشاعر:

وقد دفعوا المنيةَ فاستقلَّتْ ذراعاً بعد ما كانت تحيقُ[٤]

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٢٠٢ .

(٢) في (ظ): الحركات.

(٣) ينظر ص١٤٠ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ ، والبيتُ للمفضَّل النُّكْري كما في الأصمعيات ص٢٠٠ ، والمعاني الكبير ٢/ ٩٤٥ ، ومنتهى الطلب ٨/ ٢٣٩ ، ونسبه الأخفش في الاختيارين ص٢٤٥ لعامر بن معشر. وذكر السيوطي في شرح شواهد المغني ١/ ١٧١ أن المفضل هو عارم بن معشر، وإنما سمي مفضلاً لهذه القصيدة. ووقع في المصادر: وهم، بدل: وقد. ودراكاً: بدل: ذراعاً. وفي بعضها: رفعوا، بدل: دفعوا. وكادت، بدل: كانت. قال الأخفش: المنية: الحرب، ويروى: رفعوا، بالراء، أي: رفعوا الراية، وتحتها الموت. دراكاً، أي: مُدارَكة.

أي: تنزل، وهذا قولُ قُطْرُب. وقال الكلبيُّ: «يَحيق» بمعنى يُحيط[١]. والحَوْق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا، أي: أحاط به.

وعن ابن عباس أنَّ كعباً قال له: إنِّي أَجِدُ في التوراة: مَن حَفَر لأخيه حُفرةً وقع فيها. فقال ابن عباس: فإنِّي أوجِدُكَ في القرآن ذلك. قال: وأين؟ قال: فاقرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢]. وفي أمثالِ العرب: مَن حفَر لأخيه جُبًّا وقَعَ فيه مُنْكَبًّا[٣].

وروى الزُّهريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَمْكُرْ ولا تُعِنْ ماكراً؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]»[٤]. وقال بعضُ الحكماء:

يا أيها الظالمُ في فِعْلِهِ ... والظُّلْمُ مَردودٌ على مَن ظَلَمْ
إلى متى أنت وحتَّى متى ... تُحصي المُصيباتِ وتَنسى النِّعمْ[٥]

وفي الحديث: «المكرُ والخديعةُ في النار»[٦]. فقولُه: «في النار» يعني: في

(١) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣.

(٣) المستقصى ٢/ ٣٥٤، والكشاف ٣/ ٣١٢.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥)، وفيه: ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ولا تنكُث ولا تُعِنْ ناكثاً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. وهو مرسل.

(٥) البيتان لمحمود الوراق كما في الشعب للبيهقي (٤٦٣٠)، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٥٠٠، ووقع في (م): المصائب، بدل: المصيبات. وفي المصادر: تشكو، بدل: تحصي.

(٦) أخرجه ابن حبان (٥٦٧) والطبراني في الكبير (١٠٢٣٤) من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الحاكم ٤/ ٦٠٧ من حديث أنس ﷺ. وأخرجه ابن عدي ٤/ ٥٨٤ من حديث قيس بن سعد ﷺ. وأخرجه البزار (١٠٣ ـ كشف) وابن عدي ٤/ ١٦٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ وأخرجه أبو داود في المراسيل (١٦٥) عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً، وزاد: والخيانة.

الآخرة تُدخِلُ أصحابَها في النار؛ لأنَّها من أخلاق الكفَّار لا من أخلاقِ المؤمنين الأخيار؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث: «وليس من أخلاق المؤمنِ المكرُ والخديعةُ والخيانة»[١]. وفي هذا أُبلغ تحذيرٍ عن التخلُّقِ بهذه الأخلاقِ الذميمة، والخروجِ عن أخلاق الإيمان الكريمة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إنَّما ينتظرون العذابَ الذي نزل بالكفَّار الأوَّلين. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: أجْرى الله العذابَ على الكفار، وجعل[٢] ذلك سُنةً فيهم، فهو يعذِّبُ بمثله مَن استحَقَّه، لا يقدر أحدٌ أن يبدِّل ذلك، ولا أنْ يحوِّل العذابَ عن نفسه إلى غيره.

والسُّنّة: الطريقة، والجمعُ سُنَن. وقد مضى في «آل عمران»[٣]. وأضافَها إلى الله عزَّ وجلَّ، وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾ [الإسراء: ٧٧] فأضافَ إلى القوم؛ لتعلُّق الأمر بالجانبين، وهو كالأجَل، تارةً يضافُ إلى الله، وتارةً إلى القوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ﴾ [العنكبوت: ٥] وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

بيَّن السُّنَّةَ التي ذَكَرها، أي: أوَلم يَرَوْا إلى ما أنزلنا بعادٍ وثمودَ ومَدْين وأمثالِهم لمَّا كذَّبوا الرسلَ، فيتدبَّروا ذلك بنظرهم[٤] إلى مساكنهم ودُورِهم، وبما سمعوا على

---

(١) أخرجه بهذه الزيادة ابن وهب في الجامع ص٧٦ من طريق مجاهد عن النبي ﷺ مرسلاً، ولم ترد هذه الزيادة في الأحاديث التي ذكرناها في التعليق السابق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): ويجعل، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٨، والكلام منه.

(٣) ٥/ ٣٣٢.

(٤) في (د): فتدبروا ذلك بنظركم، وفي (خ) و (م): فتدبروا ذلك بنظرهم.

التواتُر بما حلَّ بهم، أفليس فيه عبرةٌ وبيانٌ لهم، ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى، دليلُه قولُه: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: إذا أراد إنزالَ عذابٍ بقومٍ لم يُعجِزْه ذلك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ يعني من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ قال ابن مسعود: يريد جميعَ الحيوانِ ممَّا دَبَّ ودَرَج. قال قتادةُ: وقد فُعل ذلك زَمنَ نوحٍ عليه السلامُ. وقال الكلبيُّ: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ يريد الجنَّ والإنسَ دونَ غيرِهما؛ لأنَّهما مُكلَّفان بالعقل[(١)].

وقال ابن جُريج[(٢)] والأخفشُ والحسين بنُ الفضل: أراد بالدابَّة هنا الناسَ وحدَهم دونَ غيرِهم.

قلت: والأوّلُ أظْهَرُ، لأنَّه عن صحابيٍّ كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَلُ أن يُعذَّب في جُحره بذنبِ ابنِ آدم[(٣)]. وقال يحيى بنُ أبي كثير: أَمَر رجلٌ بالمعروف ونَهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإنَّ الظالم لا يَضُرُّ إلا نَفْسَه. فقال أبو هريرة: كذبتَ؟ واللهِ الذي لا إلهَ إلاَّ هو، ثم قال: والذي نفسي بيده إنَّ الحُبارَى

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٧ .

(٢) ذكره عن ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩، ووقع في (م) بدلاً منه: ابن جرير، وهو تصحيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠١ ، والحاكم ٢/ ٤٢٨ وصححه. والجُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. المعجم الوسيط (جعل).

لَتموتُ هَزْلاً في وَكْرِها بظلم الظالم[١].

وقال الثُّماليُّ ويحيى بنُ سلام في هذه الآية: يحبسُ الله المطرَ، فيهلك كلّ شيء[٢].

وقد مضى في «البقرة»[٣] نحوُ هذا عن عكرمةَ ومجاهدٍ في تفسير ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ﴾ [الآية: ١٥٩]: هم الحشراتُ والبهائم يصيبهم الجَدْبُ بذنوبِ علماءِ السوءِ الكاتمين فيلعنونهم. وذكرنا هناك حديثَ البَرَاء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ﴾ قال: «دوابُّ الأرضِ».

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال مقاتل: الأجلُ المسمَّى هو ما وَعَدَهم في اللَّوح المحفوظ. وقال يحيى: هو يومُ القيامة[٤]. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بمَن يستحقُّ العقابَ منهم ﴿بَصِيرًا﴾.

ولا يجوزُ أن يكون العاملُ في «إذا» «بصيراً» كما لا يجوز: اليومَ إنَّ زيداً خارجٌ. ولكن العامل فيها «جاء»؛ لشَبَهها بحروفِ المُجازاة[٥]، والأسماءُ التي يُجازَى بها يَعملُ فيها ما بعدَها. وسيبويه لا يرى المجازاةَ بـ«إذا» إلَّا في الشعر، كما قال:

إذا قَصُرتْ أسيافُنا كان وَصْلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ[٦]

ختمت سورة «فاطر» والحمد لله

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٢٦٠ ، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦٩). والحبارى: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء. المعجم الوسيط (حبر).

(٢) ذكره بنحوه عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ . والثُّمالي: هو أبو حمزة ثابت ابن أبي صفية، وسلف ذكره ٥/ ٤٨ .

(٣) ٢/ ٤٨٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٨٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٩ .

(٦) البيت لقيس بن الخطيم، وهو في ديوانه ص٨٨ ، والكتاب ٣/ ٦٠ ، وسلف ١/ ٣٠٥ .

سُورَةُ المَلائِكَةِ[1]

مَكِّيَّةٌ وآيُها خمسٌ وأربعونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: مُبدِعُهُما، مـن الفَطْرِ بمعنى الشَّقِّ، كأنَّه شَقَّ العَدَمَ بإخراجِهما منه، والإضافَةُ محضةٌ لأنَّه بمعنى الماضي.

﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾: وسائطَ بينَ اللهِ وبينَ أنبيائِه والصَّالحينَ مِن عبادِه يبلِّغونَ إليهِم رسالاتِه بالوَحْيِ والإلهامِ والرُّؤيا الصَّادقةِ، أو: بينَه وبين خلقِه يوصلونَ إليهم آثارَ صُنعِه.

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: ذَوِي أجنِحَةٍ مُتعدِّدَةٍ مُتفاوِتَةٍ بتفاوُتِ ما لهم مِن المراتبِ ينزلونَ بها ويَعْرُجونَ، أو يسرعونَ بها نحو ما وكَّلَهُم اللهُ عليه فيتصرَّفُون فيه على ما أمرَهُم به، ولعلَّه لم يُرِدْ به خُصوصيَّةَ الأعدادِ ونفيَ ما زادَ عليها؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ رأى جبريلَ ليلةَ المعراجِ وله ستُّ مئةِ جَناحٍ[2].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «سورة فاطر».

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وليس فيه: (ليلة المعراج). ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٢٨) بلفظ: (رأيت جبريل عند سدرة المنتهى، وعليه ست مائة جناح ينثر من ريشه تهاويل الدر والياقوت).

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ للدَّلالةِ على أنَّ تَفاوُتَهُم في ذلكَ مُقتَضى مَشيئتِه ومُؤدَّى حكمتِه لا أمرٌ تَستدعيهِ ذَواتُهُم؛ لأنَّ اختلافَ الأصنافِ والأنواعِ بالخواصِّ والفُصولِ إن كانَ لذَواتِهم المشتركةِ لزمَ تنافي لوازمِ الأمورِ المتَّفِقَةِ وهو محالٌ، والآيةُ مُتناوِلَةٌ زياداتِ الصُّوَرِ والمعاني كمَلَاحةِ الوَجهِ وحُسنِ الصَّوتِ وحَصافةِ العَقلِ وسَماحةِ النَّفسِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وتخصيصُ بعضِ الأشياءِ بالتَّحصيلِ دونَ بَعضٍ إنَّما هو مِن جهَةِ الإرادةِ.

(٢) - ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾: ما يُطْلِق لَهُم ويُرسِلْ، وهو مِن تجوُّزِ السَّببِ للمُسبَّبِ.

﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾ كنعمَةٍ وأَمنٍ وصِحَّةٍ وعلمٍ ونبوَّةٍ ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا﴾ يحبِسُها ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ يُطْلِقُه، واختلافُ الضَّميرينِ لأنَّ الموصولَ الأوَّلَ مُفسَّرٌ بالرَّحمةِ والثَّاني مُطلَقٌ يتَناوُلها والغَضبَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَهُ سَبقَتْ غَضبَه[1].

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعدِ إمساكِه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالبُ على ما يشاءُ ليسَ لأحَدٍ أَنْ يُنازِعَهُ فيه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا بعِلْمٍ وإتقانٍ.

ثمَّ لَمَّا بيَّنَ أنَّه الموجِدُ للمُلكِ والمَلكوتِ والمُتصرِّفُ فيهما على الإطلاقِ أمرَ النَّاسَ بشُكرِ إنعامِه فقال:

(٣) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾: احفَظوها بمَعرفةِ حقِّها والاعترافِ بها وطاعةِ مُوليهَا، ثمَّ أنكرَ أَنْ يكونَ لغَيْرِه في ذلك مدخلٌ فيَستحقَّ أن يُشرِكَ به بقولِه:

---

(١) روى البخاري (٧٤٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «لما قضى الله الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي».

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولذلك عقَّبه[١]: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: فمِن أيِّ وَجهٍ تُصرَفونَ عن التَّوحيدِ إلى إشراكِ غيرِه به؟

ورفعُ ﴿غَيْرُ﴾ للحَملِ على محلِّ ﴿مِنْ خَٰلِقٍ﴾ بأنَّه وصفٌ أو بدلٌ فإنَّ الاستفهامَ بمعنى النَّفي، أو لأنَّه فاعلُ ﴿خَٰلِقٍ﴾[٢].

وجرَّهُ حمزَةُ والكِسائيُّ[٣] حملًا على لفظِه، وقد نُصِبَ[٤] على الاستثناءِ.

و﴿يَرْزُقُكُم﴾ صِفَـةٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ أو اسـتئنافٌ مُفسِّـرٌ لــه، أو كلامٌ مُبتـدأٌ، وعلى الأخيـرِ يكـونُ إطـلاقُ ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ﴾ مانعًـا مِـن إطلاقِـه على غيـرِ اللهِ.

(٤) ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: فتـأسَّ بهـم فـي الصَّبـرِ على تكذيبِهـم، فوضـعَ ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ مَوضِعَـه اسـتغناءً بالسَّـببِ عـن المسـبَّبِ، وتنكيرُ ﴿رُسُلٌ﴾ للتَّعظيمِ المُقتَضِي زيادةَ التَّسليَةِ والحثَّ على المُصابرةِ.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيُجازيكَ وإيَّاهُم على الصَّبرِ والتَّكذيبِ.

(٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالحشرِ والجَزاءِ ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلْفَ فـيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فيذهلَكُم التمتُّعُ بها عن طلبِ الآخرةِ والسَّعيِ لها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: الشَّيطانُ؛ بأَنْ يُمَنِّيَكُم المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصيَةِ، فإنَّها وإن أمكنَت لكنَّ الذَّنبَ بهذا التَّوقُّعِ كتَناوُلِ السُّمِّ اعتمادًا على دفعِ الطَّبيعةِ.

---

(١) «ولذلك عقبه» من نسخة الفاروقي والطبلاوي.

(٢) قوله: «أو لأنه فاعل ﴿خَٰلِقٍ﴾» عطفٌ على «للحمل»؛ أي: رفعه على أنَّهُ فاعل لخالق، وهوَ حينئذٍ مبتدأ لا خبر له. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٤) نسبت القراءة بنصب الراء للفضل بن إبراهيم النحوي، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤).

وقُرِئَ بالضَّمِّ[1] وهو مصدرٌ، أو جمعٌ كقَعُودٍ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةً عامَّةً قديمةً ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عَقائدِكُم وأفعالِكُم، وكونوا على حذرٍ منه في مَجامعِ أحوالِكُم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقريرٌ لعَداوَتِه، وبيانٌ لغرضِهِ في دَعوةِ شِيعَتِه إلى اتِّباعِ الهوى والرُّكونِ إلى الدُّنيَا.

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعيدٌ لِمَن أجابَ دُعاءَه، ووعدٌ لِمَن خالفَهُ، وقطعٌ للأماني الفارغَةِ، وبناءٌ للأمرِ كلِّه على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، وقولُه:

(٨) ـ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ تقريرٌ لَه؛ أي: فمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عملِه بأَنْ غلبَ وَهْمُه وهَواهُ على عقلِهِ حتَّى انتكسَ رأيُهُ فرَأَى الباطلَ حقًّا والقَبيحَ حَسناً كمَنْ لم يُزيَّنْ له بَلْ وُفِّقَ حتَّى عرفَ الحقَّ واستحسَنَ الأعمالَ واستَقْبَحَها على ما هي عليه، فحُذِفَ الجوابُ لدلالةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وقيل: تَقديرُهُ: أفمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عَملِه ذهبَتْ نفسُكَ عليهِم حسرةً، فحُذِفَ الجَوابُ لدَلالةِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ عليهِ، ومعناهُ: فلا تُهْلِك نفسَكَ عليهِم للحسراتِ على غيِّهِم وإصرارِهِم على التَّكذيبِ.

والفاءاتُ الثَّلاثُ للسَّببيَّةِ، غيرَ أنَّ الأُولَيَيْنِ دَخَلتَا على السَّببِ والثَّالثةَ دخلَتْ على المُسبَّبِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٦٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٤٥)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ١٥٩)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٢٩)، عن أبي السمال وأبي حيوة حيث وقع كما قال الهذلي.

وجمعُ الحَسَراتِ للدَّلالةِ على تَضاعُفِ اغتمامِه على أحوالِهم، أو كثرةِ مَساوِئِ أَفعالِهم المُقتَضِيَةِ للتَّأسُّفِ، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ ليسَ صِلةً لها؛ لأنَّ صِلةَ المَصدرِ لا تتقدَّمُه، بل صِلَةُ ﴿تَذْهَبْ﴾ أو بيانٌ للمُتحسَّرِ عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيُجازيهِمْ عليه.

(٩) ـ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿الرِّيحَ﴾[١].

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استحضارًا لتلكَ الصُّورةِ البَديعَةِ الدَّالَّةِ على كمالِ الحكمَةِ، ولأنَّ المُرادَ بيانُ إحداثِها بهذه الخاصِّيَّةِ ولذلك أسندَهُ إليها، ويجوزُ أَنْ يكونَ اختلافُ الأفعال للدلالةِ على استمرارِ الأمرِ.

﴿فسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيْتٍ﴾ وقرأَ نافِعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بتَشديدِ اليَاءِ[٢].

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: بالمطرِ النَّازلِ منه، وذكرُ السَّحابِ كذكرِه، أو: بالسَّحابِ فإنَّه سببُ السَّببِ، أو الصَّائرُ[٣] مَطَرًا ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بعدَ يبسِهَا.

والعُدولُ فيهما مِن الغَيبَةِ إلى ما هو أَدْخَلُ في الاختصاصِ؛ لِمَا فيهِمَا مِن مَزيدِ الصُّنعِ.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؛ أي: مثلُ إحياءِ المَواتِ نشورُ الأمواتِ في صِحَّةِ المقدوريَّةِ؛ إذ ليسَ بينَهُما إلا احتمالُ اختلافِ المادَّةِ في المَقيسِ عليه[٤]، وذلك لا مدخلَ له فيها[٥].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٢)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٣)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٣) بالرفع عطف على «سببُ السبب». انظر: «حاشية شيخ زاده» (٧/ ١١).

(٤) في نسخة التفتازاني: «في المقيس والمقيس عليه».

(٥) في نسخة الخيالي: «ولا مدخل لذلك فيها». وفي نسخة الطبلاوي: «وذلك لا مدخل فيها».

وقيـل: فــي كيفيَّـةِ الإحيـاءِ، فإنَّه تعالى يرسـلُ ماءً مِن تحـتِ العـرشِ يُنبِتُ منه أجسـادَ الخَلْقِ.

(١٠) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾: الشَّرَفَ والمَنَعةَ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: فليَطْلُبْها مِن عندِه فإنَّ له كلَّها[١]، فاستغْنَى بالدَّليلِ عن المدلولِ.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيانٌ لِمَا يُطلَبُ به العِزَّةُ، وهو التَّوحيدُ والعملُ الصَّالحُ، وصُعودُهُما إليه مَجازٌ عن قبولِه إيَّاهُما، أو صعودُ الكَتَبَةِ بصَحِيفَتِهما، والمستكنُّ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ للكَلِمِ، فإنَّ العملَ لا يُقبَلُ إلا بالتَّوحيدِ، ويؤيِّدُهُ أنَّه نُصِبَ (العَمل)[٢]، أو للعَملِ فإنَّه يحقِّقُ الإيمانَ ويقوِّيه، أو للهِ وتخصيصُ العملِ بهذا الشَّرَفِ لِمَا فيه مِن الكلفةِ.

وقُـرِئَ: (يُصعَـدُ) على البناءيـنِ[٣]، والمُصعِد هـو اللهُ تعالى، أو المتكلـمُ بِهِ، أو الملكُ.

وقيل: الكَلِمُ الطَّيِّبُ يتناوَلُ الذِّكرَ والدُّعاءَ وقراءةَ القُرآنِ.

وعنه عليه السَّلامُ: «هو سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ، إذا قالها العَبدُ عَرَجَ به الملكُ إلى السَّماءِ فحَيَّا بها وجهَ الرَّحمنِ، فإذا لم يَكُن عملٌ صالحٌ لَمْ يُقبَلْ»[٤].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «فإن كلها له».

(٢) أي: ويؤيده قراءة: (والعملَ الصالحَ) بالنصب، نسبت لعيسى وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣).

(٣) أي: بالفتح على البناء للمفعول، والكسر على البناء للفاعل، الأولى قراءة الضحاك كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣١)، والثانية نسبت لعلي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما والسلمي وإبراهيم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤)، و«البحر» (١٨/ ٢٣).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٥٨٩) وصححه، ورواه أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٣٨)، =

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: المَكَراتِ السَّيِّئاتِ، يعني: مَكَراتِ قريشٍ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ في دارِ النَّدوَةِ، وتدارُؤَهُم[1] الرأيَ في إحدى ثلاثٍ: حبسِه وقَتلِه وإجلائِه.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يؤبَهُ دونَه بما يمكرونَ به ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: يَفسدُ ولا يَنفذُ؛ لأنَّ الأمورَ مقدَّرةٌ لا تتغيَّرُ به كمَا دلَّ عليهِ بقولِه:

(١١) ـ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلقِ آدمَ منه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ بخلقِ ذُرِّيَّتِه مِنْها ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾: ذُكرانًا وإناثًا.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا معلومةً له.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾: وما يمدُّ في عمره مِن مَصيرِه إلى الكبرِ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ مِن عمرِ المُعمَّرِ لغيرِه بأَن يُعطَى له عمرٌ ناقصٌ مِن عمرِه.

أو: لا ينقـصُ مِـن عمـرِ المنقـوصِ عمـرُهُ بجعلِـه ناقصًـا، والضَّميرُ لـه وإن لم يُذكَـر لدَلالـةِ مُقابلِه عليـه، أو للمُعمَّرِ على التَّسـامُحِ فيه ثقـةً بفَهمِ السَّـامعِ كقولِهم: (لا يثيـبُ اللهُ عبـدًا ولا يعاقِبُـه إلا بحقٍّ)[2].

= والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١٤٤)، ومن طريق الحاكمِ البيهقيُّ في «الشعب» (٦٢٥)، عن ابن مسعود قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، الحمد لله، لا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحيه ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيِّي بهن وجه الرحمن، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

(١) في نسخة الخيالي: «وتداورهم»، وعليها شرح الخفاجي والقونوي، قال الخفاجي: والتداور تفاعل بمعنى الإدارَة للرَّأيِ فيما بينهم والمحاورَة فيه. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (١٦/ ٢٩)، والمثبت أيضًا صحيح؛ لأن التدارؤ هو التدافع والتخاصم، ويكون دفعُ كلٍّ منهم رأي الآخر والافهم في ذلك تدارؤًا.

(٢) قوله: «لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحقٍّ» ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ١٥٩)، وتعقبه =

وقيل: الزِّيادَةُ والنُّقصانُ في عمرٍ واحدٍ باعتبارِ أسبابٍ مُختَلِفَةٍ أثبتَتْ في اللوحِ، مثل أَنْ يكونَ فيه: إن حجَّ عمرٌو فعمرُه ستُّونَ سنةً وإلا فأربعونَ(١).

وقيل: المرادُ بالنُّقصانِ ما يمرُّ من عمرِه وينتقِصُ، فإنَّه يكتبُ في صحيفةِ عمرِه يومًا فيومًا.

وعَن يَعقوبَ: ﴿وَلا يَنْقُصُ﴾ على بناءِ الفَاعِلِ(٢).

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ هو عِلْمُ اللهِ، أو اللوحُ، أو الصَّحيفةُ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى الحفظِ أو الزِّيادَةِ والنَّقص.

(١٢) - ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضَـرْبُ مثلٍ للمُؤمنِ والكافرِ.

والفراتُ: الذي يَكسرُ العطشَ.

والسَّائغُ: الذي يَسْهُلُ انحدارُهُ.

= الطيبي في «فتوح الغيب» (١٢/ ٦٢١) قال: فيه اعتزالٌ خفيٌّ، وذلك أنَّ مذهبهم أن استحقاق العقاب بالكبيرة يحبط استحقاق الثواب بالطاعة، فعلى هذا لا يجتمع الثواب والعقاب في شخص واحد، وأما أهل السّنة فلا يبعد ذلك لأن أهل النار من العاصين لا يخلدون فيها.

قلت: ومعنى الآية على هذا الوجه بغض النظر عن دسيسة الزمخشري: ولا يُطوَّلُ عُمُرُ أحدٍ ولا يُنقَصُ من عُمرِ أحدٍ آخر. وأولُ من وقفتُ عليه في ذكر هذا المعنى في الآية هو الفراء، قال في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٨): قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يقول: ما يُطَوَّل من عمرٍ ولا يُنْقَصُ من عمره، يريدُ آخَرَ غيرَ الأول، ثُمَّ كُني عنه بالهاء كأنه الأول، ومثله في الكلام: (عندي درهم ونصفه) يعني: ونصف آخر. فجازَ أن يكنى عنه بالهاء لأن لفظ الثاني قد يظهر كلفظ الأول، فكني عنه ككناية الأوّل.

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «فالأربعون».

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات» لابن مهران (ص: ٣٦٦).

والأُجَاجُ: الذي يحرقُ بمُلوحَتِه.

وقُرِئَ: (سَيِّغٌ) بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[1]، و: (مَلِحٌ) على فَعِلٍ[2].

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استطرادٌ في صفَةِ البَحْرينِ وما فيهِما مِن النِّعَمِ، أو تمامُ التَّمثيلِ، والمعنى: كما أَنَّهُما وإن اشتركَا في بعضِ الفَوائدِ لا يَتساوَيانِ مِن حيثُ إنَّهُما لا يَتساوَيانِ فيمَا هو المَقصودُ بالذَّاتِ مِن الماءِ، فإنَّه خالطَ أحدَهُما ما أفسدَهُ وغيَّرَه عن كَمالِ فِطرَتِه، لا يَتساوى المؤمنُ والكافرُ وإن اتَّفَق اشتِراكُهُما في بعضِ الصِّفَاتِ كالشَّجاعَةِ والسَّخاوَةِ؛ لاختلافِهِما فيما هو الخاصيَّةُ العُظمى وبقاءِ أحدِهِما على الفِطرةِ الأَصْليَّةِ دونَ الآخرِ.

أو تفضيلٌ[3] للأجاجِ على الكافرِ بما يشاركُ فيه العذبَ من المنافعِ.

والمرادُ بالحِليَةِ: اللآلئُ واليَواقيتُ.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾؛ أي: في كلٍّ ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشقُّ الماءَ بجَرْيِهَا.

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: مِن فضلِ اللهِ بالنُّقْلةِ فيها، واللامُ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، ويجوزُ أَنْ تَتعلَّقَ بما دلَّ عليه الأفعالُ المذكورةُ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك، وحرفُ التَّرجِّي باعتبارِ ما يقتضيهِ ظاهرُ الحالِ.

(١٣) ـ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هي مُدَّةُ دَورِه، أو مُنتهاهُ، أو يومُ القيامَةِ.

---

(١) قراءة التشديد عن عيسى، كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٩)، وقراءة التخفيف ذكرها في «المحتسب» (٢/ ١٩٨) عن عيسى أيضاً.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٩) عن طلحة بن مصرف.

(٣) عطف على «استطراد». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٢٨).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الإشارةُ إلى الفاعلِ لهذه الأشياءِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ فاعِليّتَه لها موجبةٌ لثُبوتِ الأخبارِ المُترادِفَةِ.

ويحتملُ أن يكونَ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ كـلامًـا مبتدأً في قِرانِ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ للدلالةِ على تفرُّدِه بالألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، والقِطْميرُ: لفافةُ النَّواةِ.

(١٤) ـ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنَّهـم جَمـادٌ ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ﴾ على سـبيلِ الفَـرْضِ ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ لعـدمِ قُدرَتِهـم علـى الإنفـاعِ، أو لتبرُّئِهـم منكُـمْ مما تَدَّعـونَ لهم.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: بإشراكِكُم لهم؛ يقرُّونَ ببُطلانِه، أو يقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: ولا يخبرُكَ بالأمرِ مُخبِرٌ مثلُ خبيرٍ به أخبركَ، وهو اللهُ سُبحانَهُ، فإنَّه الخبيرُ به على الحقيقَةِ دونَ سائرِ المُخبِرينَ، والمرادُ: تَحقيقُ ما أخبرَ به مِن حالِ آلهَتِهم، ونفيُ ما يدَّعونَ لَهُم.

(١٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فـي أنفُـسِكُم ومـا يَـعِنُّ لَـكُم، وتعـريفُ ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ للمُبالغَةِ في فَقرِهم، كأنَّهُم لشدَّةِ افتقارِهم وكثرةِ احتياجِهم هم الفُقَراءُ، وأنَّ افتقارَ سائرِ الخَلائقِ بالإضافَةِ إلى فقرِهم غيرُ معتدٍّ به، ولذلك قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: المُستغني على الإطلاقِ، المنعِمُ على سائرِ الموجوداتِ حتى استحَقَّ عليه الحمد.

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: بقومٍ آخرينَ[1] أطوعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرِ ما تعرفونَه ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمُتعذِّرٍ أو مُتعسِّرٍ.

(١٨) ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفسٍ أُخرى، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ففي الضَّالِّينَ المُضلِّينَ، فإنَّهُم يحملونَ أثقالَ إِضلالِهِم مع أثقالِ ضَلالِهِم، وكلُّ ذلك أوزارُهم ليسَ فيها شيءٌ مِن أوزارِ غيرِهِم.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾: نفسٌ أثقلَها الأوزارُ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ بحَمْلِ بعضِ أوزارِها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾: لم تُجَبْ بحَملِ شَيءٍ منه. نَفَى أن يُحمَلَ عنها ذنبُها كما نَفَى أن يُحْمَلَ عليها ذنبُ غيرِها.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ولو كانَ المدعوُّ ذا قرابتِها، فأُضمرَ (المدعوُّ) لدلالةِ ﴿إِنْ تَدْعُ﴾ عليه.

وقُرِئَ: (ذو قُرْبى)[2] على حذفِ الخبرِ، وهو أَوْلَى مِن جعلِ (كانَ) التامَّةَ؛ فإنَّها لا تُلائِمُ نظمَ الكَلامِ.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: غائبينَ عن عذابِه، أو عن النَّاسِ في خَلَواتِهم، أو غائبًا عَنهُم عذابُه.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنَّهُم المنتفِعونَ بالإنذارِ لا غير، واختلافُ الفعلينِ لِمَا مرَّ.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾: ومَن تَطهَّرَ عن دنسِ المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعُهُ لها، وقُرِئَ: (ومَن ازَّكى فإنَّما يزَّكَّى)[3].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «آخر»!.

(٢) دون نسبة في «الكشاف» (٧/ ٢٠٢)، و«البحر» (١٨/ ٣٤)، وأجازها نحواً لا قراءة: الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٨).

(٣) نسبت لطلحة بن مصرف في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٥)، و«البحر» (١٨/ ٣٥)، وفي «المختصر =

وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لخَشيَتِهِم وإقامَتِهم الصَّلاةَ لأنَّهُما من جملةِ التَّزكِّي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيُجاريهِم على تَزكِّيهِم.

(١٩) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: الكافرُ والمؤمنُ، وقيل: هما مَثَلانِ للصَّنَمِ وللهِ عزَّ وجلَّ.

(٢٠) ـ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾: ولا الباطلُ ولا الحقُّ[1].

(٢١) ـ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾: ولا الثَّوابُ ولا العقابُ[2].

و(لا) لتأكيدِ نَفْيِ الاستواءِ، وتكريرُهَا على الشِّقَّيْنِ لمزيدِ التَّأكيدِ.

والحَرُورُ: فَعُولٌ مِن الحرِّ غلبَ على السَّمُومِ.

وقيل: السَّمُومُ ما يهبُّ نهارًا، والحَرُورُ ما يهبُّ لَيْلًا.

(٢٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيلٌ آخرُ للمُؤمنينَ والكافرينَ أبلغُ مِن الأوَّلِ، ولذلك كرَّرَ الفعلَ، وقيل: للعُلماءِ والجُهَلاءِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَهُ، فيوفِّقُه لفهمِ آياتِه والاتِّعاظِ بعظاتِه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ ترشيحٌ لتَمثيلِ المصرِّينِ على الكفرِ بالأمواتِ، ومُبالغةٌ في إقناطِه عَنْهُم.

(٢٣) ـ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليكَ إلَّا الإنذارُ، وأمَّا الإسماعُ فلا إليكَ، ولا حيلةَ لك إليه في المطبوعِ على قُلوبِهم.

(٢٤) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: مُحقِّينَ، أو: مُحِقًّا، أو: إرسالًا مصحوبًا بالحقِّ، ويجوزُ أَنْ يكونَ صِلةً لقولِه: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: بشيرًا بالوعدِ الحقِّ ونذيرًا بالوعيدِ الحقِّ.

= في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) عن أبي عمرو في رواية: «ومن يزكى فإنما يزكى».

(١) في نسخة الفاروقي: «ولا الباطل والحق».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «ولا الثواب والعقاب».

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾: أهلِ عَصْرٍ ﴿إِلَّا خَلَا﴾: مَضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ مِن نبيٍّ أو عالمٍ ينذِرُ عنه، والاكتفاءُ بذكرِه[1] للعلمِ بأنَّ النِّذارةَ قرينةُ البِشارةِ، سيَّمَا وقد قُرِنَ به من قبلُ، ولأنَّ الإنذارَ هو المقصودُ الأهم مِن البعثَةِ.

(٢٥) - ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمُعجزاتِ الشَّاهدَةِ على نبوَّتِهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: كصُحُفِ إبراهيمَ ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتَّوراةِ والإنجيلِ على إرادةِ التَّفصيلِ دونَ الجمعِ، ويجوزُ أَنْ يرادَ بهما واحدٌ، والعطفُ لتغايُرِ الوَصْفَينِ.

(٢٦) - ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: إنكاري بالعُقوبَةِ.

(٢٧) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾: أجناسُها وأصنافُها على أنَّ كُلًّا مِنها ذو[2] أصنافٍ مُختَلِفَةٍ، أو: هيئاتُها مِن الصُّفرَةِ والخُضرةِ ونحوِهما.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾؛ أي: ذو جُدَدٍ؛ أي: خُطَطٍ وطرائقَ، يقال: (جُدَّةُ الحمارِ) للخطَّةِ السَّوداءِ على ظهرِه.

وقُرِئَ: (جُدُدٌ) بالضمِّ[3] جمعُ جَديدَةٍ[4] بمعنى الجُدَد[5]، و: (جَدَدٌ) بفتحتينِ[6]، وهو الطَّريقُ الواضِحُ.

---

(١) أي: بذكر النذير وعدم اقترانه بالبشير.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «لها».

(٣) وهي قراءة الزهري كما في «المحتسب» (٢/ ١٩٩).

(٤) في «المحتسب» (٢/ ٢٠٠): جمع جديد؛ أي: آثار جدد غير مخلقة، فهو أصح لها، وأوضح للونها.

(٥) قوله: «بمعنى الجُدَد»؛ أي: بضم ففتح، أشار به إلى أنها بمعنى الأولى، وتجمع على جدائد أيضاً. انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة الخيالي والفاروقي والطبلاوي: «بمعنى الجِدَّة».

(٦) وهي قراءة الزهري أيضاً فيما رواه سهل عن الوقاصي عنه كما في «المحتسب» (٢/ ١٩٩)، وقال أبو حاتم، وقطرب: لا قراءة فيه غير جُدَد.

﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشـدَّةِ والضَّـعـفِ ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على ﴿بِيضٌ﴾ أو على ﴿جُدَدٌ﴾ كأنَّه قيل: ومِن الجبالِ ذو جددٍ مختلفةِ اللونِ ومنها غرابيبُ مُتَّحِدَةُ اللونِ، وهو تأكيدُ مُضمَرٍ يُفَسِّرُهُ ما بعده، فإنَّ الغِرْبيبَ تَأكيدٌ للأَسْوَدِ ومِن حَقِّ التَّأكيدِ أَن يَتْبعَ المؤكَّدَ، ونظيرُ ذلك في الصِّفَةِ قولُ النَّابِغَةِ:

والمـؤمِـنِ العـائـذاتِ الطَّـيرَ........ ....[1]

وفي مثلِه مَزيدُ تأكيدٍ؛ لِمَا فيه مِن التَّكريرِ باعتبارِ الإضمارِ والإظهارِ.

(٢٨) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ كاختلافِ الثِّمارِ والجبالِ.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ إذ شرطُ الخَشيَةِ مَعـرِفَةُ المَخْشِيِّ والعِلمُ بصِفَاتِه وأَفعالِه، فمَن كانَ أَعْلَمَ به كانَ أَخْشَى منه، ولذلك قال عليهِ السَّلامُ: «إني أَخشاكُمْ للهِ وأَتْقَاكُم لَه»[2]، ولهذا أتبعَه ذكرَ أفعالِه الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرَتِه.

وتقديمُ المَفعولِ لأنَّ المقصودَ حَصْرُ الفاعليَّةِ، ولو أُخِّرَ انعكسَ الأمرُ.

وقُرِئَ برفعِ اسمِ اللهِ ونصبِ ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3] على أنَّ الخشيةَ مُستعارَةٌ للتَّعظيمِ، فإنَّ المُعظَّمَ يكونُ مَهيبًا.

---

(١) انظر: «ديوان النابغة» (ص: ٣٦)، وتمامه:

.... تَمْسَـحُهَا رُكْبَانُ مَكَّـةَ بيـنَ الغَيْـلِ وَالسَّـعَدِ

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»، ورواه مسلم (١١٠٨) من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما بلفظ: «أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٠٥)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٤). قال الثعلبي: والقراءة الصحيحة ما عليه العامة. =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليلٌ لوُجوبِ الخشيةِ لدلالتِه على أنَّه مُعاقِبٌ للمُصِرِّ على طُغيانِه غفورٌ للتَّائبِ عن عِصيانِه.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾: يُداوِمُونَ قراءتَهُ أو متابعةَ ما فيهِ حتَّى صارَت سِمَةً لَهُم وعنوانًا، والمرادُ بـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ القرآنُ، أو: جنسُ كُتُبِ اللهِ، فيكونُ ثناءً على المصدِّقينَ مِن الأُمَمِ بعدَ اقتِصاصِ حالِ المكذِّبينَ.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيفَ اتَّفَقَ مِن غيرِ قصدٍ إليهِمَا.

وقيل: السرُّ في المسنونَةِ، والعَلانيَةُ في المفروضَةِ.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً ﴾: تحصيلَ ثَوابٍ بالطَّاعةِ ـ وهو خبرُ ﴿ إِنَّ ﴾ ـ ﴿لَّن تَبُورَ ﴾: لن تكسدَ ولن تهلكَ بالخُسرانِ، صِفَةٌ للتِّجارَةِ، وقوله: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ عِلَّةٌ لمدلولِه؛ أي: يَنتَفِي عنها الكسادُ وتَنْفُقُ عندَ اللهِ ليوفيَهُم بنَفَاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ مِن أَفعالِهم نحو: فَعَلوا ذلك ليوفِّيَهُم، أو عاقبةٌ[1] لـ﴿يَرْجُونَ ﴾.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ على ما يقابلُ أعمالَهُم ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لفَرَطاتِهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتِهم؛ أي: مُجازيهِمْ عليها، وهو عِلَّةٌ للتَّوفِيَةِ والزِّيادَةِ، أو خبرُ ﴿ إِنَّ ﴾، و﴿يَرْجُونَ ﴾ حالٌ مِن واوِ ﴿وَأَنفَقُواْ ﴾.

= وقد طعن ابن الجزري في هذه القراءة في «النشر» (١/ ١٦) فقال ما معناه: ومثال ما نقله غير ثقة كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف، ومنه القراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي، ومنها: (إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ) برفع الله ونصب العلماء، وقد راجَ ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكَلَّف توجيهها، وإنَّ أبا حنيفةَ لبريءٌ منها، وقد كتب الدارقطني وجماعة بأن هذا الكتاب موضوع لا أصل له.

(١) قوله: «أو عاقبة» عطفٌ على «علة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٣٤).

(٣١) ـ ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن، و﴿مِنَ﴾ للتَّبيينِ، أو الجنسِ و﴿مِنَ﴾ للتَّبعيضِ، ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أَحُقُّهُ[1] مُصدِّقًا لِمَا تقدَّمَه مِن الكتبِ السَّماويَّةِ، حالٌ مُؤكِّدةٌ لأنَّ حقيَّتَهُ تستلزمُ مُوافقتَهُ إيَّاهُ في العَقائدِ وأُصولِ الأحكامِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ عالمٌ بالبَواطنِ والظَّواهرِ، فلو كان في أحوالِكَ ما يُنافي النُّبوَّةَ لم يُوحِ إليك مثلَ هذا الكتابِ المعجزِ الذي هو عِيَارٌ على سائرِ الكتبِ، وتقديمُ (الخبير) للدَّلالةِ على أنَّ العُمدةَ في ذلك الأمورُ الروحانيَّةُ.

(٣٢) ـ ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾: حَكَمْنا بتَوريثِه منك، أو: نورثُه، فعبَّرَ عنه بالماضي لتَحقُّقِه، أو: ورَّثْناهُ مِن الأُمَمِ السَّالفَةِ، والعطفُ على ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾، و﴿ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ اعتراضٌ لبيانِ كيفيَّةِ التَّوريثِ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ يعني: علماءَ الأُمَّةِ مِن الصَّحابةِ ومَن بعدَهُم، أو الأمَّةَ بأسرِهم فإنَّ اللهَ اصطفاهُم على سائرِ الأُمَمِ.

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالتَّقصيرِ في العملِ به ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ يعمَلُ به في أغلبِ الأوقاتِ[2] ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بضمِّ[3] التَّعليمِ والإرشادِ إلى العملِ.

وقيل: الظَّالمُ: الجاهِلُ، والمُقتَصِدُ: المُتعَلِّمُ، والسَّابِقُ: العالِمُ[4].

---

(١) قوله: «أَحُقُّه»؛ أي: أُحقِّقه أو أجعله حقًّا، فالعامل فيه مقدر يفهم من مضمون الجملة. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «في أغلب الأمر».

(٣) في نسخة الفاروقي: «يضم».

(٤) رواه التستري في «تفسيره» (ص: ١٢٩) عن سهل.

وقيل: الظَّالِمُ: المُجْرِمُ، والمُقتَصِدُ: الذي خلطَ الصَّالحَ بالسَّيِّئِ، والسَّابقُ: الذي ترجَّحَتْ حَسناتُه بحيثُ صارَتْ سَيِّئاتُه مُكفَّرَةً[1]، وهو مَعنى قولِه عليهِ السَّلامُ: «أمَّا الذين سبقُوا فأولئكَ يَدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ، وأمَّا الذين اقتَصدُوا فأولئكَ يحاسَبونَ حِسابًا يسيرًا، وأمَّا الذينَ ظلمُوا أنفُسَهُم فأولئكَ يُحبسون في طولِ المحشرِ ثمَّ يَتلقَّاهُم اللهُ برَحمَتِه»[2].

وقيل: الظالمُ: الكافرُ، على أنَّ الضَّميرَ للعبادِ، وتقديمُهُ لكثرةِ الظَّالِمينَ، ولأنَّ الظُّلمَ بمعنى الجهلِ والرُّكونِ إلى الهوى مُقتضَى الجبلَّةِ، والاقتصادُ والسَّبقُ عارِضانِ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إلى التَّوريثِ، أو الاصطفاءِ، أو السَّبقِ.

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، والضَّميرُ للثَّلاثةِ، أو لـ﴿الَّذينَ﴾، أو للمُقتصدِ والسَّابقِ فإنَّ المرادَ بهما الجنسُ.

وقُرِئَ: (جَنَّةُ عَدْنٍ) و: (جَنَّاتِ) منصوبةً[3] بفعلٍ يُفسِّرُه الظَّاهرُ.

وقرأَ أبو عمرٍو: ﴿يُدْخَلُونَها﴾ على بناءِ المَفعولِ[4].

---

(١) ذكره التستري في «تفسيره» (ص: ١٢٩) عن الحسن البصري.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٧٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٥)، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٩٢)، وعنه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه. قال الحاكم وعنه البيهقي: وقد اختلفت الروايات في إسناد هذا الحديث... وإذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) الأولى عن الزهري والثانية عن الجحدري.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مُقدرةٌ. وقُرِئَ: (يَحْلَوْنَ)[١] مِن حَلِيَت المَرأَةُ فهي حالٍ[٢].

﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى للتَّبعيضِ والثَّانيةُ للتَّبيينِ.

﴿ولؤلؤٍ﴾ عطفٌ على ﴿ذَهَبٍ﴾؛ أي: مِن ذَهَبٍ مُرَصَّعٍ باللؤلؤِ، أو من ذهبٍ في صَفاءِ اللؤلؤِ، ونصبَهُ نافعٌ وعاصمٌ[٣] عطفًا على محلِّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾: همَّهُم مِن خوفِ العاقبةِ، أو همَّهُم مِن أجلِ المعاشِ وآفاتِه، أو مِن وسوسةِ إبليسَ[٤] وغيرِها.

وقُرِئَ: (الحُزْنَ)[٥].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمُذنبينَ ﴿شَكُورٌ﴾ للمُطيعينَ.

(٣٥) - ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾: دارَ الإقامةِ ﴿مِن فَضْلِهِ﴾: مِن إنعامِه وتَفضُّلِه؛ إذ لا واجبَ عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾: تعبٌ، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: كَلالٌ؛ إذ لا تكليفَ فيها ولا كَدَّ، أَتْبَعَ نفيَ النَّصَبِ نفيَ ما يَتبعُهُ مُبالغَةً.

(٣٦) - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾: لا يُحكَمُ عليهِم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُوا﴾: فيستريحوا[٦]، ونصبُه بإضمارِ (أنْ).

---

(١) ذكرها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٧٧) عن ابن عباس في الآية (٢٣) من سورة الحج.

(٢) كتب فوقها في نسخة الفاروقي: «كقاض».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤ - ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٤) في نسخة التفتازاني: «الشيطان».

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) عن جناح بن حبيش.

(٦) في نسخة الفاروقي: «ويستريحوا».

وقُـرِئَ: (فيَمُوتـونَ)[١] عطفًـا علـى ﴿يُقْضَىٰ﴾ كقولـه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلَّما خَبَتْ زيدَ إسعارُهَا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الجزاءِ ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ مُبالِغٍ في الكُفْرِ أو الكُفْرانِ.

وقـرأ أبو عمرٍو: ﴿يُجْـزَى﴾[٢] على بناءِ المفعولِ وإسـنادِهِ إلـى ﴿كُلَّ﴾، وقُرِئَ: (يُجَازَى)[٣].

(٣٧) ـ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾: يستغيثونَ، يَفْتَعِلُونَ مِن الصُّرَاخِ وهو الصِّيَاحُ، استعمِلَ في الاستغاثَةِ لجهدِ[٤] المُستغيثِ صوتَه.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمارِ القولِ وتقييدِ العملِ الصَّالحِ بالوصفِ المذكورِ للتَّحسُّرِ على ما عَمِلُوهُ مِن غيرِ الصَّالحِ، والاعترافِ به، والإشعارِ بأنَّ استخراجَهُم لتَلافيهِ، وأنَّهم كانوا يحسبونَ أنَّه صالحٌ والآنَ تحقَّقَ لَهُم خِلافُه.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ جـوابٌ مِـن اللهِ وتَوبيخٌ لهـم، و﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ متنـاوِلٌ كلَّ عُمـرٍ تمكَّـنَ المكلَّـفِ فيـه مـن التَّفكُّـرِ والتَّذكُّرِ.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٠١) عن الحسن.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٣) ذكرها دون نسبة الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٤٩)، وعليها وعلى التي قبلها (كلُّ) بالرفع.

(٤) قوله: «يستعمل في الاستغاثة» فيقال: صريخ، للمستغيث لأنه يصيح غالباً، وقوله: «لجهد» بالدال المهملة لا بالراء كما في بعضها، أي: يجهد ويبالغ في مد صوته ويبذل جهده فيه. انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة الفاروقة: «لجهر»، وكتب فوقها كالمثبت نسخة.

وقيل: ما بين العشرينَ إلى السِّتِّينَ، وعنه عليه السَّلامُ: «العمرُ الذي أعذرَ اللهُ فيه إلى ابنِ آدمَ سِتُّونَ سَنةً»[1].

والعطفُ على مَعنى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ فإنَّه للتَّقريرِ؛ كأنَّه قيل: عمَّرْناكُم وجاءَكُم النَّذيرُ وهو النَّبيُّ أو الكتابُ، وقيل: العقلُ أو الشَّيبُ أو موتُ الأقاربِ.

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفعُ العذابَ عنهُم.

(٣٨) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يَخفَى عليه خافيَةٌ فلا يخفَى عليهِ أحوالُهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ له، لأنَّه إذا علِمَ مُضمَراتِ الصُّدورِ وهي أخفَى ما يكونُ؛ كان أعلمَ بغَيْرِها.

(٣٩) - ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: مُلْقًى إليكُم مقاليدُ التَّصرُّفِ فيها، وقيل: خَلَفًا بعدَ خَلَفٍ، جمع خليفَةٍ، والخلفاءُ: جمعُ خَلِيفٍ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: جزاءُ كُفرِه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيانٌ له، والتَّكريرُ[2] للدَّلالةِ على أنَّ اقتضاءَ الكُفرِ لكلِّ واحدٍ مِن الأمرينِ مستقلٌّ باقتضاءِ قُبحِهِ ووُجوبِ التَّجنُّبِ عنه، والمرادُ بالمَقتِ وهو أشدُّ البُغْضِ: مقتُ اللهِ، وبالخسارِ: خَسارُ الآخرةِ.

(٤٠) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: آلهتَهُم، والإضافةُ إليهم لأنَّهُم جَعَلُوهُم شركاءَ للهِ، أو لأنفُسِهم فيما يَملِكُونَه.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٨٥٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأصله في البخاري (٦٤١٩) بلفظ: (أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة).

(٢) قوله: «والتكرير»؛ أي: تكرير ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بدلَ الاشتمالِ؛ لأنَّه بمعنى: أَخبِرُوني، كأنَّه قال: أخبِرُوني عن هؤلاءِ الشُّركاءِ، أَرُوني أيَّ جزءٍ مِن الأرضِ استبَدُّوا بخَلْقِه ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أَمْ لهم شِرْكةٌ معَ اللهِ في خلقِ السَّماواتِ فاستحقُّوا بذلك شِركةً في الألوهيَّةِ ذاتيَّةً.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطقُ على أنَّا اتَّخَذْناهم شُركاءَ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾: على حُجَّةٍ من ذلك الكتابِ بأنَّ لَهُم شركةً جعليَّةً، ويجوزُ أَنْ يكونَ (هم) للمُشركينَ كقولِه: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥].

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكرٍ والكِسائيُّ: ﴿على بيِّناتٍ﴾[١] فيكونُ إيماءً إلى أنَّ الشِّركَ خَطيرٌ لا بدَّ فيهِ مِن تَعاضُدِ الدَّلائلِ.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لَمَّا نفى أنواعَ الحُجَجِ في ذلك أضربَ عنه بذكرِ ما حملَهُم عليه، وهو تَغريرُ الأسلافِ الأخلافَ[٢]، أو الرُّؤساءِ الأتباعَ، بأنَّهُم شُفَعاءُ عندَ اللهِ يَشفَعُونَ لَهُم بالتَّقرُّبِ إليهِم.

(٤١) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ كراهَةَ أَنْ تَزُولَا، فإنَّ المُمْكِنَ حالَ بقائِه لا بُدَّ لَه مِن حافظٍ، أو: يمنعُهُما أن تَزُولَا لأنَّ الإمساكَ منعٌ.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾: ما أمسكَهُما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: مِن بَعدِ اللهِ، أو: مِن بَعدِ الزَّوالِ، والجملةُ سادَّةٌ مَسَدَّ الجَوابينِ و﴿مِنْ﴾ الأولى زائدةٌ والثَّانيةُ للابتداءِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيثُ أمسَكَهُما وكانتَا جَدِيرتينِ بأن تُهَدَّا هَدًّا كما قال: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥)، «المبسوط» لابن مهران (ص: ٦٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٢) في نسخة الفاروقي: «الأخلاف» «الأجلاف» في كلمة واحدة وعليها (معا).

(٤٢) ـ ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ وذلك أنَّ قُرَيْشًا لَمَّا بَلغَهُم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبُوا رُسُلَهُم قالوا: لعنَ اللهُ اليَهودَ والنَّصارَى لو أتانا رَسولٌ لنكونَنَّ أهدى مِن إحدى الأُمَمِ؛ أي: مِن واحدةٍ مِن الأُمم: اليهودِ والنَّصارى وغيرِهِم، أو: مِن الأُمَّةِ التي يقالُ فيهَا: (هي إحدى الأممِ) تَفضيلًا لها على غيرِها في الهُدَى والاستقامةِ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني: مُحمَّدًا عليه السَّلامُ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾؛ أي: النَّذيرُ، أو: مجيئه على التَّسبُّبِ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾: تَباعُدًا عن الحقِّ.

(٤٣) ـ ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ مِن ﴿نُفُورًا﴾ أو مفعولٌ له ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أصلُه: وأنْ مَكَروا المكرَ السَّيِّئ، فحُذِفَ الموصوفُ استغناءً بوَصفِهِ، ثمَّ بدِّلَ (أنْ) مع الفعلِ بالمصدَرِ، ثمَّ أُضيفَ.

وقرأَ حمزةُ وحدَهُ بسكونِ الهمزةِ في الوَصلِ[١].

﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: ولا يحيطُ ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكرُ، وقد حاقَ بهم يومَ بَدرٍ.

وقُرِئَ: (وَلَا يُحِيقُ المَكْرَ السَّيِّئَ)[٢] أي: وَلَا يُحيقُ اللهُ.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾: ينتظرونَ ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: سُنَّةَ اللهِ فيهِمْ بتَعذيبِ[٣] مُكَذِّبِيهِم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥).

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٢٩)، و«البحر» (١٨/ ٦٨) دون نسبة.

(٣) في نسخة الفاروقي: «بتكذيب»، وفي الهامش: «في نسخة: بتعذيب».

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ إذ لا يبدِّلُها بجعلِه غيرَ التَّعذيبِ تَعذيبًا[1]، ولا يحوِّلُها بأن ينقلَهُ من المكذِّبينَ إلى غيرِهم، وقوله:

(٤٤) ـ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ استشهادٌ عليه بما يُشاهِدُونَه في مَسايرِهم إلى الشَّامِ واليمنِ والعراقِ مِن آثارِ الماضينَ.

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ ليسبقَهُ ويَفوتَه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا﴾ بالأشياءِ كُلِّها ﴿قَدِيرٗا﴾ عليها.

(٤٥) ـ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن المَعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾: ظهرِ الأرضِ ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾: مِن نسمةٍ تَدِبُّ عليها بشؤمِ مَعاصيهِم.

وقيل: المرادُ بالدَّابَّةِ الإنسُ وحدَه، لقولِه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو يومُ القِيامَةِ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ فيُجازيهم على أعمالِهم.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ الملائكَةِ دعَتْهُ ثمانيةُ أبوابِ الجنَّةِ: أنِ ادخُلْ مِن أيِّ بابٍ شِئتَ»[2].

***

---

(١) «تعذيباً» من نسخة الطبلاوي.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/١٤٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٣٥) سورة فاطر مكية
وآياتها خمس وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها، وقال ابن عباس: ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾: أي بديع السماوات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض: فهو خالق السماوات والأرض، وقوله تعالى: ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي بينه وبين أنبيائه، ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام (ليلة الإسراء) وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء، وقال الزهري: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ يعني حسن الصوت[1]

﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (٢)

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، روي أن رسول الله ﷺ، كان يقول إذا انصرف من الصلاة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[2]، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: « سمع الله لمن

---

(١) رواه البخاري في الأدب، وقرىء في الشاذ (يزيد في الحلق) بالحاء المهملة .

(٢) أخرجاه في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة .

حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ ولها نظائر كثيرة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده، في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟ والله أعلم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: وإن يكذبوك يا محمد – هؤلاء المشركون بالله – ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات، وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ أي المعاد كائن لا محالة، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي العيشة الدنيئة، بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، أي لا يفتننكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب أفاك، وهذه كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾، وقال زيد بن أسلم: هو الشيطان، كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة ﴿وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ ثم بيَّن تعالى عداوة إبليس لابن آدم، فقال: ﴿إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوًّا﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه، وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، وهذه كقوله تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بدلا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ

سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لما كان منهم من ذنب ﴿وأجر كبير﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ يعني كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي فمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بقدره كان ذلك، ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾[1]، روى ابن أبي حاتم عند هذه الآية عن عبد الله بن الديلمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل. فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله عزّ وجلّ».

وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها، ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾، كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبَ الذنب، منه خلق ومنه يركب»، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك النشور﴾. وتقدم في الحج حديث أبي رزين، قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: «يا أبا رزين أما مررت بوادي

(١) في اللباب: أخرج جويبر: نزلت ﴿أفمن زين﴾ حين قال النبي ﷺ اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل فهدى الله عمر وأضل أبا جهل.

قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً» قلت: بلى، قال ﷺ: «فكذلك يحيي الله الموتى»، وقوله تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ قال مجاهد: ﴿من كان يريد العزة﴾ بعبادة الأوثان ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾، وقال قتادة: ﴿من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ أي فليتعزز بطاعة الله عزَّ وجلَّ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء؛ روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر تبارك الله، أخذهن ملَك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الله عزَّ وجلَّ، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾. وقال كعب الأحبار: إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلا الله، والله أكبر، لدوياً حول العرش كدوي النحل، يذكرن لصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن.

وقوله تعالى: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ قال ابن عباس: الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزَّ وجل، والعمل الصالح أداء الفريضة، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزَّ وجلَّ، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به، وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب، وقال إياس بن معاوية: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام، وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل، وقوله تعالى: ﴿والذين يمكرون السيئات﴾ قال مجاهد: هم المراؤون بأعمالهم، يعني يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عزَّ وجلَّ يراؤون بأعمالهم ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، وقال ابن أسلم: هم المشركون، والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ أي يفسد ويبطل، ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنُّهَى، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم بل ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾ أي ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعمله﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل ﴿ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي ما يعطى بعض النطف من العمر

---

(١) رواه ابن جرير، وإسناده صحيح إلى كعب الأحبار.

الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿وما ينقص من عمره﴾ الضمير عائد على الجنس، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه، أي ونصف ثوب آخر .

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ الآية، يقول: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر، والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله تعالى: ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يقول: كل ذلك في كتاب عنده، وقال زيد بن أسلم ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ، وقال بعضهم: بل معناه ﴿وما يعمر من معمر﴾ أي ما يكتب من الأجل ﴿ولا ينقص من عمره﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، وساعة بعد ساعة الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه، نقله ابن جرير عن أبي مالك، واختار ابن جرير الأول، ويؤيده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»[1]، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي سهل عليه يسير لديه، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، خلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعاقاً مرة، ولهذا قال: ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر، ثم قال تعالى: ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾ يعني السمك ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي واللفظ له .

مجاهد: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام، وقوله جلَّ وعلا: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، الجميع من فضله ورحمته

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي والنجوم السيارات، الجميع يسيرون بمقدار مبين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم، ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي إلى يوم القيامة، ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره، ﴿والذين تدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿ما يملكون من قطمير﴾ قال ابن عباس: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي لا يملكون من السماوات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير، ثم قال تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها، ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها، ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي يتبرأون منكم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا

قال عزَّ وجلَّ: ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه، وقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال تعالى: ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي يوم القيامة، ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له: يا مؤمن إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا، وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه، حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بني أي والد كنت لك فيثني خيراً، فيقول له يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجته فيقول: يا فلانة أو يا هذه، أي زوج كنت لك فتثني خيراً، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبين لي لعلي أنجو بها مما ترين، قال، فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف، يقول الله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ الآية. ويقول تبارك وتعالى: ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾، ويقول تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى، الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به، ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود على نفسه، ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير، لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا

مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي بة في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً﴾؟ فالمؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿وظل من يحموم لا بارد ولا كريم﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم ﴿إن أنت إلا نذير﴾، أي إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾، وكما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات، ﴿وبالزبر﴾ وهي الكتب، ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي الواضح البين، ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾، أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أي بالعقاب والنكال، ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟ والله أعلم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً، قال ابن عباس: الجدد الطرائق، ومنها غرابيب سود، قال عكرمة: الغرابيب الجبال الطوال السود، وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وغرابيب سود﴾ أي سود غرابيب، وفيما قاله نظر. وقوله تعالى: ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي كذلك

الحيوانات من الأناسي (والدواب) وهو كل ما دب على القوائم (والأنعام) من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون، وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد روى الحافظ البزار في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أيصبغ ربك ؟ قال ﷺ: « نعم صبغاً لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض »[1]، ولهذا قال تعالى بعد هذا ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير ، وعنه قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله، وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عزَّ وجلَّ، وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إنما يخشى من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية، وقال مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب، وقال سفيان الثوري: كان يقال: العلماء ثلاثة، عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عزَّ وجلَّ .

* إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين، الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى سراً وعلانية بأنهم ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إنه غفور﴾ أي لذنوبهم، ﴿شكور﴾ للقليل من أعمالهم، قال قتادة: كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القرآء .

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

---

(١) قال ابن كثير: روي مرسلاً وموقوفاً والله أعلم .

يقول تعالى: ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت هي له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، ﴿ومنهم مقتصد﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب، روى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ، وكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال: هو الكافر، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال: هم أصحاب المشأمة، وقال الحسن وقتادة: هو المنافق، ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً، ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر

الحديث الأول: قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: في هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ قال: « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة »[1]، ومعنى قوله بمنزلة واحدة: أي في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة. **الحديث الثاني:** قال الإمام أحمد عن أبي

(١) الحديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده من لم يسم، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق أخرى يتقوى بها هذا الحديث.

الدرداء رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ ». **الحديث الثالث**: قال الحافظ الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ الآية، قال، قال رسول الله ﷺ: « كلهم من هذه الأمة »، **الحديث الرابع**: قال ابن أبي حاتم عن عوف بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أمتي ثلاثة أثلاث، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يمحصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون لا إله إلا الله وحده، يقول الله تعالى: صدقوا، لا إله إلا أنا أدخلوهم الجنة، بقولهم لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾[1]

(أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه)

قال ابن جرير عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عزّ وجلّ ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً، فيقول الرب عزّ وجلّ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا عبدالله رضي الله عنه هذه الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ الآية. **أثر آخر**: قال أبو داود الطيالسي، عن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه﴾ الآية، فقالت لي: « يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثراً من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، قال: فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا »، وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقال عوف الأعرابي، عن كعب الأحبار رحمه الله قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد، والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها - إلى قوله عزّ وجلّ - والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ قال: فهؤلاء أهل النار[2]، وعن محمد بن الحنفية رضي الله عنه قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وهو غريب جداً كما قال ابن كثير.

(٢) رواه ابن جرير من طرق عن عوف عن كعب الأحبار.

والمقتصد في الجنان عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله . فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام، وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي ؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث بـه عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة ؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة ؟ قال: لا. قال: أما قدمت الا في طلب هذا الحديث ؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله تعالى بـه طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخـذ بـه أخذ بحظ وافر »[1]. وقد تقدم في أول (سورة طه) حديث ثعلبة بن الحكم عن رسول الله ﷺ قال: « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريـد أن أغفر لكم على ما كـان منكم ولا أبالي » .

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، مأواهم جنات عدن، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عزّ وجلّ ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ ولباسهم فيـها حرير ﴾ ، ولهـذا كان محظوراً عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . وقال: « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » . وقال ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة رضي الله عنه حدّث أن رسول الله ﷺ ذكر حلي أهل الجنة فقال: « مسورون بالذهب والفضة، مكللة بالدر، وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جرد مرد مكحولون » . ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا نشورهم، وكأني بأهل (لا إله إلا الله) ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن »[2] . وروى الطبراني، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعاً .

القبور ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور »، قال ابن عباس: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿الذي أحلنـا دار المقامة من فضله﴾ يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنةَ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل» ﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصَب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧)﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء، فقال: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون»، وقال عزّ وجلّ: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهـم من عذابها﴾، كما قال عزّ وجلّ: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿كلما خبت زدناهم سعيراً﴾، ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾، ثم قال تعالى: ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق، وقوله جلت عظمته: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عزّ وجلّ بأصواتهم: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقـد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ﴿لعادوا لمـا نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، ولذا قال ههنا: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾؟ أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً، لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم بـه في مـدة عمركم؟ وقـد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا، فروي أنه مقـدار سبع عشرة سنة[1]، وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر، قد نزلت هـذه الآية: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة، وقال وهب بن منبه ﴿أو لم

(١) هذا قول علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما.

نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ قال: عشرين سنة، وقال الحسن: أربعين سنة، وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عزّ وجلّ[١]. وروى ابن جرير عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ أربعون سنة، وهذا هو اختيار ابن جرير، ثم روي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ ستون سنة، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه»[٢]. وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله عزّ وجلّ إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة»، وفي رواية: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عزّ وجلّ إليه في العمر»[٣]. وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إذا بلغ الفتى ستين عاماً فقد ذهب المسرة والفتاء

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك»[٤]. وقوله تعالى: ﴿وجاءكم النذير﴾ روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة أنهم قالوا: يعني الشيب، وقال السدي وعبدالرحمن بن زيد: يعني به رسول الله ﷺ، وقرأ ابن زيد: ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر، لقوله تعالى ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ أي لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير * فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾، وقوله تعالى: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ أي فذوقوا عذاب النار، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه، من العذاب والنكال والأغلال».

* إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي

(١) وهذه رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه الإمام أحمد وفي لفظ للنسائي «من عمّره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر».
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والإمام أحمد.
(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر، وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله، ثم قال عزّ وجلّ ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ أي يخلف قوم لآخرين وجيل لجيل قبلهم، ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾ أي فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ
ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأنداد، ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير، وقوله: ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر، ليس الأمر كذلك ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة، التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ أي أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عزّ وجلّ ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾، وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾، ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ
إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ

فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله ﴿ جهد أيمانهم ﴾ قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين. فكفروا به فسوف يعلمون ﴾، قال الله تعالى: ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم وهو القرآن المبين ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ﴾ أي ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم، ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله، ﴿ ومكر السيء ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله، ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم، قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به، من مكر، أو بغي، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾، ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾، ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ولا يتوهم عنهم أحد، والله أعلم.

۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين، بما جئتهم به من الرسالة، سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم، بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لأنه تعالى لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ أي عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها، ثم قال تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق، قال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى: ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم، فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾.

[آخر تفسير سورة فاطر ، ولله الحمد والمنة]

تفسير سورة فاطر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ .

قال سفيان الثورى ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما [لصاحبه] (١): أنا فطرتها ، أنا بدأتها . فقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض (٢) .

وقال الضحاك : كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض .

وقوله :﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة (٣)، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : أن رسول اللّه ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. قال السدى: يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

وقال الزهرى ، وابن جُرَيْج (٤) فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى: حسن الصوت . رواه عن الزهرى البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .

وقرئ فى الشاذ : « يَزِيد فى الحلق » ، بالحاء المهملة ، واللّه أعلم .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، حدثنا مغيرة ، أخبرنا عامر ، عن ورّاد ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعتَ من رسول اللّه ﷺ. فدعانى المغيرة فكتبت إليه : إنى سمعت (٦) رسول اللّه ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا

(١) زيادة من ت ، س ، أ .

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٦٨٢) من طريق يحيي بن سعيد عن سفيان به .

(٣) فى ت : « ثلاثة أجنحة » . (٤) فى ت : « جرير » . (٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى أ : « سمعت من » .

إله إلا اللّه ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » ، وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومَنْع وهَات .

وأخرجاه من طرق عن ورّاد ، به (١) .

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع اللّه لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملْء السماء (٢) والأرض(٣) ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهلَ الثناء والمجد . أحقّ ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهمّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » (٤) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا (٥) نظائر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبو هريرة إذا مُطِروا يقول : مُطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية :﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة (٧) ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال :﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُون (٨) ﴾ ، أي : فكيف تؤفكون (٩) بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ .

يقول : وإن يكذبوك ـ يامحمد ـ هؤلاء المشركون باللّه ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد

---

(١) المسند (٤/ ٢٥٤) وصحيح البخارى برقم (٨٤٤) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣) .
(٢) فى ت ، س ، أ : « السموات » .
(٣) فى ت ، س ، أ : « وملء الأرض » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٤٧٧) .
(٥) فى ت : « ولهما » ، وفى س : « ولها » .
(٦) الموطأ (١/ ١٩٢) .
(٧) فى أ : « بالعبادة وحده » .
(٨، ٩) فى س ، أ : « يؤفكون » .

فكذبوهم وخالفوهم ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ، ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : العيشة الدنيئة (١) بالنسبة إلى ما أعد (٢) اللّه لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تَتَلَهّوا (٣) عن ذلك (٤) الباقى بهذه الزهرة الفانية ، ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس . أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل اللّه وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفاك . وهذه الآية كالآية التى فى آخر لقمان : ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣] .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٥) ﴾ أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين . فنسأل اللّه القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان (٦) ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] .

[وقال بعض العلماء : وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول : إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم ، فكيف يحسن بكم أن توالوه ؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه] (٧) .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ .

لما ذكر [اللّه] (٨) تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى [عذاب] (٩) السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد (١٠) ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعَصَوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا باللّه

---

(١) فى أ : « المعيشة الدنية » . (٢) فى ت : « ما وعد » . (٣) فى أ : « فلا يلتهوا » .
(٤) فى س : « ذاك » . (٥) فى س بعدها : « إنما يدعو حزبه » .
(٦) فى ت : « للشياطين » (٧) زيادة من ت ، أ . (٨) زيادة من ت .
(٩) زيادة من ت ، أ . (١٠) فى ت : « للذين كفروا عذابا شديدا » .

ورسله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أى: لما كان منهم من ذنب، ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسون [١] أنهم يحسنون صنعاً ، أى : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أى : بقدره كان ذلك، ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل[٢] ويهدى من يهدى [٣] ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وقال [٤] ابن أبى حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عوف الحمْصى ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى عمرو السَّيبانى ـ أو : ربيعة ـ عن عبد الله بن الديلمى قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له: الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل» [٥] .

ثم قال : حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى ، حدثنا حسان بن حسان البصرى ، حدثنا إبراهيم بن بشر [٦] ، حدثنا يحيى بن معين [٧] ، حدثنا إبراهيم القرشى ، عن سعد بن شرحبيل [٨] ، عن زيد ابن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « الحمد لله الذى يهدى من [٩] الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب » [١٠] .

وهذا أيضا حديث غريب جداً .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(١) فى ت ، س ، أ : « يحسبون » . (٢، ٣) فى أ : « يشاء » .
(٤) فى ت : « وروى » .
(٥) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٨١٢) « موارد » والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٠) من طريق الأوزاعى عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الديلمى بنحوه ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى عن عبد الله الديلمى بنحوه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .
(٦) فى هـ ، ت ، س ، أ : « بشير » ، والصواب ما أثبتناه . (٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « معن » ،والصواب ما أثبتناه .
(٨) فى ت : « ثم روى بسنده » . (٩) فى ت ، أ : « يهدى من يشاء من » .
(١٠) ورواه البخارى فى التاريخ الأوسط (١/ ٢٥٠) : حدثنا حسان بن حسان عن إبراهيم بن بشر عن يحيى بن معين المدنى عن إبراهيم القرشى عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبى أوفى ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢٢٠) من طريق عبد المؤمن بن عباد عن يزيد بن معن عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبى أوفى بأطول منه ، ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (٢/ ١٢٦) من طريق شعيب بن يونس عن موسى بن صهيب عن يحيى بن زكريا عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبى أوفى ، وقال البخارى بعدما أورده : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض ، رواه بعضهم عن إسماعيل بن خالد عن عبد الله بن أبى أوفى ، عن النبى ﷺ ولا أصل له » .

كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ـ كما فى [أول] [١] سورة الحج ـ ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها[٢] السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ، ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد [٣] ، إذا أراد اللّه سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم [٤] الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما ينبت [٥] الحب فى الأرض ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾.

وتقدم فى « الحج » [٦] حديث أبى رَزِين : قلت : يا رسول اللّه ، كيف يحيى اللّه الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « يا أبا رزين ، أما مررت بوادى قومك محْلا [٧] ثم مررت به يهتز خَضِرا ؟ » قلت : بلى . قال : « فكذلك يحيى اللّه الموتى » .

وقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة اللّه ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن اللّه مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وقال تعالى ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

قال مجاهد : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ بعبادة الأوثان ، ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

وقال قتادة : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : فليتعزز بطاعة اللّه عز وجل .

وقيل : من كان يريد علْم العزة ، لمن هى، ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ، حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ يعنى: الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحْمَسِىّ ، أخبرنى جعفر بن عَوْن ، عن عبد الرحمن بن عبد اللّه المسعودى ، عن عبد اللّه بن المخارق ، عن أبيه المخارق بن سليم [٨] قال :

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « عليها » . (٣) فى ت ، س : « الأجسام » .
(٤) فى أ : « فعم » . (٥) فى ت : « كما تنبت » .
(٦) عند الآيات : ١٢ ـ ١٦ .
(٧) فى ت ، س ، أ : « ممحلاً » . (٨) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن عبد اللّه بن أبى المخارق بن سليم » .

قال لنا عبد اللّه ـ هو ابن مسعود ـ إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب اللّه : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان اللّه وبحمده ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، تبارك اللّه » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صَعد بهن إلى السماء فلا يمُرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجىء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد اللّه : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، أخبرنا سعيد الجُرَيْرى (١) ، عن عبد اللّه بن شقيق قال(٢) : قال كعب الأحبار : إن لـ « سبحان اللّه، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر » لدويا حول العرش كدوىّ النحل ، يُذَكِّرْن بصاحبهن ، والعمل الصالح فى الخزائن (٣) .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار ، رحمه اللّه ، وقد روى مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْر ، حدثنا موسى ـ يعنى : ابن مسلم الطحان ـ عن عون بن عبد اللّه ، عن أبيه ـ أو : عن أخيه (٤) ـ عن النعمان بن بشير قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الذين يذكرون من جلال اللّه ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصحابهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند اللّه شىء يذكر به؟ » (٥) .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبى بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد (٦) القطان ، عن موسى ابن أبى [عيسى] (٧) الطحان ، عن عون بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ،عن أبيه ـ أو : عن أخيه ـ عن النعمان بن بشير ، به (٨) .

وقوله :﴿ **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر اللّه ، يصعد به إلى اللّه، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء فرائضه . ومن ذكر اللّه ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به .

وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك ، والسُّدِّىَ ، والربيع بن أنس ، وشَهْر بن حَوْشَب ، وغير واحد [من السلف] (٩) .

وقال إياس بن معاوية القاضى : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة اللّه ، وهم بُغَضاء إلى اللّه

(١) فى أ : « سعيد بن الجريرى » . (٢) فى ت : « وروى بإسناده » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨٠) .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٥) المسند (٤/٢٦٨) .
(٦) فى أ : « عيسى » .
(٧) زيادة من ت ، س ، وابن ماجه .
(٨) سنن ابن ماجة برقم (٣٨٠٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٩٣) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .
(٩) زيادة من ت .

عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ، ﴿ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد (١) سريرة إلا أبداها اللّه على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه اللّه رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرائى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشَف (٢) لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

وقوله :﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : ذكرا وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

وقوله · ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ، بل﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ [وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ] (٣) الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد:٨، ٩].

وقوله :﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ، ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر فى الكتاب وفى علم اللّه لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر .

ورُوى من طريق العَوْفَى ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عُمُر(٤) وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿و لا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده.

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه:﴿وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ قال:ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

---

(١) فى أ : « أحد » .

(٢) فى ت ، س ، أ : « ينكشف » .

(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله ».

(٤) فى ت ، س : « العمر » .

وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .

وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة .

وقال مجاهد :﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه :﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند اللّه سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند اللّه فى كتاب .

نقله (١) ابن جرير عن أبى مالك . وإليه ذهب السدى ، وعطاء الخراسانى . واختار ابن جرير [القول] (٢) الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك ، رضى اللّه عنه ، قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « من سره أن يُبسَط له فى رزقه، ويُنْسأ له فى أجله (٣) فلَيصِلْ رَحِمه » .

وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، من حديث يونس بن يزيد الأيْلى ، به (٤) .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد اللّه أبو مسرح ، حدثنا عثمان بن عطاء ، عن مسلمة (٦) بن عبد اللّه ، عن عمه أبى مَشْجَعَةَ بن ربعى ، عن أبى الدرداء ، رضى اللّه عنه ، قال : ذكرنا عند رسول اللّه ﷺ فقال : « إن اللّه لا يأخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله :﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شىء .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ .

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال،

(١) فى أ : « رواه » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) فى ت ، س ، أ : « أثره » .
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٩) وصحيح البخارى برقم (٢٠٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) وسنن أبى داود برقم(١٦٩٣) .
(٥) فى ت « وروى » . (٦) فى أ : « سلمة » .

وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ، وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أى : مر .

ثم قال :﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعنى : السمك ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ٢٢، ٢٣] .

وقوله :﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١)﴾ أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جؤجؤ الطير ـ وهو : صدره .

وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام .

وقوله ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شىء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا (٢) فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ،﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى (٣)﴾ أى : إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ،﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون (٤) من الملائكة المقربين ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ .

(١) فى ت ، س : « وترى الفلك مواخر فيه » ولعلهما أرادا الآية : ١٤ من سورة النحل .
(٢) فى ت ، أ : « فيزيد فى قصر هذا » .
(٣) فى ت ، س : « إلى أجل مسمى » .
(٤) فى س : « يزعمون » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم: القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال : ﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم** ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون(١) دعاءكم (٢) ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿**ولو سمعوا ما استجابوا لكم**﴾ أى : لا يقدرون(٣) على ما تطلبون منها ، ﴿**ويوم القيامة يكفرون بشرككم** ﴾ ،أى: يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الأحقاف : ٥، ٦] ، وقال : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا**﴾ [مريم :٨١ ، ٨٢] .

وقوله : ﴿**ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثل خبير بها .

قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾.

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال :﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله**﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال :﴿ **والله هو الغني الحميد**﴾ أى : هو المنفرد (٤) بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

وقوله :﴿**إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد**﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ **وما ذلك على الله بعزيز**﴾.

وقوله : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ أى : يوم القيامة ،﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملها**﴾ ، أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، ﴿ **لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى**﴾ ، أى : ولو كان قريبا إليها ، حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، [كما قال تعالى : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾] (٥) [عبس : ٣٤ ـ ٣٧] .

قال (٦) عكرمة فى قوله : ﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملها**﴾ الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم

(١) فى ت ، أ : « يسمعوا » . (٢) فى أ : «دعاءهم» . (٣) فى ت:« يقيمون » .
(٤) فى ت ، س: «المتفرد » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى ت : « كما قال » .

القيامة ، فيقول : يا رب ، سل هذا : لم كان يغلق بابه دونى . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له : يا مؤمن ، إن لى عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى [منزل دون] (١) منزله (٢) ، وهو فى النار . وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ،فيقول: يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى خيرا، فيقول له : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى .فيقول له ولده : يا أبت، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ـ أو : يا هذه ـ أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تَهَبينَها لى ،لعلى أنجو بها مما ترين.قال :فتقول:ما أيسر ما طلبت.ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول اللّه : ﴿ **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ** [**إِلَىٰ حِمْلِهَا**] (٣)﴾ الآية، ويقول اللّه : ﴿ **لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا** ﴾ [لقمان : ٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ .

رواه ابن أبى حاتم ، رحمه اللّه ، عن أبى عبد اللّه الطهرانى (٤) ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عِكْرمة ، به .

ثم قال :﴿ **إِنَّمَا تُنذِرُ** (٥) **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ** ﴾ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، ﴿ **وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ** ﴾ أى : ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه ،﴿ **وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾ .

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه اللّه للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعـالى :﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ**

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت : « فى منزلة دون منزلته » . (٣) زيادة من ت ، س ، أ .
(٤) فى أ : « الطبرانى » . (٥) فى س : « ينذر » .

مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ،وقال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً** ﴾ [هود : ٢٤] فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، ﴿ **وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ** ﴾ [الواقعة : ٤٣، ٤٤] .

وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ** ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴾ أى : كما لا [يسمع و] (١) ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

﴿ **إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ** ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النّذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** ﴾ الآيـة [النحل : ١٣٦]، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، ﴿ **وَبِالزُّبُرِ** ﴾ وهى الكتب ، ﴿ **وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ أى : الواضح البين . ﴿ **ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أى : ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ، ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** ﴾ أى : فكيف رأيت(٢) إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ؟

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)** ﴾ .

يقول تعالى منبها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشىء الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الآخرى : ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ** (٣) **بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الرعد : ٤] .

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت : « رأيت كان » . (٣) فى ت ، س : « تسقى » .

وقوله تبارك وتعالى :﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفى بعضها طرائق ـ وهى : الجُدَد ، جمع جُدّة ـ مختلفة الألوان أيضا .

قال ابن عباس ، رضى اللّه عنهما : الجُدَد : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة، والسدى (١) .

ومنها ﴿ غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ، قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراسانى وقتادة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غربيب .

ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أى : سود غرابيب .

وفيما قاله نظر .

وقوله تعالى :﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أى : [و] (٢) كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب ـ وهو : كل ما دب على قوائم ـ والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ؛ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى :﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك اللّه أحسن الخالقين .

وقد قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد اللّه بن عمر ابن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد اللّه ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :جاء رجل إلي النبى ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يُنفَض ، أحمر وأصفر وأبيض » (٤) . ورُوى مرسلا وموقوفا ، واللّه أعلم .

ولهذا قال تعالى بعد هذا :﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العَلِيم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين يعلمون أن اللّه على كل شىء قدير .

وقال ابن لَهِيعَة،عن ابن أبى عمرة ، عن عِكْرِمة ،عن ابن عباس (٥) قال : العالم بالرحمن(٦) من لم يشرك به شيئا ،وأحل حلاله،وحرم حرامه،وحفظ وصيته،وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

---

(١) فى ت : « وكذلك قال غيره » . (٢) زيادة من ت ، س ، أ . (٣) فى ت : « وقد روى » .
(٤) مسند البزار برقم (٢٩٤٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٨/٥) : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .
(٥) فى ت : « وعنه » . (٦) فى أ : « بالرحمن من عباده » .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وقال الحسن البصرى : الإيمان مَنْ خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سَخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ .

وعن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن (١) كثرة الخشية .

وقال أحمد بن صالح المصرى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب .

قال أحمد بن صالح المصرى (٢) : معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذى فرض (٣) الله ، عز وجل ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى حيان [التميمى] (٤) ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله عز وجل .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)** ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، ﴿ **يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ** ﴾، أى : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله . كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، ﴿ **إِنَّهُ غَفُورٌ** ﴾ أى : لذنوبهم ، ﴿ **شَكُورٌ** ﴾ للقليل من أعمالهم.

قال قتادة : كان مُطَرِّف ، رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

---

(١) فى ت ، س : « من » .

(٢) فى ت : « المرى » .

(٣) فى ت ، س : « فرضه » .

(٤) زيادة من ت ، س ، أ .

قال [١] الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع درّاجا أبا السمح يحدث عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدْرىّ ، رضى اللّه عنه ، أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه تعالى [٢] إذا رضى عن العبد أثنى عليه سَبْعةَ [٣] أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعةَ [٤] أصناف من الشر لم يعمله [٥] ». غريب جدا .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت [٦]له بالتنويه [٧]، وأنه منزل من رب العالمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات اللّه عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع [٨] ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾، وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو: المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا [مِنْ عِبَادِنَا] [٩] ﴾ ، قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورّثهم اللّه كل كتاب [١٠] أنزله ، فظالمهم يُغفَر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبىّ قالا : حدثنا أبو الطاهر بن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعانى ، حدثنى ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن [١١] ابن عباس ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « عز وجل » . (٣، ٤) فى ت ، س ، أ : « بسبعة » .
(٥) المسند (٣/٣٨) ودراج له مناكير وروايته عن أبى الهيثم ضعيفة .
(٦) فى ت ، س ، أ : « شهدت هى » .
(٧) فى ت ، أ : « بالنبوة » . (٨) فى ت : « أقسام » . (٩) زيادة من ت ، س .
(١٠) فى ت : « ورثهم اللّه كتابا » . (١١) فى ت : « وروى القاسم الطبرانى بسنده إلى » .

أمتى » . قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ (١) .

وهكذا (٢) رُوِى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، على ما فيه من عوج وتقصير .

وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب .

قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو(٣) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما (٤) : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هو الكافر . وكذا رَوَى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها .

والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار ؛ أنه سمع رجلا من ثقيف يُحَدِّث عن رجل من كنانة ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، قال : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة » .

هذا (٦) حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده من لم يسمّ . وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث شعبة ، به نحوه (٧) .

ومعنى قوله : « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

الحديث الثانى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو ضَمْرة ، عن موسى بن عقبة ، عن [على] (٨) بن عبد الله الأزدى ، عن أبى الدرداء (٩) ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك (١٠) يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ١٨٩) وابن جرير مدلس وقد عنعن .

(٢) فى ت ، س : « وكذا » . (٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٤) فى ت ، س : « عنه » .

(٥) فى ت : « رواه » . (٦) فى ت : « وهذا » .

(٧) المسند (٣/ ٧٨) وتفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) .

(٨) زيادة من س ، أ .

(٩) فى ت : « رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى الدرداء » . (١٠) فى أ : « فأولئك الذين» .

الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم (١) برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾ » (٢).

طريق أخرى (٣) : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : « فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة » .

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثورى ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبى الدرداء ، فقال : اللهم ، آنس وحشتى ، وارحم غربتى ، ويسر لى جليسا صالحا . قال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية :﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾ ، « فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيصيبه فى ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ » (٤) .

الحديث الثالث : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه (٥) الرازى ، حدثنا عمرو بن أبى قيس ، عن ابن أبى ليلى ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى (٦) ، عن أسامة بن زيد : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾ الآية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » (٧) .

الحديث الرابع : قال (٨) ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عَزيز ، حدثنا سلامة ، عن عَقيل ، عن ابن شهاب ، عن عَوْف (٩) بن مالك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمتى ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يُمَحَّصون ويكشفون ، ثم تأتى الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : « لا إله إلا الله وحده » . يقول الله عز وجل : صدقوا ، لا إله إلا أنا (١٠) ، أدخلوهم الجنة بقولهم: « لا إله إلا الله وحده» واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهى التى قال الله تعالى : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ** (١١) **أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وتصديقها فى التى فيها ذكر الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ ،فجعلهم ثلاثة أنواع (١٢) ، وهم أصناف كلهم ، فمنهم ظالم

---

(١) فى ت ، س ، أ : « تلافاهم الله » .
(٢) المسند (٥/١٩٨) .
(٣) فى ت : « وروى من طريق أخرى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٢٦) ومن طريقه البيهقى فى البعث برقم(٦٢)من طريق الأعمش،به .
(٥) فى أ : « عبد الله » . (٦) فى ت : « رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى بإسناده » .
(٧) المعجم الكبير (١/١٦٧) وقد وقع فى إسناده سقط ، ورواه البيهقى فى البعث برقم (٦٤) من طريق محمد بن سعيد ، عن عمرو ابن أبى قيس، عن ابن أبى ليلى، عن أخيه عيسى، عن أبيه، عن أسامة بن زيد ،به . ورواه أيضا برقم (٦٣) من طريق حصين بن نمير عن ابن أبى ليلى ،عن أخيه ،عن أبيه ،عن أسامة بن زيد ، بنحوه .
(٨) فى ت : « رواه » . (٩) فى أ : « أنس » .
(١٠) فى س : « إلا الله ». (١١) فى س : «ولتحملن » . (١٢) فى ت ، س : « أفواج » .

لنفسه، فهذا الذى يكشف ويمحص » . غريب جدا (١) .

أثر عن ابن مسعود : قال ابن جرير : حدثنى ابن حميد ، حدثنا الحكيم بن بشير ، عن عمرو ابن قيس ، عن عبد الله بن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شَقيق أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ ــ وهو أعلم تبارك وتعالى ــ فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى : وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا [فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ]** (٢) ﴾ الآية .

أثر آخر : قال أبو داود الطيالسى ، عن الصلت بن دينار أبو شُعيب (٣) ، عن عقبة بن صُهْبَان الهُنَائى قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، عن قول الله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم. قال : فجعلت نفسها معنا (٤) .

وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهَضْم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد الله بن المبارك ، رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه : فى قوله تعالى : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هى لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عَوْف الأعرابى : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ** ﴾ قال: فهؤلاء أهل النار .

[و] (٥) رواه ابن جرير من طرق ، عن عوف ، به . ثم قال :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبا (٦) عن قوله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ قال : تماسَّت مناكبهم ورَب كعب (٧)، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٨٠) من طريق محمد بن عزيز ، به. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٦) : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى هـ ، س : « دينار بن الأشعث » ، وفى أ : « عن الأشعث » ، والمثبت من مسند الطيالسى .

(٤) مسند الطيالسى برقم (١٤٨٩) .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « ثم روى عن ابن عباس أنه سأل كعبا » .

(٧) فى أ : « الكعبة » .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبى إسحاق السَّبِيعى فى هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية ، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج.

ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو ، عن (١) محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد فى الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله .

ورواه الثورى ، عن إسماعيل بن سَمِيع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية ، بنحوه .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على ـ يعنى : الباقر ـ عن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فقال : هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوَة (٢) ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء ـ وهو بدمشق ـ فقال : ما أقدمك أىْ أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه (٣) علماً ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم (٤) ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

وأخرجه (٥) أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث كثير بن قيس ــ ومنهم من يقول: قيس بن كثير ــ عن أبى الدرداء (٦) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه فى شرح « كتاب العلم » من « صحيح البخارى » ، ولله الحمد والمنة .

وقد تقدم فى أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمى فيكم إلا وأنا أريد [أن] (٧) أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالى » (٨) .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)

(١) فى ت : « وعن » .

(٢) فى ت : « كما روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناده » . (٣) فى س : « فيها » .

(٤) فى أ : « العلم رضا بما يصنع » . (٥) فى ت : « رواه » .

(٦) المسند (٥/١٩٦) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤١) وسنن الترمذى برقم (٢٦٨٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٣) .

(٧) زيادة من ت ، س ، أ .

(٨) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية (٢) من سورة طه .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ .

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم،عز وجل ، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ، كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية (١) من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (٢) .

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا، لم يلبسه فى الآخرة ». وقال :« [لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة](٣)هى لهم فى الدنيا ولكم (٤) فى الآخرة» .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السَّرْحىّ ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ؛ أن أبا أمامة حدث: أن رسول الله ﷺ حدثهم ، وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة ، مُكَلَّلة بالدر ، وعليهم أكاليل من درّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جُرْدٌ مُرْدٌ مكحّلُون » (٦) .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا الله» ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ ». رواه ابن أبى حاتم من حديثه (٧) .

وقال (٨) الطبرانى : حدثنا جعفر بن محمد الفريابى ، حدثنا يحيى بن موسى (٩) المروزى ، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفى ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى الموت ولا فى قبورهم ولا فى النشور(١٠) . وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب ، يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ » (١١) .

---

(١) فى ت : « الحليلة » ،وفى أ : « الحلة » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٦) .
(٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى س : « ولنا » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٦٧) من طريق على بن الحسن عن عمرو بن سواد، به. والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٥٣١) « مجمع البحرين » وابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٧١) من طريق يحيى الحمانى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، به . وقال ابن عدى فى ترجمة عبد الرحمن بن زيد : « أحاديثه غير محفوظة » .وقال المنذرى فى الترغيب (٢/ ٤١٦) : « فى متنه نكارة » .
(٨) فى ت : « وروى » .
(٩) فى هـ ، ت ، س ، أ : « موسى بن يحيى » والصواب ما أثبتناه من الإكمال وتخريج الكشاف للزيلعى .
(١٠) فى س : « منشرهم » .
(١١) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٣٣) : « رواه الطبرانى وفيه جماعة لم أعرفهم » . ورواه ابن عدى فى الكامل (٢/ ٦٥) والبيهقى فى البعث برقم (٨٨) من طريق الحسن عن بهلول بن عبيد عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر بنحوه، وقال البيهقى : «هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر ، وبهلول تفرد به وليس بالقوى » .

قال ابن عباس ، وغيره : غَفَر لهم الكثير [١] من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ : يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله وَمنّه [٢] ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال : «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَنى اللّه برحمة منه وفضل »[٣].

﴿ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء .

والنصَب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم [٤] ، والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ، قال اللّه تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول اللّه ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون» [٥] . قال [اللّه] [٦] تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال اللّه تعالى : ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠] .

ثم قال : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى اللّه، عز وجل، بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم

---

(١) فى أ : « الكبير » . (٢) فى س : « ومنته » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) .
(٤) فى ت ، أ : « ولا على أرواحهم » .
(٥) صحيح مسلم برقم (١٨٥) .
(٦) زيادة من ت ، س .

الأول ، وقد علم الرب، جل جلاله ،أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، **وإنهم** لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم: **﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ(١) مِّن سَبِيلٍ. ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾** [غافر : ١١، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتّم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا :**﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر (٢) بطول العمر ، **قد نزلت هذه** الآية : **﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وكذا قال أبو غالب الشيبانى .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن رجل ، عن وهب بن مُنَبِّه فى قوله :**﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** ، قال : عشرين (٣) سنة .

وقال هُشَيْم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن فى قوله : **﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** قال : أربعين سنة .

وقال هشيم [أيضا] (٤) ، عن مجاهد ، عن الشعبى ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم : **﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** أربعون سنة .

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه من طريق الثورى وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم (٥) ، عن مجاهد(٦)، عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله : **﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث ـ كما سنورده ـ لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ؛ لأن فى إسناده من يجب التثبت فى أمره .

وقد روى (٧) أصبغ بن نُباتة ، عن على ، رضى الله عنه ، أنه قال : العمر الذى عَيَّرهم الله به فى قوله تعالى : **﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** ستون سنة .

---

(١) فى ت ، س : « مرد » وهو خطأ . (٢) فى أ : « نغتر » . (٣) فى ت ، س ، أ : « عشرون » .
(٤) زيادة من س . (٥) فى أ : « خيثم » . (٦) فى ت: « وفى رواية أخرى » .
(٧) فى ت : « فروى » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى : حدثنا دُحَيْم ، حدثنا ابن أبى فُدَيْك ، حدثنى إبراهيم بن الفضل المخزومى ، عن ابن أبى حُسَين المكى ؛ أنه حدثه عن عَطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ عن (١) ابن عباس ، رضى اللّه عنهما (٢) ، أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذى قال اللّه فيه : ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن على بن شعيب ، عن محمد بن إسماعيل (٣) بن أبى فُدَيك ، به . وكذا رواه الطبرانى من طريق ابن أبى فُدَيك ، به (٤) . وهذا الحديث فيه نظر ؛ لحال إبراهيم بن الفضل ، واللّه أعلم .

حديث آخر : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن رَجُل من بنى غفَار، عن سعيد المَقْبُرىّ ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لقد أعذر اللّه إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر اللّه إليه، لقد أعذر الله إليه » (٦) .

وهكذا رواه الإمام البخارى فى « كتاب الرقاق » من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر ، عن عُمَر بن علىّ ، عن مَعْن بن محمد الغفَارى ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه،قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أعذر اللّه عز وجل إلى امرئ أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة » .

ثم قال البخارى : تابعه أبو حازم وابن عَجْلان ، عن سعيد المَقْبُرى (٧) .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفَزَارىّ ، حدثنا محمد بن سَوَّار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القارىّ الإسكندرىّ ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ « [من عَمَّره] (٨) اللّه ستين سنة ، فقد أعذر إليه فى العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائى فى الرقاق جميعا عن قتيبة،عن يعقوب بن عبد الرحمن، به(٩) .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم ، عن أبيه ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « العمر الذى أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستون سنة » .يعنى : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾(١٠) .

وأما متابعة « ابن عجلان » فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك ابن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنى محمد بن

---

(١) فى ت : « فقال ابن أبى حاتم بإسناده إلى » . (٢) فى ت ، س : « عنه » .
(٣) فى جميع النسخ : « عن إسماعيل ، والمثبت من الطبرى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ١٧٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٧):«وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومى وهو ضعيف » .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (٢/ ٢٧٥) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٤١٩) .
(٨) زيادة من ت ، والطبرى .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمسند (٢/ ٤١٧) والنسائى فى السنن الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى (٩/ ٤٧٢) .
(١٠) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ١٥٥) من طريق سليمان بن حرب ، عن أبى حازم،عن سهل بن سعد ، وربما لم يقل : عن سهل ، فذكر نحوه دون الآية ، والمحفوظ عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه .

عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر اللّه، عز وجل، إليه فى العمر » . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن هو المقرئ [١] ، به [٢] . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبى مَعْشَر ،عن سعيد المقْبُرِىّ.

طريق أخرى عن أبى هريرة : قال ابن جرير : حدثنى أحمد بن الفرج أبو عُتْبَة [٣] الحمْصى، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكنانى ، حدثنى مَعْمَر بن راشد قال : سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفارى يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول اللّه ﷺ: «لقد أعذر اللّه عز وجل، إلى صاحب الستين سنة والسبعين » [٤] .

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن [٥] إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد اللّه البخارى شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير : (إن فى رجاله بعض من يجب التثبت فى أمره) ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى ، واللّه أعلم .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لايزال فى ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إذَا بَلَغَ الفتى ستين عَاما فقد ذَهَبَ المَسَرّةُ والفَتَاءُ [٦]

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر اللّه إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة ، رحمه اللّه :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين،وأقلهم مَن يجوز ذلك».

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا فى كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه [٧] .

وهذا عَجَب من الترمذى ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه أخر وطريق أخرى ، عن أبى هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان [٨] بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ،عن كامل أبى العلاء،عن أبى صالح،عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ:«أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين،وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذى فى « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، عن محمد بن ربيعة ، به [٩] . ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد

(١) فى أ : « المقبرى » .
(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) .
(٣) فى أ : « أبو عيينة » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) .
(٥) فى س : « لم تكن » .
(٦) البيت نسبه أبو عبيدة للربيع بن ضبع الفزارى مستفاداً من حاشية طبعة الشعب .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٦) .
(٨) فى أ : « سليم » .
(٩) سنن الترمذى برقم (٢٣٣١) .

روى من غير وجه عنه . هذا نصه بحروفه فى الموضعين ، والله أعلم .

وقال (١) الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا ابن أبى فُدَيك ،حدثنى إبراهيم ابن الفضل ـ مولى بنى مخزوم ـ عن المقبُرى ، عن أبى هريرة ، قال :قال رسول الله ﷺ : « مُعْتَرك المنايا ما بين الستين إلى السبعين » .

وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقل أمتى أبناء سبعين » . إسناده ضعيف (٢) .

حديث آخر فى معنى ذلك : قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

حدثنا إبراهيم بن هانئ ، حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا عثمان بن مطر ، عن أبى مالك ، عن رِبْعِى عن حذيفة أنه قال : يا رسول الله ، أنبئنا بأعمار أمتك . قال : « ما بين الخمسين إلى الستين » . قالوا : يارسول الله ، فأبناء السبعين ؟ قال : « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله أبناء السبعين ،ورحم الله أبناء الثمانين » .

ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى (٤) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** ﴾ : روى عن ابن عباس ، وعِكْرِمة ، وأبى جعفر الباقر ، وقتادة ، وسفيان بن عُيَينة أنهم قالوا : يعنى: الشيب .

وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ **هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى** ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل .

وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى :﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ . لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ [الزخرف :٧٧، ٧٨]،أى:لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل،فأبيتم وخالفتم،وقال تعالى:﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ** ﴾ [الملك : ٨، ٩] .

وقوله :﴿ **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ أى : فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ**

(١) فى ت : « وروى » .

(٢) مسند أبى يعلى (١١/ ٤٢٢، ٤٢٣) وفيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) مسند البزار برقم (٣٥٨٦) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٦) : « وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف » .

خَلائفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩) ﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال :﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائفَ فِي الأَرْضِ**﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ **وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ**﴾ [النمل : ٦٢] ﴿ **فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**﴾ ، أى : فإنما يعود وبال ذلك (١) على نفسه (٢) دون غيره ، ﴿ **وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا**﴾ ،أى: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم اللّه ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين ، [فسبحان المقدر المدبر رب العالمين] (٣) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين :﴿ **أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ**﴾ أى : ليس لهم شىء من ذلك ، ما يملكون من قطمير .

وقوله : ﴿ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ**﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ **بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا**﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا**﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿**وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ**﴾ [الروم : ٢٥] ﴿ **وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ**﴾ ، أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم (٤) فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعجَل، ويستر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾.

---

(١) فى ت ، س ، أ : « وبال كفره ذلك » .
(٢) فى ت : « وعليه » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت ، أ : « يحلم عنهم » .

وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا بل منكراً ، فقال : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنى هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن [(١)] أبى هريرة قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يحكى عن موسى ، عليه السلام [(٢)] ، على المنبر قال : « وقع فى نفس موسى ، عليه السلام : هل ينام اللّه ،عز وجل ، فأرسل اللّه إليه ملكا ، فأرقه ثلاثا [(٣)] ، وأعطاه قارورتين ، فى كل يد قارورة،وأمره أن [(٤)] يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان،ثم يستيقظ فيحبس إحداهما [(٥)] عن الأخرى،حتى نام نومه، فاصطفقت يداه فتكسَّرَت القارورتان. قال: ضرب اللّه له مثلا: إن اللّه لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » [(٦)] .

والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع ، بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى ، عليه السلام، أجَلّ من أن يُجَوِّز على اللّه ،سبحانه وتعالى،النوم،وقد أخبر اللّه تعالى فى كتابه العزيز بأنه: ﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥]. وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القِسْط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل،حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » [(٧)] .

وقد قال أبو جعفر بن جرير [(٨)] : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد اللّه ـ هو ابن مسعود ـ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال: ما حدثك كعب ؟ قال : حدثنى أن السموات تدور على منْكَب مَلَك . قال : أفصدقته أو كذبته ؟ قال : ما صدقته ولا كذبته . قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورَحْلها ، كَذَب كعب . إن اللّه تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ** ﴾ [(٩)] .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن جرير، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جُنْدَب البَجَلى إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه [(١٠)] . وقد رأيت فى مصنف الفقيه [(١١)] يحيى بن إبراهيم بن مُزَين الطليطلى ، سماه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع ، عن وكِيع ، عن الأعمش ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان ـ يعنى : عبد الملك بن الحسن ـ عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : السماء لا تدور . واحتج بهذه الآية ، وبحديث : « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

---

(١) فى ت : « بسنده إلى أبى هريرة» .
(٢) فى ت : « ﷺ» .
(٣) فى ت : « ثلثا » .
(٤) فى ت : « بأن » .
(٥) فى س : « أحدهما » .
(٦) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٢/ ٢١) من طريق إسحاق بن إبراهيم ، به ، وسبق أيضا تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٧٩) وليس فى صحيح البخارى ، فإن الحافظ ذكره عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة فقال : « وفى الصحيح هكذا بالإفراد » .
(٨) فى ت : « وروى ابن جرير » .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٤) .
(١٠) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٥) .
(١١) فى س ، أ : « للفقيه » .

قلت : وهذا الحديث فى الصحيح (١) ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : **﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾** أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : **﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا (٢) لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾** [الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : **﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ. فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** [الصافات: ١٦٧ـ ١٧٠] .

قال الله تعالى : **﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾** ـ وهو : محمد ﷺ ـ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ، **﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾** أى : ما ازدادوا (٣) إلا كفراً إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله: **﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾** أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، **﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾** أى : ومكروا بالناس فى صدّهم إياهم عن سبيل الله ، **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾** ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم (٤) أنفسهم دون غيرهم .

قال (٥) ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله] (٦) ، ولهم من الله طالب » (٧) ، وقد قال محمد بن كعب القُرَظى : ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب الله : **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾** ، **﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾** [يونس : ٢٣]، **﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾** [الفتح : ١٠].

وقوله : **﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾** يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (٨) ، **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾** أى(٩): لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل

---

(١) لم أعثر على الحديث فى الصحيحين ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٥٣٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١٩٣) والمسند للإمام أحمد (٤/ ٢٤٠) ما يوافق ذلك من حديث صفوان بن عسال، رضى الله عنه ، ولفظه عند ابن خزيمة : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرته سبعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » نحوه .

(٢) فى ت : « أو يقولوا » . (٣) فى ت : « ما زادوهم » . (٤) فى ت : « على » .

(٥) فى ت : « روى » . (٦) زيادة من ت ، س ، أ .

(٧) وهذا مرسل ولم أجد من أخرجه غير ابن أبى حاتم ، وقد روى ابن المبارك فى الزهد برقم (٧٢٥) عن الزهرى مرسلاً نحوه .

(٨) فى ت : « على تكذيبهم أمره ومخالفتهم رسله » . (٩) فى ت : « يعنى » .

مكذب ، ﴿ ولَن تَجدَ لسُنَّت اللَّه تَحْويلاً ﴾ أى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد : ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

﴿ أَوَ لَمْ يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ؟ كيف دمر اللّه عليهم وللكافرين أمثالها ، فَخُلِيَتْ منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع (١) عنهم من عذاب اللّه من شىء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شىء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لو آخذهم (٢) بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد اللّه قال : كاد الجُعَلُ أن يعذب فى جُحْره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

وقال سعيد بن جبير ، والسُّدىّ فى قوله : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب .

﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى : ولكن يُنْظِرهُم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهلَ الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

آخر تفسير سورة « فاطر » ولله الحمد والمنة

---

(١) فى ت ، س : « ولا يدفع » .
(٢) فى ت ، أ : « يؤاخذهم ».
(٣) فى ت : « روى » .

[٣٧٦و]

/ سورة الملائكة[١]

مكّيّة، وآيها[٢] خمس وأربعون.[٣]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدِعِهما مِن غير مِثال يَحتذيه، ولا قانونٍ يَنتحيه. مِن "الفَطْر"؛ وهو الشَّقّ. وقيل: الشَّقُّ طُولًا. كأنّه شَقَّ العدم بإخراجهما منه. وإضافته محضة؛ لأنّه بمعنى الماضي، فهو نعت للاسم الجليل، ومَن جعلها غيرَ محضة جعله بدلًا منه، وهو قليل في المشتَقّ.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الكلام في إضافتِه وكونِه نعتًا أو بدلًا كما قبله. وقوله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾ منصوب به على الوجه الثاني مِن الإضافة بالاتّفاق، وأمّا على الأوّل فكذلك عند الكسائي، وأمّا عند البصريّين فبمُضمَر يدلّ هو عليه؛ لأنّ اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عندهم إلّا معرّفًا بـ"اللام". وقال أبو سعيد السيرافي: «اسم الفاعل المتعدّي إلى اثنين يعمل في الثاني؛ لأنّ بإضافته إلى الأوّل تعذّرت إضافته إلى الثاني، فتعيَّن نصبُه له».[٤] وعلَّل بعضُهم ذلك بأنّه بالإضافة أشبهَ المعرَّف بـ"اللام" فعمل عملَه.[٥]

وقُرئ: "جَاعِلُ" بالرفع[٦] على المدح. وقُرئ: "الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ".[٧]

---

١ وتسمّى سورة فاطر. **الإتقان** للسيوطي، ١/١٩٤.

٢ ط س: وهي.

٣ ط س + آية.

٤ انظر: **شرح كتاب سيبويه** للسيرافي، ١/٤٣٦.

٥ انظر: **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٥/٦١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٣.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٩٥؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/١٠.

أي: جاعِلهم وسائطَ بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين مِن عباده، يبلّغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، أو بينَه تعالى وبين خلقه أيضًا حيث يوصّلون إليهم آثار قدرته وصنعه.

هذا على تقدير كون الجَعل تصييريًا، أمّا على تقدير كونه إبداعيًا فـ﴿رُسُلًا﴾ نصب على الحاليّة.

وقُرئ: "رُسْلًا" بسكون "السين".[1]

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ صفةٌ لـ﴿رُسُلًا﴾، و"أُولُو"[2] اسمُ جمع لِـ"ذُو"، كما أنّ "أُولاء" اسم جمع لِـ"ذا"، ونظيرهما في الأسماء المتمكّنة "المَخاض"[3] و"الخَلِفَة".[4]

وقوله تعالى: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات لـ﴿أَجۡنِحَةٖ﴾، أي: ذوي أجنحةٍ متعدِّدةٍ متفاوتةٍ في العدد حسب تفاوت ما لهم مِن المراتب، ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها. والمعنى: أنّ مِن الملائكة خَلقًا لكلّ واحد منهم جناحان، وخَلقًا أجنحةُ كلٍّ منهم ثلاثة، وخَلقًا آخرَ لكلّ منهم أربعةُ أجنحة.

[٣٧٦ظ] ويُروى أنّ صِنفًا مِن الملائكة / لهم ستّة أجنحة، بجناحين منها يَلُفُّون أجسادَهم، وبآخرَين منها يطيرون فيما أُمِروا به مِن جهته تعالى، وجناحان منها مُرخَيان على وجوههم حياءً مِن الله عزّ وجلّ.[5]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه رأى جبريل عليهما السلام ليلة المعراج وله ستّمائة جَناح.[6]

ورُوي أنّه سأله عليهما السلام أن يتراءى له في صورته، فقال: «إنّك لن تطيق ذلك»، قال: «إنّي أحبّ أن تفعل»، فخرج عليه السلام في ليلة مُقمِرة، فأتاه جبريل صلوات الله عليهما[7] في صورته، فغَشِي عليه عليه السلام،

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وحميد بن قيس. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/١٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٤.

[2] م: وأولوا.

[3] وفي هامش م: اسم جمع.

[4] وفي هامش م: واحدتها.

[5] **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٥/٣.

[6] **صحيح البخاري**، ١١٥/٤ (٣٢٣٢)؛ **صحيح مسلم**، ١٥٧/١ (١٧٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[7] س: عليهما السلام.

ثمّ أفاق وجبريل مُسنده، وإحدى يديه على صدره، والأخرى بين كتفيه، فقال: «سبحان الله، ما كنتُ أرى أنّ شيئًا مِن الخَلق هكذا»، فقال جبريل عليه السلام: «فكيف لو رأيتَ إسرافيل؟ له اثنا عشر جناحًا، جناح منها بالمشرق، وجناح منها بالمغرب، وإنّ العرش على كاهِله، وإنّه لَيتضاءلُ الأحايينَ لعظَمة الله عزّ وجلّ حتّى يعود مثل الوَصَع»؛[١] وهو العصفور الصغير.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئناف مقرّر لِما قبله مِن تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة، ومؤذِنٌ بأنّ ذلك مِن أحكام مشيئته تعالى، لا لأمرٍ راجع إلى ذواتهم، ببيان حُكم كلّي ناطق بأنّه تعالى يزيد في أيّ خلقٍ كان كُلَّ ما يشاء أن يزيده بموجَب مشيئته ومقتضى حكمته مِن الأمور التي لا يحيط بها الوصف. وما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن تخصيص بعض المعاني بالذِّكر مِن "الوجه الحسَن، والصوت الحسَن، والشَّعر الحسَن"[٢] فبيانٌ لبعض الموادّ المعهودة بطريق التمثيل، لا بطريق الحصر فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليل بطريق التحقيق للحُكم المذكور، فإنّ شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء ممّا يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كلَّ ما يشاؤه إيجابًا بيّنًا.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ عُبّر عن إرسالها بالفتح إيذانًا بأنّها أَنْفَس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون، / وأعزُّها مَنالًا. وتنكيرها للإشاعة [٣٧٧و]
والإبهام، أي: أيّ شيء يفتح الله مِن خزائن رحمةٍ -أيّةَ رحمةٍ كانت- مِن نعمة

---

[١] الزهد لابن المبارك، ١/٧٤ (٢٢١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٩٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٩٦.

[٢] ذكره الواحدي في التفسير البسيط، ١٨/٤٠٠؛ والزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٩٦. وقال القرطبي: «ذكره القشيري». تفسير القرطبي، ١٤/٣٢٠.

وصحّة وأمْن وعِلم وحكمة إلى غير ذلك ممّا لا يُحاط به ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا أحدَ يقدِر على إمساكها، ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي: أيَّ شيء يُمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ أي: لا أحدَ يقدِر على إرساله. واختلاف الضميرين لِما أنّ مرجع الأوّل مفسَّر بالرحمة، ومرجعَ الثاني مطلَق يتناولُها وغيرَها، كائنًا ما كان. وفيه إشعار بأنّ رحمته سبقت غضبه. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد إمساكه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كلّ ما يشاء مِن الأمور التي مِن جملتها الفتح والإمساك، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعَل كُلَّ ما يفعل حسبما يقتضيه[1] الحِكمة والمصلحة. والجملة تذييل مقرِّر لِما قبلها ومُعرِب عن كون كلٍّ مِن الفتح والإمساك بموجَب الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين.

وبعدما بيَّن سبحانه أنّه الموجِد للمُلك والملكوت، والمتصرِّف فيهما بالقبض والبَسط مِن غير أن يكون لأحد في ذلك دخلٌ ما بوجه مِن الوجوه؛ أَمرَ الناس قاطبةً أو أهل مكّة خاصّةً بشُكر نِعَمه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنعامَه عليكم؛ إن جُعِلَت "النعمة" مصدرًا، أو كائنةً عليكم؛ إن جُعلَت اسمًا. أي: راعُوها واحفظوها بمعرفة حقّها، والاعترافِ بها، وتخصيصِ العبادة والطاعة بمُوليها.

ولمّا كانت نِعم الله تعالى مع تشعّب فُنونها منحصرةً في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نَفَى أن يكون في الوجود شيء غيرُه تعالى يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكاري المنادي باستحالة أن يُجاب عنه بِـ"نَعَمْ"، فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجود؟ على أنّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، زِيدت عليه كلمة ﴿مِنْ﴾ لتأكيد العموم، و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ نعتٌ له باعتبار محلّه، كما أنّه نعتٌ له في قراءة الجرّ[2] باعتبار لفظه. وقُرِئ بالنصب[3] على الاستثناء.

---

[1] س: تقتضيه.
[2] قرأ بجرّ "غير" حمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

وقوله تعالى: / ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بالمطر والنبات. كلام مبتدأ على التقادير، لا محلَّ له مِن الإعراب، داخلٌ في حيّز النفي والإنكار. ولا مساغَ لِما قيل[١] مِن أنّه صفة أخرى لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ مرفوعةُ المحلّ، أو مجرورتُه؛ لأنّ معناه نفيُ وجود خالقٍ موصوف بوصفَي المغايَرة والرازقيّة معًا مِن غير تعرّض لنفي وجود ما اتّصف بالمغايَرة فقط، ولا لِما قيل[٢] مِن أنّه الخبرُ للمبتدأ، ولا لِما قيل[٣] مِن أنّه مفسِّر لمُضمَرٍ ارتفع به قوله تعالى: ﴿مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ على الفاعليّة، أي: هل يرزقكم مِن خالقٍ... إلخ، لِما أنّ معناهما نفي رازقيّة خالق مغايِر له تعالى مِن غير تعرّضٍ لنفي وجوده رأسًا مع أنّه المراد حتمًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟ فإنّه استئناف مَسوق لتقرير النفي المستفادِ منه قصدًا، وجارٍ مَجرى الجواب عمّا يوهمه الاستفهام صورةً، فحيث كان هذا ناطقًا بنفي الوجود تعيّن أن يكون ذلك أيضًا كذلك قطعًا. [٣٧٧ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنّه قيل: وإذا تبيّن تفرّده تعالى بالألوهيّة والخالقيّة والرازقيّة فمِن أيّ وجه تُصرَفون عن التوحيد إلى الشرك؟

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تلوين للخِطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين خطابَي الناس مسارعةً إلى تسليته عليه السلام بعموم البليّة أوّلًا، والإشارةِ إلى الوعد والوعيد ثانيًا.

أي: وإن استمرّوا على أن يكذّبوك فيما بلّغت إليهم مِن الحقّ المبين بعد ما أقمتَ عليه الحجّةَ وألقمتَهم الحجَر فتأسَّ بأولئك الرسل في المصابَرة على ما أصابهم مِن قِبَل قومهم، فوُضع موضعَه ما ذُكر اكتفاءً بذِكر السبب عن ذكر المسبَّب.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٩٧/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٥٤/٤.

٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ١٣/٩.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٩٧/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٥٤/٤.

وتنكير "الرسل" للتفخيم الموجِب لمزيد التسلية، والتوجّهِ إلى المصابَرة،
[٣٧٨و] / أي: رسل أولو[١] شأن خطير، وذَوُو[٢] عددٍ كثير.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلًّا منك ومنهم بما أنتم عليه مِن الأحوال التي مِن جملتها صبرك وتكذيبهم. وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إبهام الجزاء ثوابًا وعقابًا مِن المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى.

وقُرئ: "تَرْجِعُ" بفتح "التاء"،[٣] مِن "الرجوع"، والأوّل أدخلُ في التهويل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ رجوع إلى خطابهم، وتكرير النداء لتأكيد العِظة والتذكير، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ المشارَ إليه بِرَجعِ الأمور إليه تعالى[٤] مِن البعث والجزاء، ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا محالةَ مِن غير خُلف، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن يُذهِلكم التمتُّع بمتاعها، ويلهيكم التلهّي بزخارفها عن تدارك ما يهمّكم يومَ حلول الميعاد. والمراد نهيُهم عن الاغترار بها وإن توجّه النهي صورةً إليها، كما في[٥] قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ [هود، ٨٩/١١].[٦]

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ وعفوِه وكرمِه تعالى ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي: المبالِغ في الغُرور، وهو الشيطان، بأن يمنّيكم المغفرةَ مع الإصرار على المعاصي قائلًا: "اعملوا ما شئتم، إنّ الله غفور يغفر الذنوب جميعًا"، فإنّ ذلك وإن أمكَن لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقّع مِن قَبيل تناول السمّ تعويلًا على دفع الطبيعة. وتكرير فعل النهي للمبالغة فيه، ولاختلاف الغُرورَين في الكيفيّة. وقُرئ: "الْغُرُورُ" بالضمّ[٧] على أنّه مصدر، أو جمع "غارّ"، كـ"قُعُود" جمع "قاعِد".

---

١ م: أولوا.
٢ م: وذووا.
٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٠٩/٢.
٤ في الآية السابقة.
٥ ط س + "لا أرَينّك ههنا".
٦ ط س – قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ [هود، ٨٩/١١].
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن سماك بن حرب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةً قديمةً لا تكاد تزول. وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ للاهتمام به. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم، وكونِكم على حذَرٍ منه في مَجامع أحوالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته، وتحذير مِن طاعته بالتنبيه على أنّ غرضَه في دعوةِ شيعته إلى اتّباع الهوى والركونِ إلى ملاذّ الدنيا ليس تحصيلَ مطالبهم ومنافعهم الدنيويّة كما هو مقصِد المتحابّين في / الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعضٍ؛ بل هو توريطُهم [٣٧٨ظ] وإلقاؤُهم في العذاب المخلَّد مِن حيث لا يحتسبون.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتّباعهم لخطواته ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادَر قدرُه، مديدٌ لا يُبلَغ مَداه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم﴾ بسبب ما ذُكر مِن الإيمان والعمل الصالح الذي مِن جملته عداوة الشيطان ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا غايةَ لهما.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ٨﴾

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ إمّا تقرير لِما سبق مِن التبايُن البَيّن بين عاقبتَي الفريقين ببيان تبايُن حالَيهما المؤدِّيَين إلى تَينِك العاقبتَين، و"الفاء" لإنكار ترتّب ما بعدها على ما قبلها،[١] أي: أبَعدَ كون حالهما كما ذُكر يكون مَن زُيِّنَ له الكفر مِن جهة الشيطان فانهمك فيه كمَن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان

---

[١] س - على ما قبلها.

والعمل الصالح حتّى لا يكون عاقبتاهما كما ذُكِر؟ فحُذف ما حُذف لدلالة ما سبق عليه. وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾... إلخ تقريرٌ له، وتحقيقٌ للحقّ ببيان أنّ الكلّ بمشيئته تعالى، أي: فإنّه تعالى يضلّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يضلّه لاستحسانِه واستحبابِه الضلالَ وصرفِ اختياره إليه، فيردّه أسفلَ سافلين، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه لصَرفِ اختياره إلى الهدى، فيرفعه إلى أعلى عِلّيّين.

وإمّا تمهيد لِما يعقُبه مِن نهيه عليه السلام عن التحسّر والتحزّن عليهم لعدم إسلامهم ببيان أنّهم ليسوا بأهلٍ لذلك؛ بل لِأن يُضرَبَ عنهم صفحًا، ولا يُبالَى بهم قطعًا، أي: أبَعدَ كون حالهم كما ذُكر تتحسّر عليهم؟ فحُذف لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ دلالةً بيّنةً.

وإمّا تمهيد[1] لصَرفه عليه السلام عمّا كان عليه مِن الحرص الشديد على إسلامهم، والمبالغةِ في دعوتهم إليه ببيان استحالة تحوّلهم عن الكفر، لكونه في غاية الحسن عندهم، أي: أبَعدَ ما ذُكر مَن زُيّن له الكفر مِن قِبل الشيطان فرآه حسنًا فانهمك فيه يقبل الهداية حتّى تطمع في إسلامه، وتُتعب نفسك
[٣٧٩و] في دعوته؟ / فحُذف ما حُذف لدلالة ما مرّ مِن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾... إلخ على أنّه مِمّن شاء الله تعالى أن يضلّه، فمَن يَهدي مَن أضلّ اللهُ، وما لهم مِن ناصرين.

وقُرئ: "فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ".[2]

وقوله تعالى: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ إمّا مفعول له، أي: فلا تَهلِك نفسُك للحسرات. والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه السلام على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجِبة للتأسّف والتحسّر. و﴿عَلَيْهِمْ﴾ صلةُ ﴿تَذْهَبْ﴾، كما يقال: "هلكَ عليه حيًّا"، و"ماتَ عليه حزنًا"، أو هو بيان للمتحسَّر عليه. ولا يجوز أن يتعلّق بـ﴿حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته، وإمّا حال، كأنّ كلّها صارت حسرات.

---

[1] السياق: إمّا تقرير... وإمّا تمهيد... وإمّا تمهيد...

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي: مِن القبائح، تعليل لِما قبله على الوجوه الثلاثة،[١] مع ما فيه مِن الوعيد.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّها نزلت في أبي جهل ومشركي مكّة.[٢]

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبتدأ وخبر. وقُرئ: "الرِّيح".[٣] وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضارًا لتلك الصورة البديعة الدالّة على كمال القدرة والحكمة، ولأنّ المراد بيان إحداثها لتلك الخاصّيّة، ولذلك أُسند إليها، أو للدلالة على استمرار الإثارة.

﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ وقُرئ بالتخفيف،[٤] ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: بالمطر النازل منه المدلولِ عليه بالسحاب، فإنّ بينهما تلازمًا في الذهن كما في الخارج، أو بالسحاب فإنّه سبَب السبَب، ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي: يُبْسِها.

وإيراد الفعلين على صيغة الماضي للدلالة على التحقّق. وإسنادهما إلى "نون" العظَمة المنبئ عن اختصاصهما به تعالى لِما فيهما مِن مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبّه به بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربّانيّة. و"الكاف" في حيّز الرفع على الخبريّة، أي: مثلُ ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياءُ الأموات في صحّة المقدوريّة وسهولةِ التأتّي مِن غير تفاوتٍ بينهما أصلًا، سوى الإلْفِ في الأوّل دون الثاني. وقيل: في كيفيّة الإحياء؛ يرسل الله تعالى / مِن تحت العرش ماءً فينبت منه أجساد الخلق.[٥] [٣٧٩ظ]

---

[١] وفي هامش م: فإنّ عِلمه تعالى بسوء صنيعهم موجِب لكلّ واحد ممّا ذُكر، مِن كونهم في العذاب الشديد، ونهيِه عليه السلام عن التحسّر، وصرفِه عليه السلام عن المبالغة في دعوتهم. «منه».

[٢] التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠١/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٦.

[٣] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

[٤] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.

[٥] من حديث طويل في المعجم الكبير للطبراني، ٣٥٤/٩ (٩٧٦١)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٤١/٤ (٨٥١٩). ولفظه فيه: «فيُرسل الله ماءً مِن تحت العرش كمَنيّ الرجال، فتنبت لُحمانهم وجُثمانهم مِن ذلك الماء كما ينبت الأرض مِن الثرى».

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ هم المشركون الذين كانوا يتعزَّزون بعبادة الأصنام، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم، ٨١/١٩]، والذين كانوا يتعزَّزون بهم مِن الذين آمنوا بألسنتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء، ١٣٩/٤]. والجمع بين ﴿كَانَ﴾ و﴿يُرِيدُ﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: له تعالى وحدَه -لا لغيره- عِزّة الدنيا وعِزّة الآخرة، أي: فليطلبها منه، لا مِن غيره، فاستُغني عن ذِكره بذِكر دليله إيذانًا بأنّ اختصاص العزّة به تعالى موجِب لتخصيص طلبها به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيان لِما يُطلب به العزّة، وهو التوحيد والعمل الصالح. وصعودهما إليه مجاز عن قَبوله تعالى إيّاهما، أو صعودِ الكَتَبة بصحيفتهما. وتقديم الجارّ والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به، كقوله تعالى: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة، ١٠٤/٩].

أي: إليه يَصل الكَلِم الطيّب الذي به يُطلَب العزّة، لا إلى الملائكة الموكَّلين بأعمال العباد فقط، وهو يُعِزّ صاحِبَه، ويعطي طِلبَتَه بالذات. والمستكِنّ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ لـ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، فإنّ مدار قبول العمل هو التوحيد، ويؤيّده القراءة بنصب ﴿ٱلْعَمَلُ﴾.[١] أو لـ﴿ٱلْعَمَلُ﴾، فإنّه يُحقِّقُ الإيمان ويقوّيه، ولا ينال الدرجات العالية إلّا به.

وقُرِئ: "يُصْعِدُ"[٢] مِن "الإصعاد" على البناءَين، والمُصعِد هو الله سبحانه، أو المتكلِّم به، أو الملَك.

وقيل: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يتناول الذِّكرَ والدعاءَ والاستغفارَ وقراءةَ القرآن.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٩/٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهم والسلَمي وإبراهيم. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨/٩.

وعنه عليه السلام «أنّه "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر"، إذا قاله العبد عرَج به الملَك إلى السماء، فحيّا بها وجهَ الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم يُقبل».[١]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما مِن عبد مسلم يقول خمس كلمات: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، وتبارك الله"، إلّا أخذَهنّ ملَك فجعلَهنّ[٢] تحت جناحه، ثمّ صعِد بهنّ، فما يَمُرّ بهنّ على جمع مِن الملائكة إلّا استغفروا لِقائلهنّ، حتّى يحيّي بهنّ وجه ربّ[٣] العالمين».[٤] ومصداقه قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾... إلخ.[٥]

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بيان لحال الكَلِم الخبيث والعمل السيّئ وأهلِهما بعد بيان حال الكَلِم الطيّب والعملِ الصالح. وانتصابُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على أنّها صفة للمصدر المحذوف، أي: يمكرون المَكرات السيّئات، وهي مَكرات قريش بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم / في دار الندوة، وتدارُؤُهم الرأي [٣٨٠و] في إحدى الثلاث التي هي الإثبات والقتل والإخراج. ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب مَكراتهم ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ لا يُقادَر قدرُه، ولا يُؤبَهُ عنده لِما يمكرون.

﴿وَمَكۡرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميّزهم بما هم فيه مِن الشرّ والفساد عن سائر المفسدين واشتهارِهم بذلك. وما فيه مِن معنى البُعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان، وبُعد منزلتهم في العدوان، أي: ومكرُ أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه السلام ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي: هو يَهلِك ويَفسد خاصّةً، لا مَن مكروا به، ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مَكراتهم، حيث أخرجهم مِن مكّة، وقتّلهم وأثبتهم في قليب بدرٍ، فجمع عليهم مَكراتِهم الثلاثَ التي اكتفَوا في حقّه عليه السلام بواحدة منهنّ.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٣.

[٢] س: فجعله.

[٣] س: الرحمن.

[٤] س – العالمين. | وهو في جامع البيان للطبري، ٣٣٨/١٩؛ والمستدرك للحاكم، ٤٦١/٢ (٣٥٨٩)، بلفظ: «وجه الرحمن».

[٥] جامع البيان للطبري، ٣٣٨/١٩؛ المستدرك للحاكم، ٤٦١/٢ (٣٥٨٩).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ دليل آخر على صحّة البعث والنشور، أي: خلقكم ابتداءً منه في ضِمن خَلق آدم عليه السلام خَلقًا إجماليًا، كما مرّ تحقيقه مِرارًا، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ خلقكم منها خَلقًا تفصيليًا، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا، أو ذُكرانًا وإناثًا. وعن قتادة: «جعل بعضكم زوجًا لبعض».[١]

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي ملتبسةً بعلمه، تابعةً لمشيئته، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: مِن أحدٍ، وإنّما سُمِّي "مُعمَّرًا" باعتبار مصيره، أي: وما يُمَدُّ في عمُر أحدٍ، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦ﴾ أي: مِن عمُر أحدٍ، على طريقة قولهم: "لا يُثيب الله عبدًا ولا يعاقبه إلّا بحقّ"، لكن لا على معنى: لا يُنقَص عمُره بعد كونه زائدًا؛ بل على معنى: لا يُجعَلُ مِن الابتداء ناقصًا.

وقيل: الزيادة والنقص في عمُرٍ واحدٍ باعتبار أسباب مختلفة أُثبِتَت في اللوح، مثل أن يُكتَب فيه: "إن حجَّ فلان فعمره ستّون، وإلّا فأربعون"، وإليه أشار صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «الصدقة والصِّلة تَعمُران الديار، وتزيدان / في الأعمار».[٢] [٣٨٠ظ]

وقيل: المراد بالنقص ما يمرّ مِن عمره وينقص، فإنّه يُكتَب في الصحيفة: "عمُره كذا وكذا سنةً"، ثمّ يُكتب تحت ذلك: "ذهبَ يوم"، "ذهبَ يومان"، وهكذا حتّى يأتي على آخره.[٣]

وقُرِئَ: "وَلَا يَنْقُصُ"[٤] على البناء للفاعل، و"مِنْ عُمْرِهِ" بسكون "الميم".[٥]

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه اللوح.[٦] وقيل: علم الله عزّ وجلّ. وقيل: صحيفة كلّ إنسان.

---

١ **جامع البيان** للطبري، ٣٤٢/١٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٣/٣.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٤/٣. وأخرجه أحمد في مسنده، ١٥٣/٤٢ (٢٥٢٥٩)، بلفظ: «وصِلة الرحم وحُسن الخُلق وحُسن الجوار يَعمران الديار، ويزيدان في الأعمار».

٣ قاله سعيد بن جبير. **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٠٢/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٠٢/٣.

٤ قرأ بها يعقوب بخُلف عن رُويس. **النشر** لابن الجزري، ٣٥٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٥.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٤/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٠/٩.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الخَلق وما بعده مع كونه مَحارًا للعقول والأفهام ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب، فكذلك البعث.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ مَثَل ضُرِب للمؤمن والكافر. و"الفُرات": الذي يكسِر العطش. و"السائغ": الذي يَسهُل انحدارُه لعُذوبته. و"الأُجاج": الذي يَحرِق بمُلوحته. وقُرئ: "سَيِّغٌ"[1] كـ"سيّدٍ"، و"سَيْغٌ" بالتخفيف.[2] و"مَلِحٌ"[3] كـ"كَتِفٍ".

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي: مِن المالح خاصّةً ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ إمّا استطراد في صفة "البحرين" وما فيهما مِن النِّعم والمنافع، وإمّا تكملةٌ للتمثيل، والمعنى: كما أنّهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان مِن حيث إنّهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات مِن الماء، لِما خالَط أحدَهما ما أفسده وغيَّره عن كمال فطرته؛ لا يساوي الكافرُ المؤمنَ وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما، لتباينهما فيما هو الخاصّيّة العظمى، لبقاء أحدهما على فطرته الأصليّة، وحِيازته لكماله اللائق دون الآخر.

أو تفضيلٌ للأُجاج على الكافر مِن حيث إنّه يشارك العذبَ في منافعَ كثيرة، والكافرُ خِلْو مِن المنافع بالكلّيّة، على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٧٤].

/ والمراد بـ"الحِلية" اللؤلؤ والمرجان. [٣٨١و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كلّ منهما. وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحِق لأنّ الخطاب لكلّ أحد تَتأتّى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط. ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقَّ للماء بجَريها مُقبِلة ومُدبِرة بريح واحدة، ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن فضل الله تعالى بالنُّقلة فيها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، وقد جُوّز تعلّقها بما يدلّ عليه الأفعال المذكورة، أي: فعلَ ذلك لتبتغوا مِن فضله.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولتشكروا على ذلك. وحرف الترجّي للإيذان بكونه مَرضيًا عنده تعالى.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بزيادة أحدهما ونقص الآخر، بإضافة بعض أجزاء كلّ منهما إلى الآخَر. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفٌ على ﴿يُولِجُ﴾. واختلافهما صيغةً لِما أنّ إيلاج أحد المَلَوين في الآخر متَجدّد حينًا فحينًا، وأمّا تسخير النيّرين فأمرٌ لا تعدّدَ فيه، وإنّما المتعدّد والمتجدّد آثارُه، وقد أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي: بحسب حركته الخاصّة وحركته القَسريّة على المدارات اليوميّة المتعدّدة حسب تعدّد أيّام السَّنة جريانًا مستمرًّا ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قدّره الله تعالى لجريانهما، وهو يوم القيامة، كما روي عن الحسَن رحمه الله تعالى.[١]

وقيل: "جريانهما" عبارة عن حركتَيهما الخاصّتَين بهما في فلكَيهما، و"الأجَل المسمّى" عن مُنتهى دورتَيهما، ومدّةُ الجريان للشمس سنة، وللقمر شهر، وقد مرّ تفصيله في سورة لقمان.[٢]

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بغاية العظَمة. وهو مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة، أي: ذلكم العظيم الشأنِ

---

١ س - تعالى. | الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٣ (لقمان، ٢٩/٣١).

٢ لقمان، ٢٩/٣١.

الذي أبدَعَ هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ وفيه مِن الدلالة على أنّ إبداعه تعالى لتلك البدائع ممّا يوجب ثبوت تلك الأخبار له ما لا يخفى. ويجوز أن يكون الأخيرُ كلامًا مبتدأً في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ للدلالة على تفرّده تعالى بالألوهيّة والربوبيّة.

وقُرئ: "يَدْعُونَ" بـ"الياء" التحتانيّة.[١] والقِطمير: لِفافة النواة، وهو مَثَل في القِلّة والحقارة.

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، كاشفٌ عن جليّة حال ما يدعونه بأنّه جماد ليس مِن شأنه السماع، ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ لعجزهم عن الأفعال بالمرّة، لا لِما قيل[٢] مِن أنّهم متبرّئون / منكم وممّا تدّعون لهم، فإنّ ذلك ممّا لا يتصوّر منهم في الدنيا. [٣٨١ظ]

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ أي: يجحدون بإشراككم لهم وعبادتِكم إيّاهم بقولهم: "ما كنتم إيّانا تعبدون".[٣]

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبِر مثلُ خبير أخبرَك به، وهو الحقّ سبحانه، فإنّه الخبير بكُنه الأمور دون سائر المخبِرين. والمراد تحقيق ما أخبر به مِن حال آلهتهم، ونفيٍ ما يدّعون لهم مِن الإلَهيّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم وفيما يعِنّ لكم مِن أمرٍ مُهمّ أو خَطب مُلِمّ. وتعريف ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ للمبالغة في فقرهم، كأنّهم لكثرة افتقارهم

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى وسلام ويعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٢١.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٦٠٥؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٦.

٣ قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [يونس، ١٠/٢٨].

وشدّةِ احتياجهم هم الفقراء فحسب، وأنّ افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٢٨/٤].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المستغني على الإطلاق، المنعمُ على سائر الموجودات، المستوجبُ للحمد.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ليسوا على صفتكم؛ بل مستمرّون على الطاعة، أو بعالَم آخر غيرَ ما تعرفونه.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإذهاب بهم والإتيانِ بآخرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذِّر ولا متعسِّر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي: لا تحمِل نفسٌ آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إثمَ نفسٍ أخرى؛ بل إنّما تحمِل كلٌّ منهما وِزرَها. وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت، ١٣/٢٩] مِن حمل المضلِّين أثقالًا غيرَ أثقالهم؛ فهو حملُ أثقالِ إضلالهم مع أثقالِ ضلالهم، وكلاهما أوزارُهم ليس فيها مِن أوزار غيرهم شيء.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقلَها الأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ليُحمَل بعضُ أوزارها، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تُجَبْ[1] بحمل شيء منه، ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي:[2] المدعوُّ المفهوم مِن الدعوة ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابة مِن الداعي. وقُرئ: "ذُو قُرْبَى".[3] وهذا نفي للحمل اختيارًا، والأوّلُ نفي له إجبارًا.

---

١ ط س: يُجَبْ.

٢ س - أي.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ استئناف مَسوق / لبيان مَن يتّعظ بما ذُكر، أي: إنّما تُنذر بهذه [٣٨٢و]
الإنذارات ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه تعالى غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلَواتهم، أو يخشون عذابه، وهو غائب عنهم، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: راعَوها كما ينبغي، وجعلوها مَنارًا منصوبًا، وعلَمًا مرفوعًا، أي: إنّما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء مِن قومك دون مَن عداهم مِن أهل التمرّد والعناد.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهّر مِن أوضار الأوزار والمعاصي بالتأثّر مِن هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أنّ مَن تدنّس بها لا يتدنّس إلّا عليها. وقُرئ: "مَنِ ازَّكّى فَإِنَّمَا يَزَّكّى"،[١] وهو اعتراض مقرِّر لخَشيتهم وإقامتهم الصلاة؛ لأنّهما مِن معظم مبادي التزكّي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فيجازيهم على تزكّيهم أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي: ولا الباطلُ ولا الحقُّ. وجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ مع إفراد ﴿ٱلنُّورُ﴾ لتعدّد فنون الباطل واتّحادِ الحقّ.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ أي: ولا الثوابُ ولا العقابُ. وإدخال ﴿لَا﴾ على المتقابلَين لتذكير نفي الاستواء، وتوسيطُها بينهما للتأكيد. و﴿ٱلْحَرُورُ﴾ "فَعُول" مِن الحَرّ، غلَب على "السَّموم". وقيل: "السَّموم" ما يهبّ نهارًا، و"الحَرور" ما يهبّ ليلًا.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغُ مِن الأوّل، ولذلك كُرّر الفعل. وأوثرَ صيغةُ الجمع في الطرفين تحقيقًا للتباين بين أفراد الفريقين. وقيل: تمثيلٌ للعلماء والجهلة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥/٩.

[٣٨٢ظ] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يُسمِعَه ويُوفّقُه لفهم آياته / والاتّعاظِ بعِظاته. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المُصرّين على الكفر بالأموات، وإشباعٌ في إقناطه عليه السلام مِن إيمانهم.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ما عليك إلّا الإنذار، وأمّا الإسماع البتّة فليس مِن وظائفك، ولا حيلةَ لك إليه في المطبوع على قلوبهم.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: محِقّين، أو محِقًّا أنت، أو إرسالًا مصحوبًا بالحقّ. ويجوز أن يتعلّق بقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا بالوعد الحقّ، ونذيرًا بالوعيد الحقّ. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي: ما مِن أمّة مِن الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ أي: مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ مِن نبيّ أو عالمٍ يُنذرهم. والاكتفاء بذكره للعلم بأنّ النِّذارة قرينة البِشارة، لا سيّما وقد اقترَنا آنفًا، ولأنّ الإنذار هو الأنسب بالمقام.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: تَمُّوا على تكذيبك، فلا تبالِ بهم وبتكذيبهم، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الأمم العاتية، ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزاتِ الظاهرة الدلالةِ على نبوّتهم، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم، ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتوارة والإنجيل والزبور على إرادة التفصيل دون الجمع، ويجوز أن يُراد بهما واحد، والعطف لتغاير العنوانين.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة، والإشعارِ بعلّةِ الأخذ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري بالعقوبة. وفيه مزيد تشديد وتهويل لها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استئناف مَسوق لتقرير ما قبله مِن اختلاف أحوال الناس ببيان

أنّ الاختلاف والتفاوت أمر مُطّرد في جميع المخلوقات مِن النبات والجماد والحيوان. والرؤية قلبيّة، أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء. والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل، لِما فيه مِن الصنع البدِيع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة.

﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: أجناسُها، أو أصنافُها، على أنّ كلًّا منها ذو أصناف مختلفة، أو هيئاتُها وأشكالُها، أو ألوانُها مِن الصُّفرة والخُضرة والحُمرة وغيرها، وهو الأوفق لِما في قوله تعالى: / ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: ذو جُدَد، [٣٨٣و] أي: خُطَطٍ وطرائقَ، ويقال: "جُدّةُ الحِمار" للخُطّة السوداء على ظهره. وقُرئ: "جُدُدٌ" بالضمّ،[١] جمع "جَديدة" بمعنى "الجُدّة"، و"جَدَدٌ" بفتحتين،[٢] وهو الطريق الواضح. ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدّة والضعف.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على ﴿بِيضٌ﴾، أو على ﴿جُدَدٌ﴾، كأنّه قيل: ومِن الجبال مخطَّط ذو جُدَدٍ، ومنها ما هو على لون واحد غرابيبُ. وهو تأكيد لمُضمَر يفسّره ما بعده، فإنّ "الغِربيب" تأكيد للأسود، كالفاقع للأصفر، والقاني للأحمر، ومِن حقّ التأكيد أن يتّبع المؤكَّد، ونظيره في الصفة قول النابغة:

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُهَا[٣]

وفي مثله مزيدُ تأكيدٍ لِما فيه التكرار باعتبار الإضمار والإظهار.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ومنهم بعضٌ مختلف ألوانه، أو وبعضُهم مختلف ألوانه، على ما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٨].

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

[٣] وفي هامش م: تمامه:

رُكبانُ مكّةَ بين الغَيلِ والسنَدِ

ديوان النابغة، ص ٢٠.

وإيراد الجملتين اسميّتين مع مشاركتهما لِما قبلهما مِن الجملة الفعليّة في الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس في الأحوال الباطنة لِما أنّ اختلاف الجبال والناس والدوابّ والأنعام فيما ذُكر مِن الألوان أمر مستمرّ، فعُبّر عنه بما يدلّ على الاستمرار، وأمّا إخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرًا حادثًا عُبّر عنه بما يدلّ على الحدوث، ثمّ لمّا كان فيه نوع خفاء عُلّقِ به الرؤية بطريق الاستفهام التقريري المنبئِ عن الحمل عليها والترغيبِ فيها، بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنّها مشاهَدةٌ غنيّة عن التأمّل، فلذلك جُرّدت عن التعليق بالرؤية، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مصدر تشبيهي لقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾، أي: صفة لمصدره المؤكِّد، تقديره: مختلف اختلافًا كائنًا كذلك، أي: كاختلاف الثمار والجبال.

وقُرئ: "أَلْوَانُهَا".[١] وقُرئ: "وَالدَّوَابِ" بالتخفيف[٢] مبالغةً في الهرب مِن التقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ تكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[٣] بتعيين مَن يخشاه عزّ وجلّ مِن الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم، وتباينِ مراتبهم، أمّا في الأوصاف المعنويّة فبطريق التمثيل، وأمّا في الأوصاف الصوريّة فبطريق التصريح، توفيةً لكلّ واحدة منهما حقَّها اللائقَ بها مِن البيان، أي: إنّما يخشاه تعالى بالغيب العالِمون به عزّ وجلّ وبما[٤] يليق به مِن صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، لِما أنّ مدارَ الخشية معرفةُ المَخشيّ والعلمُ بشئونه، فمَن كان أعلمَ به تعالى كان أخشى منه عزّ وجلّ، كما قال عليه السلام: «أنا أخشاكم لله، وأتقاكم له»،[٥] ولذلك عُقِّب بذكر أفعاله الدالّة على كمال قدرته. وحيث كان الكفرة بمَعزِل مِن هذه المعرفة امتنع إنذارهم بالكلّيّة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٠/٩.

٣ فاطر، ١٨/٣٥.

٤ س: وما.

٥ **صحيح البخاري**، ٢/٧ (٥٠٦٣)؛ **صحيح ابن حبّان**، ٢١/٢ (٣١٧).

وتقديم المفعول لأنّ المقصود حصرُ الفاعليّة، ولو أخِّر انعكس الأمر. وقُرئ برفع الاسم الجليل ونصبِ ﴿ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾،[١] على أنّ الخشية مستعارة للتعظيم، فإنّ المعظَّم يكون مَهيبًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على أنّه معاقِب للمصرّ على طغيانه، غفورٌ للتائب عن عصيانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداوِمُون على قراءته أو متابعةِ ما فيه حتّى صارت سِمةً لهم وعنوانًا. والمراد بـ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ تعالى القرآنُ. / وقيل:[٢] [٣٨٣ظ] جنسُ كُتُب الله تعالى، فيكون ثناءً على المصدِّقين مِن الأمم بعد اقتصاص حال المكذِّبين منهم، وليس بذاك، فإنّ صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعيّة تلاوته والعمل بما فيه واستتباعِهما لِما سيأتي مِن توفية الأجور وزيادة الفضل. وحَملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسّفًا ظاهرًا ممّا لا سبيل إليه، كيف لا والمقصود الترغيب في دين الإسلام والعملِ بالقرآن الناسخِ لِما بين يديه مِن الكتب؟ فالتعرّض لبيان حقّيتها قبل انتساخها والإشباعُ في ذِكر استتباعها لِما ذُكر مِن الفوائد العظيمة ممّا يُورث الرغبة في تلاوتها، والإقبالَ على العمل بها.

وتخصيص التلاوة بما لم يُنسَخ منها باطل قطعًا، لِما أنّ الباقي مشروعًا ليس إلّا حكمَها، لكن لا مِن حيث إنّه حكمها؛ بل مِن حيث إنّه حكم القرآن، وأمّا تلاوتها فبمَعزِل مِن المشروعيّة واستتباعِ الأجر بالمرّة، فتدبّر.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيفما اتّفق مِن غير قصدٍ إليهما. وقيل: "السرّ" في المسنونة، و"العلانية" في المفروضة. ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦. قال أبو حيّان: «ولعلّ ذلك لا يصحّ عنهما، وقد رأينا كُتبًا في الشواذّ، ولم يذكروا هذه القراءة». البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣١.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٧.

تحصيلَ ثوابٍ بالطاعة. وهو خبر ﴿إِنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تكسَد ولن تهلِك بالخسران أصلًا، صفةٌ للتجارة، جيء بها للدلالة على أنّها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخُسران؛ لأنّه اشتراءُ باقٍ بفانٍ. والإخبارُ برجائهم مِن أكرم الأكرمين عِدَةٌ قطعيّة بحصول مرجوّهم.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلّق بـ﴿لَّن تَبُورَ﴾،[1] على معنى أنّه ينتفي عنها الكساد، وتَنفُق عند الله تعالى، لِيوفّيَهم أجورَ أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ذلك مِن خزائن رحمته ما يشاء. وقيل: بمُضمَر دلّ عليه ما عُدَّ مِن أفعالهم المرضيّة، أي: فعلوا ذلك ليوفّيَهم... إلخ. وقيل: بـ﴿يَرْجُونَ﴾ على أنّ "اللام" للعاقبة.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لِما قبله مِن التوفية والزيادة، أي: غفور لفرطاتهم، شكور لطاعاتهم، أي: مجازيهم عليها. وقيل: هو خبرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، و﴿يَرْجُونَ﴾ حال مِن "واو" ﴿أَنفَقُوا۟﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهو القرآن، و﴿مِنَ﴾ للتبيين، أو الجنسُ، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض. وقيل: اللوحُ، و﴿مِنَ﴾ للابتداء. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: أحُقّه مصدِّقًا لِما تقدّمه مِن الكتب السماويّة. حال مؤكِّدة، لأنّ حقّيّته تستلزم موافقته إيّاه في العقائد وأصول الأحكام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ محيطٌ ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوّة لم يُوحِ إليك مثلَ هذا الحقّ المعجز الذي هو عِيارٌ على سائر الكتب. وتقديم "الخبير" للتنبيه على أنّ العمدة هي الأمور الروحانيّة.

---

[1] في الآية السابقة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ / أي: قَضينا بتوريثه منك، أو نُورِثُه. والتعبير عنه بالماضي [٣٨٤و] لتقرّره وتحقّقه. وقيل: أورثناه مِن الأمم السالفة، أي: أخّرناه عنهم، وأعطيناه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم علماء الأمّة مِن الصحابة ومَن بعدهم ممّن يسير سيرتهم، أو الأمّةُ بأسرهم، فإنّ الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، وجعَلهم أمّةً وسطًا ليكونوا شهداء على الناس، واختصّهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله عليهم الصلوات. وليس مِن ضرورة وِراثة الكتاب مراعاته حقَّ رعايته، لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيةَ [الأعراف، ١٦٩/٧].

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل به، وهو المُرْجِئُ لأمر الله، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعمل به في أغلب الأوقات، ولا يخلو مِن خَلط السيّئ، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هم السابقون الأوّلون مِن المهاجرين والأنصار. وقيل: هم المداوِمون على إقامة مواجبه علمًا وعملًا وتعليمًا، وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ -أي: بتيسيره وتوفيقه- تنبيهٌ على عزّة مَنال هذه الرتبة، وصعوبةِ مأخذها.

وقيل: "الظالم" الجاهل، و"المقتصد" المتعلّم، و"السابق" العالم.

وقيل: "الظالم" المجرم، و"المقتصِد" الذي خلَط الصالح بالسيّئ، و"السابق" الذي ترجّحت حسناته، بحيث صارت سيّئاته مكفَّرة، وهو معنى قوله عليه السلام: «أمّا الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنّة يُرزَقون فيها بغير حساب، وأمّا المقتصِد فأولئك يحاسَبون حسابًا يسيرًا، وأمّا الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يُحبَسون في طول المحشر، ثم يتلقّاهم الله تعالى برحمته».[١] وقد رُوي أنّ عمر رضي الله عنه قال وهو على المنبر: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سابِقُنا سابِق، ومقتصِدُنا ناجٍ، وظالمُنا مغفور له».[٢]

---

[١] مسند أحمد، ٥٧/٣٦ (٢١٧٢٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٨/٨.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١١١/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٥/٣.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "السبق بالخيرات"، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلوّ رتبته، وبُعد منزلته في الشرف. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن الله عزّ وعلا،[1] لا يُنال إلّا بتوفيقه تعالى.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إمّا بدل مِن ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[2] بتنزيل السبَب منزلةَ المسبَّب، أو مبتدأ خبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وعلى الأوّل هو مستأنَف. وجمع الضمير / لأنّ المراد بـ"السابق" الجنس. [٣٨٤ظ]

وتخصيص حال السابقين ومآلِهم بالذكر والسكوتُ عن الفريقين الآخَرين وإن لم يدلّ على حِرمانهما مِن دخول الجنّة مطلقًا، لكنّ فيه تحذيرًا لهما مِن التقصير، وتحريضًا على السعي في إدراك شَأْوِ السابقين.

وقُرِئ: "جَنَّاتِ عَدْنٍ"،[3] و"جَنَّةَ عَدْنٍ"،[4] على النصب بفعل يفسّره الظاهر. وقُرِئ: "يُدْخَلُونَهَا" على البناء للمفعول.[5]

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبر ثانٍ، أو حال مقدَّرة. وقُرِئ: "يَحْلَونَ"[6] مِن "حَلِيَتِ المرأةُ، فهي حالية". ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ هي جمع "أَسْوِرة" جمع "سِوار" ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى تبعيضيّة، والثانية بيانيّة، أي: يُحلّون بعضَ أساوِر مِن ذهب، كأنّه أفضل مِن سائر أفرادها. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب عطفًا على محلّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾. وقُرِئ بالجرّ[7] عطفًا على ﴿ذَهَبٍ﴾، أي: مِن ذهَبٍ مرصَّع مِن لؤلؤ، أو مِن ذهَبٍ في صفاء اللؤلؤ.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وتغيير الأسلوب قد مرّ سِرّه في سورة الحجّ.[8]

---

١ س: عزّ وجلّ.
٢ في الآية السابقة.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حُبَيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.
٥ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٤.
٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.
٨ الحج، ٢٢/٢٣.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: يقولون، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ وهو ما أهمّهم مِن خوف سوء العاقبة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حَزَنَ الأعراض والآفات».[١] وعنه: «حَزَنَ الموت».[٢] وعن الضحّاك: «حَزَنَ وسوسة إبليس».[٣] وقيل: هَمَّ المعاش. وقيل: حَزَنَ زوال النِّعم. والظاهر أنّه الجنس المنتظِم لجميع أحزان الدين والدنيا. وقُرِئ: "الْحُزْنَ".[٤]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ليس على أهل "لا إله إلّا الله" وَحشة في قبورهم ولا في مَحشَرهم، ولا في مَسيرهم، وكأنّي بأهل "لا إله إلّا الله" يخرجون مِن قبورهم، يَنفضون التراب عن وجوههم، ويقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾».[٥] ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾ أي: للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ أي: دارَ الإقامة التي لا انتقال عنها / أبدًا. ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ مِن إنعامه وتفضّله مِن غير أن يوجبه شيء مِن قِبَلنا، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ﴾ تعب، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ كَلال. والفرق بينهما أنّ "النَّصَب" نفس المشقّة والكُلفة، و"اللُّغوب" ما يحدث منه مِن الفتور. والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الأوّل له وتكريرُ الفعل المنفيّ للمبالغة في بيان انتفاء كلّ منهما. [٣٨٥و]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣. وفي جامع البيان للطبري، ٣٧٧/١٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حَزَن النار».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣. وذكره البغوي في معالم التنزيل، ٤٢٣/٦، عن قتادة.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٤٣/١٦.

٥ المعجم الأوسط للطبراني، ١٨١/٩ (٩٤٧٨)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٦/٣.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحكم عليهم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ ويستريحوا. ونصبه بإضمار "أن". وقُرئ: "فَيَمُوتُونَ"[1] عطفًا على ﴿يُقْضَىٰ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات، ٣٦/٧٧].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلّما خَبَتْ زِيد إسعارها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالِغ في الكفر أو الكفران، لا جزاءً أخفَّ وأدنى منه. وقُرئ: "يُجْزَى"[2] على البناء للمفعول، وإسناده إلى "الكُلّ". وقُرئ: "نُجَازِي".[3]

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون. و"الاصطِراخ" "افتِعال" مِن "الصُّراخ"، استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوتَه.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول. وتقييدُ العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسّر على ما عملوه مِن غير الصالح والاعترافِ به، والإشعارِ بأنّ استخراجهم لتلافيه، وأنّهم كانوا يحسبونه صالحًا، والآن تبيّن خلافه.

وقوله تعالى:[4] ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جواب مِن جهته تعالى، وتوبيخ لهم. و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام. و﴿مَا﴾ نكرة موصوفة، أي: أَلَم نُمهِلكم، أو أَلَم نؤخِّركم ولم نُعمِّركم عُمُرًا يتذكّر فيه مَن تذكّر، أي: يتمكّن فيه المتذكِّر مِن التذكّر / والتفكّرِ. قيل: [٣٨٥ظ] هو أربعون سنةً. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[5] «ستّون سنةً»،[6] ورُوي ذلك

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.
[2] قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.
[3] كذلك وقع ضبطها في الأصول الخطّيّة، ولم أجدها كذلك في المصادر، ولعلّ الصواب "يُجَازَى" بـ"الياء" وفتح "الزاي"؛ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.
[4] س – وقوله تعالى.
[5] م – رضي الله عنهما.
[6] جامع البيان للطبري، ٣٨٤/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٤/٨.

عن عليّ رضي الله تعالى عنهم،[١] وهو العمر الذي أعذَرَ الله فيه إلى ابن آدم، قال عليه السلام: «أعذَرَ الله إلى امرئ أخَّر أجَله حتّى بلغ ستّين سنةً».[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عطفٌ على الجملة الاستفهاميّة؛ لأنّها في معنى: قد عمّرناكم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝ وَوَضَعۡنَا﴾... إلخ [الشرح، ٩٤/١-٢]؛ لأنّه في معنى: قد شرَحْنا... إلخ، والمراد بـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو ما معه مِن القرآن. وقيل: العقل. وقيل: الشيب. وقيل: موت الأقارب. والاقتصار على ذكر "النذير"؛ لأنّه الذي يقتضيه المقام.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها مِن التعمير ومجيءِ النذير.[٣] وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ للتعليل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالإضافة. وقُرئ بالتنوين ونصبِ "غَيْبَ"[٤] على المفعوليّة، أي: لا يخفى عليه خافية فيهما، فلا يخفى عليه أحوالهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قيل: إنّه تعليل لِما قبله؛ لأنّه إذا عَلِم مضمَرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلمَ بغيرها.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ۝٣٩﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقال للمستخلَف: "خليفة"، و"خَليف"، والأوّلُ يُجمع "خَلائف"، والثاني "خُلفاء". والمعنى: أنّه تعالى جعلكم خلفاءَه في أرضه، وألقى إليكم مقاليد التصرّف فيها، وسلَّطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها، أو جعلكم خلفاء ممَّن قبلكم مِن الأمم، وأورَثكم ما بأيديهم مِن متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة.

---

[١] س: عنه. | جامع البيان للطبري، ١٩/٣٨٦؛ واللباب لابن عادل، ١٦/١٤٨.

[٢] مسند أحمد، ١٣/١٣٩ (٧٧١٣)؛ صحيح البخاري، ٨/٨٩ (٦٤١٩).

[٣] س + النذير.

[٤] أي: "عَالِمٌ غَيْبَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٧.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم مثلَ هذه النعمة السنيّة وغَمِطَها ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالَ كُفرِه، لا يتعدّاه إلى غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيان لوَبال الكفر وغائلته، وهو مَقتُ الله تعالى إيّاهم، أي: بغضُه الشديد الذي ليس وراءَه خزي وصَغار، / وخَسارُ الآخرةِ الذي ما بعده شرّ وخَسار. والتكرير لزيادة التقرير، والتنبيهِ على أنّ اقتضاء الكفر لكلّ واحد مِن الأمرَين الهائلَين القبيحَين بطريق الاستقلال والأصالة. [٣٨٦و]

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: آلهتَكم، والإضافة إليهم لأنّهم جعلوهم شركاءَ لله تعالى مِن غير أن يكون له أصل ما أصلًا. وقيل: جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه،[١] ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، كأنّه قيل: أخبروني عن شركائكم، أرُوني أيَّ جزء خَلقوا مِن الأرض. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أم لهم شركة مع الله سبحانه في خَلق السماوات ليستحقّوا بذلك شركة في الألوهيّة ذاتيّة.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنّا اتّخذناهم شركاء، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: حجّةٍ ظاهرةٍ مِن ذلك الكتاب بأنّ لهم شركةً جَعليّةً. ويجوز أن يكون ضمير ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾... إلخ [الروم، ٣٠/٣٥]. وقُرئ: "عَلَى بَيِّنَاتٍ"،[٢] وفيه إيماء إلى أنّ الشرك أمرٌ خطير لا بدَّ في إثباته مِن تعاضد الدلائل.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٦١.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر والكسائي ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٢.

﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لمّا نُفِي أنواعُ الحجج في ذلك أُضرِبَ عنه بذِكر ما حملهم عليه، وهو تغريرُ الأسلاف للأخلاف، وإضلالُ الرؤساء للأتباع، بأنّهم شفعاء عند الله، يشفعون لهم بالتقرّب إليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ استئناف مَسوق لبيان غاية قُبح الشرك وهَوْلِه، أي: يُمسكهما كراهةَ زوالهما، أو يمنعهما أن تزولا؛ / لأنّ الإمساك منع. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما ﴿مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ [٣٨٦ظ]
مِن بعد إمساكه تعالى، أو مِن بعد الزوال. والجملة سادّة مسدَّ الجوابَين، و﴿مِنۡ﴾ الأولى مَزيدة لتأكيد العموم، والثانية للابتداء.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ غيرَ معاجِل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتَين بأن تُهَدَّا هدًّا حسبما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [مريم، ١٩/٩٠]. وقُرئ: "وَلَوْ زَالَتَا".[١]

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾ بلغ قريشًا قبلَ مَبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أَتَتهم الرسل فكذّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى مِن إحدى الأمم اليهودِ والنصارى وغيرِهم، أو مِن الأمّة التي يقال لها: "إحدى الأمم"، تفضيلًا لها على غيرها في الهدى والاستقامة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ وأيُّ نذير؛ أشرفُ الرسل عليهم السلام ﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ أي: النذير أو مجيئُه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعدًا عن الحقّ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدل مِن ﴿نُفُورًا﴾،[١] أي: مفعول له ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أصلُه: "وأن مكَروا السَّيّئ"، أي: المكرَ السيّئ، ثمّ "ومكرًا السيّئ"، ثمّ ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾. وقُرئ بسكون "الهمزة" في الوصل،[٢] ولعلّه اختلاس ظُنَّ سكونًا، أو وقفةٌ خفيفة.[٣] وقُرئ: "مَكْرًا سَيِّئًا".[٤]

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنّة الله فيهم بتعذيب مكذّبيهم، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأن يضع موضعَ العذاب غيرَ العذاب، / ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقله [٣٨٧و] مِن المكذّبين إلى غيرهم. و"الفاء" لتعليل ما يفيده الحكمُ بانتظارهم العذابَ مِن مجيئه. ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارةٌ عن نفي وجودها بالطريق البرهاني. وتخصيصُ كلّ منهما بنفيٍ مستقلٍّ لتأكيد انتفائهما.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهاد على ما قبلَه مِن جرَيان سنّته تعالى على تعذيب المكذّبين بما يشاهدونه في مسائرهم إلى الشام واليمن والعراق مِن آثار دمار الأمم الماضية العاتية. و"الهمزة" للإنكار والنفي. و"الواو" للعطف على مقدَّر يليق بالمقام، أي: أَقَعَدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة مَن قبلهم؟

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.

[٣] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٦١٩/٣، ونقل القرطبي عن القشيري قوله: «وقرأ حمزة: "وَمَكْرَ السَّيِّئْ" بسكون "الهمزة"، وخطّأه أقوام، وقال قوم: لعلّه وقفَ عليه لأنّه تمام الكلام، فغلط الراوي... وقلنا: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قرأه فلا بدّ مِن جوازه، ولا يجوز أن يُقال: إنّه لَحن، ولعلّ مراد مَن صار إلى التخطئة أنّ غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحًا». تفسير القرطبي، ٣٥٩/١٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ وأطولَ أعمارًا، فما نفعهم طولُ المدَى، وما أغنى عنهم شدّة القوى. ومحلّ الجملة النصب على الحاليّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: ليسبقَه ويفوته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتراض مقرِّر لِما يُفهم ممّا قبله مِن استئصال الأمم السالفة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ أي: مبالِغًا في العلم والقدرة، ولذلك عَلِم بجميع أعمالهم السيّئة، فعاقبَهم بموجَبها؛ تعليلٌ لذلك.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعًا ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن السيّئات كما فُعل بأولئك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ أي: على ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ مِن نَسَمة تدبّ عليها مِن بني آدم. وقيل: ومِن غيرهم أيضًا مِن شؤم معاصيهم. وهو المرويّ عن ابن مسعود وأنس رضي الله تعالى[1] عنهما.[2] ويعضد الأوّلَ قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهو يوم القيامة، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم، إن خيرًا فخَير، وإن شرًّا فشرّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنّة؛ أنِ ادخل مِن أيّ باب شئت».[3]

---

١ س - تعالى.

٢ رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «كادَ الجُعل يُعذَّب في جُحره بذنب ابن آدم»، ثم قرأ هذه الآية. وروي عن أنس رضي الله عنه: «إنّ الضبّ ليموت هزلًا في جُحره بذَنب ابن آدم». **الكشف والبيان** للثعلبي، ١١٧/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦١٩/٣.

٣ ط س + تم. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩٧/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٠٠/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣٥

سورة فاطر

مكية، وهي خمس أو ست وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿**الحَمدُ لِلهِ**﴾ ـ حَمِدَ الله ـ تعالى ـ نفسَه بذلك كما بُيِّن في أوَّل سورة «سبأ» ـ ﴿**فاطِرِ السَّماواتِ والأرضِ**﴾: خالقِهما على غير مِثال سَبقَ، ﴿**جاعِلِ المَلائكةِ رُسُلاً**﴾ إلى الأنبياء ﴿**أُولِي أجنِحةٍ مَثنَى وثُلاثَ ورُباعَ، يَزيدُ في الخَلقِ**﴾ في الملائكة وغيرها ﴿**ما يَشاءُ. إنَّ اللهَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، ما يَفتَحِ اللهُ لِلنّاسِ مِن رَحمةٍ**﴾ كرِزق ومطر ﴿**فلا مُمسِكَ لَها، وما يُمسِكْ**﴾ من ذلك ﴿**فلاَ مُرسِلَ لَهُ مِن بَعدِهِ**﴾ أي: بعدِ إمساكه، ﴿**وهُوَ العَزِيزُ**﴾: الغالب على أمره ﴿**الحَكِيمُ**﴾ في فِعله.

٣ ـ ﴿**يا أيُّها النّاسُ**﴾ أي أهلَ مكّة، ....

سورة فاطر

قولُه: (إلى الأنبيَاءِ) أو وسائِطَ بينَ اللهِ وبينَ أنبيائِهِ وأوليائِهِ بالوَحْيِ، والإلهامِ، والرُّؤيا الصَّادقةِ.

قولُه: (وغيرِهَا) الأولى: وغيرِهم، والآيَةُ متناوِلَةٌ زياداتِ الصُّوَرِ والمعاني؛ كمَلاحَةِ الوجْهِ، وحُسنِ الصَّوتِ، وحصافَةِ العقلِ، وسماحةِ النَّفسِ، وعن ابنِ مسعودٍ بالحاءِ المهملةِ[1].

قولُه: (ومَطَرٍ) ونعمَةٍ، وأمنٍ، وصِحَّةٍ، وعِلمٍ، وعَمَلٍ، ونبوَّةٍ، وولايَةٍ.

قولُه: (مِنْ ذلِكَ) الظَّاهرُ: منها ومن غيرِها؛ إذِ اختلافُ الضَّميرَينِ في المجرورَينِ؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ الأوَّلَ: مفسَّرٌ بالرَّحمةِ، والثَّاني: مطلقٌ يتناولُها والغضب، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَهُ سبقَت غضبَهُ.

قولُه: (أيْ: أهْلَ مكَّةَ) تقييدٌ عنِ المرادِ بعيدٌ، فإنَّهم ـ وإن كانوا أهلَ زمَنِ النُّزولِ ـ لا يختصُّ الحُكمُ بهم،

---

(١) أي: (يزيد في الحلق) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٩٤).

﴿اذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ علَيكُم﴾ بإسكانكم الحرمَ ومنع الغارات عنكم. ﴿هَل مِن خالِقٍ﴾ ـ من: زائدةٌ، وخالقٍ: مبتدأ ـ ﴿غَيرُ اللهِ﴾، بالرفع والجرّ: نعتٌ لـ «خالق» لفظًا ومحلًّا، وخبر المُبتدأ: ﴿يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ﴾ المطرَ ﴿و﴾ من ﴿الأرضِ﴾ النباتَ؟ والاستفهام للتقرير، أي: لا خالقَ رازقٌ غيرُه. ﴿لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ. فأنّى تُؤفَكُونَ﴾: من أين تُصرَفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق؟ ٤ ـ ﴿وإن يُكَذِّبُوكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ في مجيئك بالتوحيد والبعث والحِساب والعِقاب ﴿فقَد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبلِكَ﴾ في ذلك. فاصبر كما صبروا. ﴿وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمُورُ﴾ في الآخرة، فيُجازي المُكذّبين، وينصر المُرسَلِينَ.

٥ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ، إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث وغيره ﴿حَقٌّ. فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنيا﴾ عن الإيمان بذلك، ﴿ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ﴾ في حِلمه وإمهاله ﴿الغَرُورُ﴾: الشيطانُ. ٦ ـ ﴿إنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ. فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بطاعة الله ولا تُطيعوه. ﴿إنّما يَدعُو حِزبَهُ﴾: أتباعه في الكُفر ﴿لِيَكُونُوا مِن أصحابِ السَّعِيرِ﴾: النار الشديدة. ٧ ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم عَذابٌ شَدِيدٌ، والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُم مَغفِرةٌ وأجرٌ كَبِيرٌ﴾. هذا بيانُ ما لمُوافقِي الشيطان وما لمُخالفِيه.

ونزل في أبي جهل وغيره: ٨ ـ ﴿أفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ بالتمويه،.........

فإنَّ العبرَةَ بعمومِ اللَّفظِ وهم يدخُلونَ دخولاً أوَّليًّا، وأمَّا ما قيلَ: من أنَّ كلَّ ما كانَ في القرآنِ من قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهُم أهلُ مكَّةَ، ومن قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهُم أهلُ المدينةِ، فليسَ مرادُهُ أنَّهُم المرادُ فقط، بل المرادُ أنَّ تلكَ الآيةَ مكّيَّةٌ، والأخرى مدنيَّةٌ.

قولُه: (بإِسْكَانِكُم) قالَ تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

قولُه: (والجَرِّ) حمزةُ والكسائيُّ(١).

قولُه: (لَفظاً ومَحَلًّا) نَشرٌ مُشَوَّش.

قولُه: (للتَّقرِيرِ) الظَّاهرُ: أنَّه للنَّفي.

قولُه: (ويَنصُرُ المُسلِمِينَ) الأَولى: ويثبِّتُ المصدِّقينَ.

قولُه: (عَنِ الإِيمَانِ) فيشغلُكُم بالتَّمتُّعِ بها والتَّنعُّمِ فيها عن طَلَبِ الآخرَةِ والسَّعي لها.

قولُه: (الشَّيطَانُ) بأن يمنِّيَكُمُ المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصيَةِ، أو بأن يقولَ: لا ثوابَ ولا عِقابَ.

قولُه: (هَذا بَيَان) وقطعٌ للأماني الفارغَةِ، وبناءٌ للأمرِ كُلِّهِ على الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِحِ.

قولُه: (بالتَّمْوِيهِ) بأن غَلَبَ وهمُهُ وهواهُ على عقلِهِ حتَّى انتكَسَ رأيُهُ، فرأى الباطِلَ حَقًّا والقَبيحَ حُسْناً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

﴿فرَآهُ حَسَنًا﴾ مَن: مبتدأ خبرُه: كمن هداه اللهُ؟ لا. دلّ عليه: ﴿فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ، ويَهدِي مَن يَشاءُ ـ فلا تَذهَبْ نَفسُكَ علَيهِم﴾: على المُزيَّن لهم ﴿حَسَراتٍ﴾ باغتمامك أن لا يُؤمنون. ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصنَعُونَ﴾ فيُجازيهم عليه ـ ٩ ـ ﴿واللهُ الَّذِي أرسَلَ الرِّياحَ﴾ ـ وفي قراءة: «الرِّيحَ» ـ ﴿فتُثِيرُ سَحابًا﴾، المضارعُ لحكاية الحال الماضية، أي: تُزعِجه، ﴿فسُقْناهُ﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة ـ ﴿إلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾، بالتشديد والتخفيف: لا نباتَ بها، ﴿فأحيَينا بِهِ الأرضَ﴾ من البلد ﴿بَعدَ مَوتِها﴾: يُبسها، أي: أنبتْنا به الزرع والكلأ. ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ أي: البعثُ والإحياء.

١٠ ـ ﴿مَن كانَ يُرِيدُ العِزّةَ فلِلّهِ العِزّةُ جَمِيعًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فلا تُنال منه إلاّ بطاعته، فليُطِعْهُ. ﴿إلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: يعلمُه ـ وهو «لا إلـهَ إلاّ اللهُ»........................

قولُه: (باغتِمَامِكَ) أي: لا تُهلِكْ نفسَكَ عليهم للحَسَراتِ على غَيِّهِم.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لمكّيٍّ وحمزةَ والكسائيِّ[١].

قولُه: (المَاضِيَةِ) استِحضاراً لتلك الصُّورةِ البديعَةِ الدَّالَّةِ على كمالِ القُدرَةِ والحِكمَةِ.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) نافعٌ وكوفيٌّ غيرُ شعبةَ[٢].

قولُـه تعالـى: (﴿فَأَحْيَيْنَـا بِـهِ﴾) أي: بالمَطَـرِ النَّـازلِ منـه، وذِكـرُ السَّـحابِ كذِكـرِهِ، أو: بالسَّـحابِ فإنَّه سببُ السَّببِ.

قولُه: (والإِحْيَاءُ) أي: مِثلُ إحياءِ المواتِ نشورُ الأمواتِ في صحَّةِ المقدوريَّةِ.

قولُه: (فلا تَنَالُ إلَّا مِنْهُ بِطَاعَتِهِ) وفي نسخةٍ: «فلا تُنَالُ منهُ إلَّا بطاعتِهِ»[٣] والأُولى هي الأَولى.

قولُه: (يعلمُهُ) يعني: الصُّعودُ إليه مجازٌ عن علمِهِ، والمشهورُ عن المفسِّرينَ أنَّه مجازٌ عن القَبولِ، وفي «المدارِكِ»: إلى محَلِّ القَبولِ[٤].

قولُه: (وَهُوَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) اقتصَرَ عليه الجمهورُ من السَّلفِ[٥]، وفي «المدارِكِ»: ﴿الْكَلِمُ الْطَّيِّبُ﴾:

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٣)، و«حجة القراءات» (ص: ١٥٩).

(٣) وهكذا هي في نسخ المتن.

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٧٩).

(٥) جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿كلمة طيبة﴾ [إبراهيم: ٢٤].

رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠٦٥٨)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٩٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ونحوُها ـ ﴿والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ﴾: يقبله، ﴿والَّذِينَ يَمكُرُونَ﴾ المكَراتِ ﴿السَّيِّئاتِ﴾ بالنبيّ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه كما ذُكر في «الأنفال» ﴿لَهُم عَذابٌ شَدِيدٌ، ومَكرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: يَهلِك.

١١ ـ ﴿واللهُ خَلَقَكُم مِن تُرابٍ﴾ بخلق أبيكم آدم منه، ﴿ثُمَّ مِن نُطفَةٍ﴾ أي: مَنِيٍّ بخلق ذُرّيّته منها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُم أزواجًا﴾: ذُكورًا وإناثًا، ﴿وما تَحمِلُ مِن أُنثَى ولا تَضَعُ إلاّ بِعِلمِهِ﴾: حالٌ، أي: معلومةً له، ﴿وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ﴾ أي: ما يُزاد في عُمرِ طويلِ العُمر، ﴿ولا يُنقَصُ مِن عُمُرِهِ﴾ أي: ذلك المُعمَّرِ أو مُعمَّرٍ آخَرَ، ﴿إلاّ في كِتابٍ﴾، هو اللوح المحفوظ. ﴿إنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾: هيِّنٌ.

كلماتُ التَّوحيدِ؛ أي: لا إلهَ إلَّا الله[١]، فأشارَ إلى أنَّ الجمعَ باعتبارِ الذَّواتِ، ويحتمِلُ أن يكونَ باختلافِ الأوقاتِ.

قولُه: (ونَحْوُهَا) قالَ القاضي[٢]: وقيلَ: ﴿الكلم الطيب﴾ يتناولُ الذِّكرَ، والدُّعاءَ، وقراءةَ القرآنِ.

قولُه: (يَقْبَلُهُ) فالمُستكَنُّ للهِ، وعن ابنِ عبَّاسٍ وأكثرِ المفسِّرينَ: أنَّهُ لـ﴿الكلم﴾[٣]، فإنَّ العملَ لا يُقبَلُ إلَّا بالتَّوحيدِ، وقيل: للعملِ فإنَّه يحقِّقُ الإيمانَ ويقوِّيه.

قولُه: (يَهلِكُ) أي: يفسُدُ ولا ينفُذُ؛ لأنَّ المقدَّرَ لا يتغيَّرُ.

قولُه: (ذُكُوراً) أو أصنافاً من عرَبٍ وعَجَمٍ.

قولُه: (طَوِيلِ العُمُرِ) أي: مِن مصيرِهِ إلى الكِبَرِ.

قولُه: (أي: ذَلِكَ المُعَمَّرِ) يعني: الزِّيادةُ والنُّقصَانُ في عمُرٍ واحدٍ بأسبابٍ مختلفةٍ أُثبِتَتْ في اللَّوحِ، مِثلَ أن يكونَ فيه: إن حَجَّ زيدٌ فعمرُهُ ستُّونَ، وإلَّا فأربعونَ.

وقيل: المرادُ بالنُّقصانِ: ما يمرُّ من عُمُرِه وينتقصُ، فإنَّه يُكتَبُ في صحيفَةِ عُمُرِه يوماً فيوماً، أو للمُعمَّرِ؛ أي: ذي عُمُرٍ، على التَّسامحِ فيه ثقةً بفهمِ السَّامعِ.

قولُه: (أو مُعَمَّرٍ آخَرَ) أي: مِن عُمُرِ المعمَّرِ لغيرِه، بأن يُعطى له عُمرٌ ناقصٌ من عمرِهِ، أو: لا يُنقَصُ من عُمُرِ المنقوصِ عمرُهُ بجعلِهِ ناقصاً، والضَّميرُ للمنقوصِ وإن لم يُذكَرْ؛ لدلالةِ مقابِلِه عليه.

قولُه: (هُوَ اللَّوحُ) أو الصَّحيفَةُ، أو عِلمُ اللهِ.

قولُه: (هَيِّنٌ) والإشارةُ إلى الحفظِ، أو الزِّيادةِ والنَّقصِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٧٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٥٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤٥) عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة.

١٢ ـ ﴿وما يَستَوِي البَحرانِ، هذا عَذبٌ فُراتٌ﴾: شديد العُذوبة ﴿سائغٌ شَرابُهُ﴾: شُربه، ﴿وهذا مِلحٌ أُجاجٌ﴾: شديد المُلوحة، ﴿ومِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تأكُلُونَ لَحمًا طَرِيًّا﴾ هو السَّمك، ﴿وتَستَخرِجُونَ﴾ من المِلح، وقيل: منهما ﴿حِليَةً تَلبَسُونَها﴾ هي اللؤلؤ والمَرجان، ﴿وتَرَى﴾: تُبصِر ﴿الفُلكَ﴾: السُّفن ﴿فِيهِ﴾: في كُلّ منهما ﴿مَواخِرَ﴾: تمخر الماء، أي: تشقّه بجريها فيه مُقبِلة ومُدبرة بريح واحدة، ﴿لِتَبتَغُوا﴾: تطلبوا ﴿مِن فَضلِهِ﴾ ـ تعالى ـ بالتجارة، ﴿ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ اللهَ على ذلك.

١٣ ـ ﴿يُولِجُ﴾: يُدخِلُ اللهُ ﴿اللَّيلَ في النَّهارِ﴾ فيزيد، ﴿ويُولِجُ النَّهارَ﴾: يُدخِله ﴿في اللَّيلِ﴾ فيزيد، ﴿وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجرِي﴾ في فَلكه ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾: يومِ القيامة. ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لَهُ المُلكُ، والَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهم الأصنام ـ ﴿ما يَملِكُونَ مِن قِطمِيرٍ﴾: لِفافة النواة، ١٤ ـ ﴿إن تَدعُوهُم لا يَسمَعُوا دُعاءَكُم، ولَو سَمِعُوا﴾ ـ فَرَضًا ـ ﴿ما استَجابُوا لَكُم﴾: ما أجابوكم، ﴿ويَومَ القِيامةِ يَكفُرُونَ بِشِركِكُم﴾: بإشراككم إياهم مع الله، أي: يتبرّؤون منكم ومن عِبادتكم إياهم. ﴿ولا يُنَبِّئُكَ﴾ بأحوال الدارين ﴿مِثلُ خَبِيرٍ﴾: عالم، وهو الله تعالى.

١٥ ـ ﴿يا أَيُّها النّاسُ، أَنتُمُ الفُقَراءُ إِلَى اللهِ﴾ بكُلّ حال، ﴿واللهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿الحَمِيدُ﴾ المحمود في صُنعه بهم، ١٦ ـ ﴿إن يَشَأْ يُذهِبْكُم ويأتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلَكم، ١٧ ـ ﴿وما ذلِكَ علَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾: شديد.

قولُه: (شَدِيدُ العُذُوبَةِ) الَّذي يكسِرُ العطشَ.

قولُه: (شُرْبُهُ) أي: شُرْبُ شرابِهِ؛ إذِ السَّائغُ: الَّذي يسهُلُ انحدارُه.

قولُه: (شَدِيدُ المُلُوحَةِ) الَّذي يُحرِقُ لملوحتِهِ، مَثَلٌ للمؤمنِ والكافرِ.

قولُه: (مِنَ المِلْحِ) فيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ الحِليَةَ زينةُ الكفَّارِ غالباً.

قولُه: (وقِيلَ: مِنهُمَا) وهو الظَّاهرُ من ﴿كُلٍّ﴾.

قولُه: (برِيْحٍ وَاحِدَةٍ) أو برياحٍ مختلِفَةٍ.

قولُه: (بالتِّجَارَةِ) والنُّقلَةِ فيها.

قولُه: (يَومِ القِيَامَةِ) أو مدَّةَ دورِ كُلٍّ، أو منتهاهُ.

قولُه: (مَا أَجَابُوكُم) لعَدَمِ قُدرَتِهم.

قولُه: (عَالِم) بها أخبرَكَ.

قولُه: (بَدَلَكُم) أي: بقومٍ آخرينَ أطوَعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرَ ما تعرفونَهُ.

قولُه: (شَدِيدٍ) أي: متعذِّرٍ أو متعسِّرٍ.

١٨ ـ ﴿ولا تَزِرُ﴾ نفسٌ ﴿وازِرةٌ﴾: آثمة، أي: لا تحمل ﴿وِزرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخرَى، وإن تَدعُ﴾ نفسٌ ﴿مُثقَلةٌ﴾ بالوِزر ﴿إلَى حِملِها﴾ منه أحدًا ليحمل بعضَه ﴿لا يُحمَلْ مِنهُ شَيءٌ، ولَو كانَ﴾ المدعوُّ ﴿ذا قُربَى﴾: قرابةٍ كالأب والابن. وعدمُ الحمل في الشِّقّين حُكمٌ من الله. ﴿إنَّما تُنذِرُ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم بِالغَيبِ﴾ أي: يخافونه وما رأوه لأنهم المنتفعون بالإنذار، ﴿وأقامُوا الصَّلاةَ﴾: أداموها، ﴿ومَن تَزَكَّى﴾: تطهّرَ من الشِّرك وغيره ﴿فإنَّما يَتَزَكَّى لِنَفسِهِ﴾: فصلاحهُ مُختصّ به، ﴿وإلَى اللهِ المَصِيرُ﴾: المَرجِعُ فيَجزي بالعمل في الآخرة.

١٩ ـ ﴿وما يَستَوِي الأعمَى والبَصِيرُ﴾: الكافر والمؤمن، ٢٠ ـ ﴿ولا الظُّلُماتُ﴾: الكُفر ﴿ولا النُّورُ﴾: الإيمان، ٢١ ـ ﴿ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ﴾: الجنّة والنار، ٢٢ ـ ﴿وما يَستَوِي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾: المؤمنون والكُفّار. وزيادة «لا» في الثلاثة تأكيد...

قولُه: (نَفْسٌ) أي: إِثْمَ نَفْسٍ[1].

قولُه: (مِنْهُ) أي: إلى أن تحمِلَ حِملَها.

قولُه: (المَدْعُوُّ) أو الدَّاعي، يدلُّ عليه: ﴿وإِنْ تَدْعُ﴾.

قولُه: (في الشِّقَّينِ) يعني: نَفى أن يحمِلَ عنها ذَنْبَها كما نفى أن يَحمِلَ عليها ذَنْبَ غيرِها.

قولُه: (ومَا رَأَوْهُ) أي: غائبينَ عن عذابِهِ، أو: غائِباً عنهم عذابُهُ.

وقيلَ: غائبينَ عن النَّاسِ في خَلَواتِهم كما يخشَونَ في جَلَواتِهم.

قولُه: (لأَنَّهُم) تَعليلٌ للتَّخصيصِ المفهومِ من الحصْرِ.

قولُه: (فَصَلاحُهُ) أي: نفعُهُ.

قولُه: (الكَافِرُ) وقيلَ: مَثَلانِ للصَّنَمِ وله تَعالى.

قولُه: (الكُفْرُ) أو الباطِلُ.

قولُه: (الإِيمَانُ) أو الحقُّ.

قولُه: (الجَنَّةُ) أو الثَّوابُ والعِقابُ.

قولُه: (في الثَّلاثَةِ) يعني: المواضِعَ الثَّلاثَةَ مكرَّرةً في الأوَّلينِ وغيرَ مكرَّرةٍ في الأخيرِ، فشملَ التَّأكيدَ والزِّيادةَ اللَّذينِ أشارَ إليهما البيضاويُّ بقولِهِ: و﴿لا﴾ لتأكيدِ نفيِ الاستواءِ وتكريرُها على الشِّقَّينِ لزيادةِ

---

(١) أي: ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نَفسٍ أُخرى.

﴿إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ﴾ هِدايتَه فيُجيبه بالإيمان، ﴿وما أنتَ بِمُسمِعٍ مَن في القُبُورِ﴾ أي: الكُفّار. شبّههم بالموتى، فلا يجيبون. ٢٣ ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿أنتَ إلاّ نَذيرٌ﴾: مُنذرٌ لهم.

٢٤ ـ ﴿إنّا أرسَلْناكَ بِالحَقِّ﴾: الهُدى ﴿بَشِيرًا﴾ مَن أجاب إليه، ﴿ونَذِيرًا﴾ مَن لم يُجب إليه، ﴿وإنْ﴾: ما ﴿مِن أُمّةٍ إلاّ خَلا﴾: سلفَ ﴿فِيها نَذِيرٌ﴾: نبيٌّ يُنذرها، ٢٥ ـ ﴿وإن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: أهلُ مكّة ﴿فقَد كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم، جاءَتْهم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: المُعجزات ﴿وبِالزُّبُرِ﴾ كصُحف إبراهيم ﴿وبِالكِتابِ المُنِيرِ﴾ هو التوراة والإنجيل ـ فاصبر كما صبروا ـ ٢٦ ـ ﴿ثُمَّ أخَذتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيبهم، ﴿فكَيفَ كانَ نَكِيرِ﴾: إنكاري عليهم بالعُقوبة والإهلاك؟ أي: هو واقعٌ موقعه.

٢٧ ـ ﴿ألَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة ـ ﴿بِهِ ثَمَراتٍ مُختَلِفًا ألوانُها﴾ كأخضرَ وأحمرَ وأصفرَ وغيرِها، ﴿ومِنَ الجِبالِ جُدَدٌ﴾: جمع جُدّةٍ: طريقٍ في الجبل وغيرِه، ﴿بِيضٌ وحُمرٌ﴾ وصفر ﴿مُختَلِفٌ ألوانُها﴾ بالشِّدّة والضعف، ﴿وغَرابِيبُ سُودٌ﴾: عطف على «جدد» ....

التّأكيدِ(١)؛ لأنّ زيادةَ التّأكيدِ تأكيدٌ.

قولُه: (بالهُدَى) أي: بالدِّينِ الحقِّ، فهو مفعولٌ به، أو: مُحِقِّينَ، أو: مُحِقًّا، أو: إرسالاً مصحوباً بالحقِّ.

قولُه: (سَلَفَ) ومَضَى.

قولُه: (نَبِيٌّ يُنذِرُهَا) أو عالِمٌ ينذرُها نيابةً عنه، والاكتفاءُ بذكرِه(٢)؛ للعِلمِ بالقرينةِ، ولأنَّ الإنذارَ هو المقصودُ الأهمُّ من البعْثَةِ، أو هو المقدَّمُ بمنزلَةِ الاحتماءِ والتَّخليَةِ.

قولُه: (المُعجِزَاتِ) الشَّاهدَةِ على نُبوَّتِهم.

قولُه: (كصُحُفِ إبْرَاهِيمَ) وزَبورِ داودَ.

قولُه: (وغَيْرِها) أو المرادُ بـ﴿ألوانُها﴾: أجناسُها، أو: أصنافُها على أنَّ كلًّا منها لها أصنافٌ.

قولُه: (جُدَّةٍ) بالضَّمِّ.

قولُه: (طَرِيقٍ) أي: خطٌّ.

قولُه: (وصُفرٌ) وخُضرٌ.

قولُه: (عَلَى ﴿جُدَدٌ﴾) والأقربُ: على ﴿بِيضٌ﴾.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٥٧).

(٢) أي: بذكر النذير وعدم اقترانه بالبشير.

أي: صخورٌ شديدة السواد ـ يقال كثيرًا: أسودُ غِربيبٌ، وقليلاً: غِربيبٌ أسودُ ـ ٢٨ ـ ﴿ومِنَ النّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ مُختَلِفٌ ألوانُهُ كَذلِكَ﴾: كاختلاف الثِّمار والجِبال؟ ﴿إنَّما يَخشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ﴾ بخِلاف الجُهّال ككُفّار مكّة. ﴿إنَّ اللهَ عَزيزٌ﴾ في مُلكه ﴿غَفُورٌ﴾ لذُنوب عِباده المؤمنين.

٢٩ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يَتلُونَ﴾: يقرؤون ﴿كِتابَ اللهِ، وأقامُوا الصَّلاةَ﴾: أداموها ﴿وأنفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُم سِرًّا وعَلانِيَةً﴾ زكاةً وغيرها، ﴿يَرجُونَ تِجارةً لَن تَبُورَ﴾: تَهلِك، ٣٠ ـ ﴿لِيُوَفِّيَهُم أُجُورَهُم﴾: ثواب أعمالهم المذكورة، ....

قولُه: (أي: صُخُورٌ) كأنَّه قيل: ومن الجبالِ ذُو جُدَدٍ ومختلفُ اللَّونِ، ومنها غرابيبُ متَّحِدَةُ اللَّونِ.

قولُه: (أَسوَدُ غِرْبِيبٌ) فإنَّ حَقَّ التَّأكيدِ أن يَتْبَعَ المؤكَّدَ.

قولُه: (وقَلِيلاً) في «القاموسِ»: ﴿سود﴾: بدلٌ؛ لأنَّ توكيدَ الألوانِ لا يتقدَّمُ[1]. ولعلَّ العُدولَ عن الكثيرِ مراعاةٌ للفاصلةِ.

قولُه: (بخِلافِ الجُهَّالِ) إذ شرطُ الخشيَةِ معرِفَةُ المخشِيِّ، والعلمُ بصفاتِهِ وأفعالِهِ، فمَن كانَ أعلمَ به كانَ أخشى له، ولذا قالَ ﷺ: «إنِّي أعلَمُكم باللهِ وأخْشَاكُم لَهُ»[2]، ولذا أتبَعَهُ ذِكرَ أفعالِهِ الدَّالَّةِ على كمالِ قدرتِهِ، وتقديمُ المفعولِ لأنَّ المقصودَ حَصرُ الفاعليَّةِ، ولو أخَّرَ انعكسَ الأمرُ.

وقُرِئَ برفعِ اسمِ (اللهُ) ونصْبِ: (العلماءَ[3] على أنَّ الخشيةَ مستعارَةٌ للتَّعظيمِ، فإنَّ المعظَّمَ يكونُ مَهيباً، ولذا قيل: الخشيةُ خوفٌ معَ تعظيمٍ، فحيثُ استُعمِلَ في أحدِهما يكونُ تجريداً.

قولُه: (يَقرَؤُونَ) يداومونَ على قراءَتِهِ ـ أو متابَعَةِ ما فيهِ ـ حتَّى صارَ سَمْتاً لهم وعُنواناً.

قولُه: (زَكَاةً وغَيْرَهَا) أي: كيفَ اتَّفق مِن غيرِ قصدٍ إليهما.

وقيل: السِّرُّ في المسنونَةِ، والعلانيَةُ في المفروضَةِ.

قولُه: (تَهلِكَ) وتَكْسدَ، والمرادُ بالتِّجارةِ: تحصيلُ الثَّوابِ بالطَّاعةِ.

قولُه: (ثَوَابَ أعْمَالِهِم) عِلَّةٌ لمدلولِ ما عُدَّ من أفعالِهم نحوَ: فعَلوا ذلك، أو عاقبةٌ لـ﴿يرجُونَ﴾[4].

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٠).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٤٩١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. ورواه البخاري (٢٠) من وجه آخر عنها، بلفظ: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا». ورواه مسلم (١١١٠) من وجه آخر أيضاً عنها بلفظ: «والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي».

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٩٦) ونسبت لعمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة.

(٤) الكلام هنا عن قوله تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾، فهو إما علة لمدلولِ ما عدَّ مِن أفعالِهم نحو: فَعَلوا ذلك ليوفِّيَهُم، أو عاقبةٌ =

﴿وَيَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ. إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذُنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعتهم.

٣١ ـ ﴿وَالَّذِي أَوحَينا إِلَيكَ مِنَ الكِتابِ﴾: القُرآنِ ﴿هُوَ الحَقُّ، مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ﴾: تقدَّمَه من الكُتب ـ ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾: عالم بالبواطن والظواهر ـ ٣٢ ـ ﴿ثُمَّ أَورَثْنا﴾: أعطينا ﴿الكِتابَ﴾: القُرآنَ ﴿الَّذِينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا﴾ وهم أُمَّتك، ﴿فَمِنهُم ظالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به، ﴿وَمِنهُم مُقتَصِدٌ﴾ يعمل به في أغلب الأوقات، ﴿وَمِنهُم سابِقٌ بِالخَيراتِ﴾ يضمّ إلى العمل به التعليمَ والإرشاد إلى العمل ﴿بِإِذنِ اللهِ﴾: بإرادته. ....

قولُه: (لذُنُوبِهِم) أي: فَرَطاتِهِم.

قولُه: (لطَاعَتِهِم) أي: مجازيهِم عليها، وقالَ سهلٌ[1]: غفورٌ لذنوبٍ كثيرةٍ، شَكورٌ لأعمالٍ يسيرةٍ.

قولُه: (أَعْطَيْنَا) أي: عطاءً بلا كَدٍّ وتعَبٍ كالإرْثِ.

قولُه: (وَهُم أُمَّتُكَ) يعني: ﴿الَّذينَ اصطفَيْنَا﴾، وعليه الجمهورُ، و﴿مِنْ﴾ للتَّبيينِ أو للتَّبعيضِ.

قولُه: (وَهُم أُمَّتُكَ) يعني: أمَّةَ الإجابةِ، فإنَّ اللهَ اصطَفَاهُم على سائرِ الأمَمِ، أو المرادُ: عُلَماءُ الأمَّةِ من الصَّحابَةِ ومن بعدَهُم.

قولُه: (يَضُمُّ) ظاهرُ التَّقسيمِ أن يقولَ: السَّابقُ: دائمُ العملِ، أو يقالَ: الظَّالمُ: الجاهلُ العاملُ، والمقتصدُ: العالِمُ العاملُ، والسَّابقُ: العالمُ العاملُ المعلِّمُ، وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ: الظَّالمُ أنا والمقتصدُ أنا، والسَّابقُ أنا، فقيلَ له: كيفَ ذلك؟ قالَ: أنا الظَّالِمُ بمعصيَتي، ومقتصدٌ بتَوبَتي، وسابقٌ بمحبَّتي[2].

فأشارَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ إلى وجْهٍ لطيفٍ وشريفٍ، وهو أنَّهُ قد تختَلِفُ الصِّفاتُ باختلافِ الحالاتِ والمقاماتِ.

وقيل: الظَّالِمُ يجزَعُ عندَ البلاءِ، والمقتصِدُ يصبِرُ، والسَّابقُ يتلذَّذُ.

وقيل: الظَّالمُ: الزَّاهدُ، والمقتصدُ: العارفُ، والسَّابقُ: المحِبُّ.

= لـ﴿يرجون﴾. هكذا ذكره البيضاوي لكنه قدم عليه قوله: «﴿لن تبور﴾: لن تكسدَ ولن تهلكَ بالخُسرانِ، صِفَةٌ للتِّجارَةِ، وقوله: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ عِلَّةٌ لمدلوله؛ أي: يَنتَفِي عنها الكسادُ وتَنْفُقُ عندَ اللهِ ليوفيَهُم بنَفَاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ مِن أفعالِهم... » إلى باقي ما ذُكر.

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٢٩).

(٢) لم أقف عليه.

﴿ذلِكَ﴾ أي: إيراثهم الكِتابَ ﴿هُوَ الفَضلُ الكَبِيرُ﴾.

٣٣ ـ ٣٤ ـ ﴿جَنّاتُ عَدنٍ﴾ أي: إقامةٍ، ﴿يَدخُلُونَها﴾، أي: الثلاثةُ ـ بالبناء للفاعل وللمفعول:.....

وقيلَ: المرادُ بهم: الواعظُ بلسانِهِ وبعمَلِهِ[١] وبسرِّهِ، وقيلَ: الجاهلُ والمتعلِّمُ والعالِمُ، وقيلَ: صاحبُ الكبيرةِ والصَّغيرةِ والمجتَنِبُ عنهما.

وقيل: السَّابقُ: الَّذي اشتغلَ بمعادِهِ عن معاشِهِ، والمقتصدُ: الَّذي اشتغَلَ بمعاشِهِ ومعادِهِ، والظَّالمُ: الَّذي اشتغلَ بمعاشِهِ عن معادِهِ.

وقيل: الظَّالمُ: من أخذَ الدُّنيا حَلالاً كانَ أو حراماً، والمقتصدُ: من يجتهِدُ أن لا يأخُذَها إلَّا من حلالٍ، والسَّابقُ: من أعرَضَ عنها جملَةً.

وقيل: الظَّالِمُ: طالبُ الدُّنيا، والمقتَصِدُ: طالبُ العُقْبى، والسَّابقُ: طالبُ المولى.

وقالَ ابنُ عطاءٍ[٢]: إنَّما قدَّمَ الظَّالِمُ لئلَّا ييأسَ من فضلِهِ، وقيل: لأنَّ أوَّلَ الأحوالِ معصيةٌ ثمَّ توبةٌ ثمَّ استقامةٌ، وقيل: للإيذانِ بكثرةِ الظَّالمينَ، وأنَّ المقتَصِدينَ قليلٌ بالإضافةِ إليهم، والسَّابقونَ أقلُّ من القَليلِ.

قولُه: (أي: إيرَاثُهُم) أو الاصطفاءُ، أو السَّبقُ.

قولُه: (أي: الثَّلاثَةُ) في الحديثِ المرفوعِ: «سَابِقُنَا سابِقٌ، ومُقتَصِدُنَا ناجٍ، وظالِمُنا مغفُورٌ لَهُ»[٣]، وفي «الكشفِ»[٤]: عن التِّرمذيِّ عن أبي سعيدٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ في هذهِ الآيةِ: «هَؤُلاءِ كُلُّهُم بمنزلَةٍ واحدةٍ، وكلُّهُم في الجنَّةِ»[٥]، أقولُ: «وكلُّهُم» عطفٌ تفسيريٌّ، انتهى.

قولُه: (والمَفعُولِ) بصريٌّ[٦].

---

(١) في (د): «وبعلمه».

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (ص: ١٦٣).

(٣) رواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٤٤٣)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٢/ ٢٠٤) (٢٣٦٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦١)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٠٥) من حديث عمر رضي الله عنه.
وقال العقيلي: وهذا يروى من غير هذا الوجه بنحو هذا اللفظ بإسناد أصلح من هذا.
وقال البيهقي: فيه إرسال بين ميمون بن سياه وبين عمر رضي الله عنه. وروي من وجه آخر غير قوي، عن عمر موقوفاً عليه.
والموقوف رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٠٨)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٢).

(٤) هو «الكشف على الكشاف» للقزويني، وانظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٦٥٧).

(٥) رواه الترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

خبرُ «جنّاتُ» المبتدأِ ـ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾: خبرٌ ثانٍ ﴿فِيها مِن﴾: بعضَ ﴿أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلُؤٍ﴾ مُرصّعٍ في الذهب، ﴿ولِباسُهُم فِيها حَرِيرٌ، وقالُوا: الحَمدُ لِلهِ الَّذِي أذهَبَ عَنّا الحَزَنَ﴾ جميعَه ـ ﴿إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات ـ ٣٥ ـ ﴿الَّذِي أحَلَّنا دارَ المُقامةِ﴾ أي: الإقامة ﴿مِن فَضلِهِ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ﴾: تعب، ﴿ولا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾: إعياءٌ من التعب لعدم التكليف فيها. وذُكر الثاني التابعُ للأوّل للتصريح بنفيه.

٣٦ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم نارُ جَهَنَّمَ، لا يُقضَى علَيهِم﴾ بالموت ﴿فيَمُوتُوا﴾ يستريحوا، ﴿ولا يُخَفَّفُ عَنهُم مِن عَذابِها﴾ طَرْفةَ عين ـ ﴿كَذلِكَ﴾ كما جزَيناهم ﴿يُجزَى كُلُّ كَفُورٍ﴾: كافر. بالياء، والنونِ المفتوحة مع كسر الزاي ونصب «كُلَّ» ـ..........................

قولُه: (خَبَرٌ ثانٍ) أو حالٌ مقدَّرةٌ.

قولُه: (بَعضَ) و﴿مِنْ﴾ الثّانية بيانٌ.

قولُه: (مُرَصَّعٍ) أي: اللُّؤلؤُ؛ يعني: ﴿لؤلؤٍ﴾ بالجرِّ عطفٌ على ﴿ذَهَبٍ﴾؛ أي: ذهبٍ مُرَصَّعٍ باللُّؤلؤِ، أو مِن ذَهَبٍ في صفاءِ اللُّؤلؤِ، ونصبَهُ نافعٌ وعاصمٌ(١) عطفاً على محلِّ: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾.

قولُه: (جَمِيعَهُ) الشّامِلَ لحَزَنِ الموتِ، وخوفِ العاقبةِ، وهَمِّ المعاشِ، ووسوسَةِ إبليسَ، وقيلَ: حَزَنِ القطيعةِ، وقيلَ: المحاسبة، وقد أكثَروا حتَّى قالَ بعضُهم: كِرَى الدّارِ، وقيلَ: التَّحويل، ومعناهُ: أنّه يعمُّ كلَّ حَزَنٍ من أحزانِ الدِّينِ والدُّنيا حتَّى هذا.

قولُه: (إِعيَاءٌ) وكَلالٌ.

قولُه: (لعَدَمِ التَّكلِيفِ) والكَدِّ.

قولُه: (للتَّصْرِيحِ بنَفيِهِ) مبالغةً.

قولُه: (ليَسْتَرِيحُوا) الظّاهرُ: فيستَريحوا، ونَصْبُهُ بإضمارِ: أَنْ.

قولُه: (طَرْفَةَ عَيْنٍ) بل كُلَّما خَبَتْ زِيدَ إسعارُها.

قولُه: (كمَا جَزَيْنَاهُم) الصَّوابُ: مثلَ ذلك الجزاءِ.

قولُه: (كَافِرٍ) فيه إشارةٌ إلى الرَّدِّ على القاضي حيثُ قالَ: مبالِغٍ في الكُفْرِ(٢).

قولُه: (باليَاءِ) المضمومةِ وفتحِ الزّاي، ورفعِ (كُلُّ) بصريٌّ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٥٩٣)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٨٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦٠).

٣٧ ـ ﴿وهُم يَصطَرِخُونَ فِيها﴾: يستغيثون بشِدّة وعويل، يقولون: ﴿رَبَّنا، أخرِجْنا﴾ منها، ﴿نَعمَلْ صالِحًا غيرَ الَّذِي كُنّا نَعمَلُ﴾. فيقال لهم: ﴿أوَلَم نُعَمِّرْكُم ما﴾: وقتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ، وجاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ الرسول فما أجبتم؟ ﴿فذُوقُوا. فما لِلظّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿مِن نَصِيرٍ﴾: يدفع العذاب عنهم.

٣٨ ـ ﴿إنَّ اللهَ عالِمُ غَيبِ السَّماواتِ والأرضِ ـ إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القُلوب. فعلمه بغيره أولى بالنظر إلى حال الناس ـ ٣٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُم خَلائفَ في الأرضِ﴾: جمع خليفة، أي: يخلف بعضكم بعضًا. ﴿فمَن كَفَرَ﴾ منكم ﴿فعَلَيهِ كُفرُهُ﴾ أي: وبال كُفره، ﴿ولا يَزِيدُ الكافِرِينَ كُفرُهُم عِندَ رَبِّهِم إلاّ مَقتًا﴾: غضبًا، ﴿ولا يَزِيدُ الكافِرِينَ كُفرُهُم إلاّ خَسارًا﴾ لِلآخرة.

٤٠ ـ ﴿قُلْ: أرَأيتُم شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاءُ الله تعالى ـ ﴿أرُونِي﴾: أخبِروني ﴿ماذا خَلَقُوا مِنَ الأرضِ؟ أم لَهُم شِركٌ﴾: شَرِكة مع الله ﴿في﴾ خلق ﴿السَّماواتِ؟ أم آتيناهُم كِتابًا فهُم علَى بَيِّنَةٍ﴾:.........

قولُه: (عَوِيْلٍ) صِياحٍ.

قولُه: (وَقْتاً) فُسِّرَ في حديثٍ مرفوعٍ بالسِّتِّينَ[1]، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ: أربعونَ[2]، كذا في «المبهماتِ»[3].

قولُه: (الرَّسُولُ) أو الكتابُ، وقيلَ: العقلُ، أو الشَّيبُ، أو موتُ الأقرانِ.

قولُه: (غَضَباً) أي: شديداً؛ لأنَّ المَقتَ أشَدُّ البُغضِ، والتَّكريرُ للدِّلالةِ على أنَّ اقتضاءَ الكُفرِ لكلِّ واحدٍ مِنَ الأمرينِ مستقِلٌّ باقتضاءِ قُبْحِهِ ووجوبِ التَّجنُّبِ عنه، ويمكنُ أن يكونَ الأوَّلُ للمعانِدينَ والمنافقينَ، والثَّاني لغيرِهِم.

قولُه: (أَخبِرُونِي) ظاهرُه أنَّه تأكيدٌ، وقالَ القاضي: بدلٌ من: ﴿أَرَأَيْتُم﴾ بدلَ الاشتمالِ؛ لأنَّه بمعنى: أخبروني، كأنَّه قالَ: أخبروني عن هؤلاءِ الشُّركاءِ، أروني أيَّ جُزْءٍ من الأرضِ استبدُّوا بخلقِهِ[4]؟!

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٩٢٥)، وفي «المعجم الكبير» (١١/ ١٧٧) (١١٤١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٧): فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي وهو ضعيف.

وروى البخاري (٦٤١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أعذر الله إلى امرئ أخَّر أجله، حتى بلَّغه ستِّين سنة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٧٧).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٨٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١).

حُجّة ﴿مِنهُ﴾ بأنّ لهم معي شركة؟ لا شيء من ذلك. ﴿بَل إنْ﴾: ما ﴿يَعِدُ الظّالِمُونَ﴾: الكافرون ﴿بَعضُهُم بَعضًا إلاّ غُرُورًا﴾: باطلاً بقولهم: الأصنام تشفع لهم.

٤١ ـ ﴿إنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّماواتِ والأرضَ أن تَزُولا﴾ أي: يمنعُهما من الزوال، ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿زالَتا إنْ﴾: ما ﴿أمسَكَهُما﴾: يُمسِكُهما ﴿مِن أحَدٍ مِن بَعدِهِ﴾ أي: سواه. ﴿إنَّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ في تأخير عِقاب الكُفّار.

٤٢ ـ ﴿وأقسَمُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿بِاللهِ جَهدَ أيمانِهِم﴾ أي: غايةَ اجتهادهم فيها ـ ﴿لَئِن جاءَهُم نَذِيرٌ﴾: رسول ـ ﴿لَيَكُونُنَّ أهدَى مِن إحدَى الأُمَمِ﴾: اليهود والنصارى وغيرهما، أي: أيِّ واحدة منهما لِما رأَوا من تكذيب بعضهم بعضًا، إذ «قالَتِ اليَهُودُ: لَيسَتِ النَّصارَى عَلَى شَيءٍ. وقالَتِ النَّصارَى: لَيسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيءٍ»، ﴿فَلَمّا جاءَهُم نَذِيرٌ﴾ مُحمّد ﷺ ﴿ما زادَهُم﴾ مجيئُه ﴿إلاّ نُفُورًا﴾: تباعُدًا عن الهُدى،

قولُه: (حُجَّةٍ) نافعٌ والشَّاميُّ وشعبةُ والكسائيُّ بالجمعِ[1]، والضَّميرُ للمشركين؛ لقولِه: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ [الروم: ٣٥]، ويجوزُ أن يكون للآلهةِ.

قولُه: (لا شَيءَ مِنْ ذَلِكَ) إشارةٌ إلى أنَّ الاستفهامَ للإنكارِ.

قولُه: (الأَصنَامُ) أو: لا بَعثَ.

قولُه: (يَمنَعُهُما) لأنَّ الإمساكَ مَنعٌ، أو: كراهةَ أن تَزولا، أو: لئلّا تزولا.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) موطِّئةٌ، وقوله: ﴿زَالَتَا﴾ أي: أرادَتا الزَّوالَ، أو: ﴿زالَتَا﴾ حقيقةً، والإمساكُ بمعنى: الإقامةِ.

قولُه: (سِوَاهُ) أو من بعدِ الزَّوالِ، والجملةُ سادَّةٌ مَسدَّ الجوابَينِ، و﴿مِنْ﴾ الأُولى زائدةٌ، والثّانيةُ للابتِداءِ.

قولُه: (في تَأخِيرِ) متعلِّقٌ بـ﴿حَلِيمًا﴾ يعني: حيثُ أمسكَهُما وكانَتا جَديرَتَينِ بأنْ تُهَدّا هَدًّا كما قالَ تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠]، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿غَفُوراً﴾ أي: للمؤمنينَ، أو: لمن تابَ من الكافرينَ.

قولُه: (أي: أَيِّ وَاحِدَةٍ) إشارةٌ إلى عَدَمِ تَعْيينِ الواحدةِ، بخلافِ عبارةِ البيضاويِّ: أي: من واحِدةٍ من الأُمَمِ[2]. فإنَّها مُوهِمَةٌ.

قولُه: (مَجِيئُهُ) على التَّسبُّبِ، أو: النَّذيرُ، وهو الأظهرُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١).

٤٣ ـ ﴿استِكبارًا في الأرضِ﴾ عن الإيمان: مفعولٌ له ﴿ومَكْرَ﴾ العملِ ﴿السَّيِّءِ﴾ من الشِّرك وغيره، ﴿ولا يَحِيقُ﴾: يُحيط ﴿المَكْرُ السَّيِّئُ إلاّ بأهلِهِ﴾ وهو الماكرُ. ووصفُ المكر بالسيّئ أصل، وإضافته إليه قبلُ استعمالٌ آخَر قُدّر فيه مضافٌ حذرًا من الإضافة إلى الصفة.

﴿فهَل يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون ﴿إلاّ سُنّةَ الأوّلينَ﴾: سُنّة اللهِ فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلَهم؟ ﴿فلَن تَجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَبدِيلاً، ولَن تَجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَحوِيلاً﴾ أي: لا يُبدَّل بالعذاب غيرُه، ولا يُحوَّل إلى غير مُستحقّه. ٤٤ ـ ﴿أوَلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم، وكانُوا أشَدَّ مِنهُم قُوّةً﴾ فأهلكَهم الله بتكذيبهم رسلَهم؟ ﴿وما كانَ اللهُ لِيُعجِزَهُ مِن شَيءٍ﴾: يَسبِقَه ويفوته ﴿في السَّماواتِ ولا في الأرضِ. إنَّهُ كانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كُلّها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها.

٤٥ ـ ﴿ولَو يُؤاخِذُ اللهُ النّاسَ بِما كَسَبُوا﴾ من المعاصي ﴿ما تَرَكَ علَى ظَهرِها﴾ أي: الأرضِ ﴿مِن دابّةٍ﴾: نسَمة..

قولُه: (مَفعُولٌ لَهُ) أو بدلٌ من: ﴿نُفوراً﴾.

قولُه: (حَذَراً) على مذهَبِ البصريينَ.

قولُه: (أي: لا يُبَدَّلُ) مجهولٌ نائبُهُ (غَيرُهُ).

قولُه: (بالعَذَابِ غَيْرُهُ) فيه: أنَّ الحُكمَ بالعكسِ، وهو أنّه لا يبدَّلُ العذابُ بغيرِهِ، وكأنّه تَبعَ البيضاويَّ حيثُ قالَ: إذ لا يبدِّلُها بجعلِ غير التَّعذيبِ تعذيباً[١]. قالَ سعدي جلبي: فيه: أنَّ المعنى على العَكْسِ بأن يرحمَهُم مثلاً بَدَلَ التَّعذيبِ[٢].

قولُه: (ولا يُحَوَّلُ) بأن ينقلَهُ من المكذِّبينَ إلى غيرِهم، قالَ صاحبُ «المدارِكِ»: أي: لا يبدلُها في ذاتِها ولا يحوِّلُها عن أوقاتِها[٣].

قولُه: (﴿دابّةٍ﴾ نَسَمَة) النَّسمةُ: الرُّوحُ نفسُهُ والإنسان، كذا في «القاموسِ»[٤]، فـ«أنوار التنزيل»: الدَّابَّة:

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١). قال الشهاب في «حاشيته على تفسير البيضاوي» (٧/ ٢٣٠): قوله: «إذ لا يبدلها الخ» إشارة إلى عدم التكرار، فتبديلها بجعل غير التعذيب ـ وهو الرحمة ـ مكان التعذيب، هذا مراده، وهو على ما في بعض النسخ من سقوط قوله: «تعذيباً» ظاهر وعليها فـ«غير التعذيب» مفعول ثان، و«تعذيباً» مفعول أوّل؛ أي: بجعل التعذيب غيره؛ أي: رحمة، فسقط ما قيل: إنّ المعنى على العكس بأن يرحمهم بدل تعذيبه.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٩٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٦٢).

تدِبّ عليها، ﴿ولكِنْ يُؤخِّرُهُم إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: يومِ القيامة. ﴿فإذا جاءَ أَجَلُهُم فإنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيرًا﴾ فيُجازيهم على أعمالهم بإثابة المؤمنين وعِقاب الكافرين.

بنسمةٍ[1]. غيرُ ظاهرٍ.

قولُه: (عَلَيهَا) بشؤمِ مَعاصيهِم.

وقيل: المرادُ بالدَّابَّةِ: الإنسُ وحدَهُ؛ لِمَا بعدَهُ، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

* * *

(١) في (د): «فتفسير البيضاوي». وانظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦٢).

سورة فاطر

وتسمَّى: سورة الملائكة، وهي مكِّيَّةٌ كما رُوي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما. وفي «مجمع البيان»: قال الحسن: مكِّيَّةٌ إلَّا آيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الآية [٢٩]، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [٣٢](١).

وآيُها ستٌّ وأربعون في المدنيّ الأخير والشامي، وخمس وأربعون في الباقين.

والمناسبة ـ على ما في «البحر» ـ أنَّه عزَّ وجل لمَّا ذكر في آخر السورة المتقدِّمة هلاك المشركين أعداءِ المؤمنين وإنزالَهم منازل العذاب، تعيَّن على المؤمنين حمدُه تعالى وشكره، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢) [الأنعام: ٤٥].

وينضمُّ إلى ذلك تواخي السورتين في الافتتاح بالحمد، وتَقَارُبِهما في المقدار وغير ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: موجِدهما من غير مثالٍ يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه، فالفَطْرُ: الإبداع. وقال الراغب: هو إيجادُه تعالى الشيءَ وإبداعُه على هيئةٍ مترشِّحةٍ لفعلٍ من الأفعال(٣).

---

(١) مجمع البيان ٢٢/ ٢٢٤.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (فطر).

وأخرج عبد بن حميد، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وغيرهما عن ابن عباس قال: كنتُ لا أدري ما «فاطر السماوات والأرض» حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، يعني ابتدأتها[١].

وأصلُ الفَطْر: الشَّقُّ. وقال الراغب: الشَّقُّ طولاً[٢]. ثم تُجوِّزَ فيه عمَّا تقدَّم، وشاع فيه حتى صار حقيقةً أيضاً. ووجه المناسبة أنَّ السماوات والأرض - والمراد بهما العالم بأسرِه - لكونهما ممكنين، والأصل في الممكن العدمُ كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[٣]، وصرَّح بذلك فلاسفةُ الإسلام، قال رئيسُهم[٤]: الممكنُ في نفسه ليس، وهو عن علَّته أيس = كأنَّ العدم كامنٌ فيهما، وبإيجادهما يُشَقَّان، ويخرجُ العدمُ منهما.

وقيل في ذلك: كأنَّه تعالى شقَّ العدم بإخراجهما منه.

وقيل: لا مانع من حمله على أصله هنا، ويكون إشارة إلى الأمطار والنبات، فكأنَّه قيل: الحمد لله فاطر السماوات بالأمطار، وفاطر الأرض بالنبات. وفيه نظرٌ ستأتي الإشارةُ إليه قريباً.

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ على القولين يحتملُ أنْ يكون معناه: جاعل الملائكة عليهم السلام وسائطَ بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده، يبلِّغون إليهم رسالته سبحانه بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة. أو: جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه عزَّ وجلَّ؛ يوصلون إليهم آثارَ قدرته وصنعه، كالأمطار والرياح وغيرها[٥]،

---

(١) شعب الإيمان (١٦٨٢)، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٠٦، والطبري ٩/ ١٧٥.

(٢) المفردات (فطر).

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٧٥٦) عن بعض بنات النبيِّ ﷺ.

(٤) وهو الشيخ الرئيس ابن سينا، كما صرَّح بذلك المصنِّف عند تفسير الآية (٣) من سورة الحديد.

(٥) في (م): وغيرهما.

وهم الملائكة الموكلون بأمور العالم. وهذا أنسبُ بالقول الثاني، لكن يَرِدُ عليه أنَّه لا معنى لكون الأمطار شاقَّةً للسماوات.

وقال الإمام: إنَّ الحمد يكون على النعم، ونعمه تعالى عاجلةٌ وآجلةٌ، وهو في سورة «سبأ» إشارةٌ إلى نعمة الإيجاد والحشر، ودليله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [سبأ: ٣]، والحمدُ في هذه السورة إشارةٌ إلى نعمة البقاء في الآخرة، ودليله: «جاعل الملائكة رسلا» أي: يجعلهم سبحانه رسلاً يتلقَّون عبادَ الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيجوز أنْ يكون المعنى: الحمد لله شاقِّ السماوات والأرض يومَ القيامة؛ لنزول الأرواح من السماء، وخروج الأجساد من الأرض، وجاعل الملائكة رسلاً في ذلك اليوم يتلقَّون عباده. وعليه فأوَّلُ هذه السورة متَّصلٌ بآخر ما مضى؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ [سبأ: ٥٤] بيانٌ لانقطاع رجاءِ مَن كان في شكٍّ مُريب، ولما ذكر سبحانه حالَهم ذكر حال المؤمنين وبشَّرهم بإرسال الملائكة إليهم، وأنَّه تعالى يفتحُ أبواب الرحمة لهم(١). انتهى. وفيه من البعد ما فيه.

و«فاطر» صفةٌ لـ «الله»، وإضافته محضة؛ قال أبو البقاء: لأنَّه للماضي لا غير(٢).

وقال غيره: هو معرَّف بالإضافة، إذ لم يجر على الفعل، بل أُريدَ به الاستمرار والثبات، كما يقال: زيدٌ مالك العبيد جاء، أي: زيد الذي من شأنه أن يملك العبيد جاء.

ومَن جعل الإضافة غيرَ محضةٍ جعلَه بدلاً، وهو قليلٌ في المشتقَّات، وكذا الكلام في «جاعل»، و«رسلاً» ـ على القول بأنَّ إضافته غيرُ محضة ـ منصوبٌ به بالاتِّفاق، وأمَّا على القول الآخر فكذلك عند الكسائيّ.

وذهبَ أبو عليٍّ إلى أنَّه منصوبٌ بمضمرٍ يدلُّ هو عليه؛ لأنَّ اسمَ الفاعل إذا كان

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٢-٣.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢١٦.

بمعنى الماضي لا يعملُ عنده كسائر البصريين إلّا معرَّفاً باللام.

وقال أبو سعيد السيرافيُّ: اسمُ الفاعل المتعدِّي إلى اثنين يعملُ بالثاني؛ لأنَّه بإضافته إلى الأوَّل تعذَّرت إضافتُه إلى الثاني، فتعيَّنَ نصبُه له.

وعلَّلَ بعضُهم ذلك بأنَّه بالإضافة أشبهُ بالمعرَّف باللام، فعملَ عملَه. هذا على تقدير كون الجعل تصييريّاً، أمَّا على تقدير كونه إبداعيّاً ف «رسلاً» حالٌ مقدرة.

وقرأ الضَّحَّاك والزهريُّ: «فَطَر» جعله[1] فعلاً ماضياً، ونصبَ ما بعده. قال أبو الفضل الرازي: يحتملُ أنْ يكون ذلك على إضمار «الذي» نعتاً لـ «الله» تعالى، أو على تقدير «قد» فتكون الجملة حالاً.

وأنت تعلم أنَّ حذف الموصول الاسميّ لا يجوز عند جمهور البصريين، وذهب الكوفيون والأخفش إلى إجازته، وتبعَهم ابنُ مالك[2]، وشَرَطَ في بعض كتبه كونَه معطوفاً على موصولٍ آخر، ومن حُجَّتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقول حسان:

أمَنْ يهجو رسولَ الله منكم ويَنصرُه ويَمدحُهُ سواءُ[3]

وقول آخر:

ما الذي دأبُه احتياطٌ وحزمٌ وهواهُ أطاعَ يستويانِ[4]

واختار أبو حيَّان كونَ الجملةِ خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو فطر[5].

وقرأ الحسن: «جاعلُ» بالرفع على المدح، وجرِّ «الملائكة»[6].

---

(١) في الأصل و(م): جعل، والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، والكلام منه. والقراءة عن الضحاك في القراءات الشاذة ص ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨.

(٢) انظر شرح التسهيل لابن مالك ١/ ٢٣٥.

(٣) ديوان حسان ص ٩، وفيه: فمن. بدل: أمن.

(٤) هو من شواهد المغني ص ٨١٦، ونسبه ابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٢٣٥ لبعض الطائيين. وانظر شرح أبيات المغني للبغدادي ٧/ ٣٩.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «جاعلُ» بالرفع بلا تنوين، ونصب «الملائكة»[(١)]، وخُرِّجَ حذفُ التنوين على أنَّه لالتقاء الساكنين، ونصبُ «الملائكة» إذا كان «جاعل» للمضيّ على مذهب الكسائيِّ وهشام في جواز إعمال الوصف الماضي النصب.

وقرأ ابن يعمر وخليد: «جَعَلَ» فعلاً ماضياً «الملائكةَ» بالنصب، وذلك بعد قراءته: «فاطر» كالجمهور[(٢)]، كقراءة من قرأ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾[(٣)] [الأنعام: ٩٦].

وفي «الكشاف»[(٤)]: قرئ: «فطر» و«جعل» كلاهما بلفظ الفعل الماضي.

وقرأ الحسن وحميد بن قيس: «رُسْلاً» بسكون السين[(٥)]، وهي لغة تميم.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ صفةٌ لـ «رسلاً»، وأولو اسم جمع لـ «ذو»، كما أنَّ أولاء اسم جمع لـ «ذا»، ونظيرُ ذلك من الأسماء المتمكنة: المخاض، قال الجوهريُّ: هي الحوامل من النوق، واحدتها: خَلِفَة[(٦)].

و«أجنحة» جمع: جناح، صيغة جمع القلَّة، ومقتضى المقام أنَّ المراد به الكثرة. وفي «البحر»: قياسُ جمع الكثرة فيه: جُنُح، فإن كان لم يُسمع كان أجنحة مستعملاً في القليل والكثير[(٧)].

والظاهر أنَّ الجناحَ بالمعنى المعروف عند العرب، بيد أنَّا لا نعرفُ حقيقته وكيفيته، ولا نقولُ إنَّه من ريشٍ كريش الطائر.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٣. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، وهي عن الأول في القراءات الشاذة ص ١٢٣، وعن الثاني في المحتسب ٢/ ١٩٨.

(٣) هي قراءة الكوفيين كما في التيسير ص ١٠٥، وانظر ما سلف عند تفسير الآية.

(٤) ٣/ ٢٩٧.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، وهي عن الحسن في القراءات الشاذة ص ١٢٣.

(٦) الصحاح (مخض).

(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٩٨.

نعم أخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج أنَّ أجنحةَ الملائكة عليهم السلام زغبة[١].

ورأيتُ في بعض كتب الإماميَّة أنَّ الملائكةَ تزدحمُ في مجالس الأئمَّة، فيقع من ريشها ما يقع، وأنَّهم يلتقطونه ويجعلونَ منه ثياباً لأولادهم.

وهذا عندي حديثُ خرافة، والكشفيَّة منهم يؤوِّلونه بما لا يُخرجه عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ الظاهرُ أنَّه صفةٌ لـ «أجنحة»، والمنعُ من الصرف على المشهور للصفة والعدل عن: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة.

وقال الزمخشريُّ: إنَّما لم تنصرف هذه الألفاظُ لتكرار العدل فيها، وذلك أنَّها عُدِلت عن ألفاظ الأعداد من صيغٍ إلى صيغٍ أُخَرَ، كما عُدِل عمر عن عامر، وحَذَام عن حاذمة[٢]، وعن تكريرٍ إلى غير تكرير، ففيها عدلان، وأمَّا الوصفيَّة فلا يفترقُ الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها، ألا تراك تقول: مررت بنسوةٍ أربعٍ، وبرجالٍ ثلاثةٍ، فلا يعرِّج عليها[٣].

وتعقَّبه أبو حيان[٤] بأنَّه قاسَ الصفة في هذا المعدول على الصفة في أربع وثلاثة، وليس بصحيح؛ لأنَّ مطلقَ الصفة لم يعدُّوه علَّة، بل اشترطوا أنْ تكون الوصفيَّةُ غيرَ عارضة، كما في أربع، وأن لا يقبل تاء التأنيث أو تكون[٥] فيه، كثلاث وثلاثة.

وقال صاحب «الكشف»: فيه أنَّ العدولَ عن التكرر لا يعتبر فيه للصيغة، واعتبر في تحقُّق العدل ذلك، ثم العدولُ عن الصيغة الأصليَّة لإفادة التكرر، فلا عدولين بوجه، وبعد تسليم أنَّ المعتبرَ في الوصف مقارنتُه لوضع المعدول،

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

(٢) في (م): وحزام عن حازمة.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٤) في البحر ٧/ ٢٩٨.

(٥) في الأصل: وتكون.

فلا يضرُّ عروضه في المعدول عنه، لا اتجاه للمنع ولا معوَّل على السند، وهو قول سيبويه، على ما نقَلَهُ الجوهريُّ[1]، وهو المنصورُ على ما نبَّهت إليه. انتهى.

وتعقَّبه أيضاً صاحبُ «الفرائد» وصاحب «التقريب» بعروض الوصفيَّة في المعدول عنه، وعدمِه في المعدول، لكن قال الطيبيُّ: وجدتُ لبعض المغاربة كلاماً يصلحُ أن يكون جواباً عنه؛ وهو أنَّ «ثُلاث» مثلاً لا يخلو من أن يكون موضوعاً للصفة من غير اعتبار العدد، أو لا يكون، فإن كان الأول لم يكن فيه العدد والمقدَّرُ خلافه، وإن كان الثاني كان الوصف عارضاً لثلاث، كما كان عارضاً لثلاثة، فيمكن أن يقال: إنَّ هذه الأعداد غير منصرفةٍ للعدل المكرَّر كالجمع وألفي التأنيث. انتهى.

وفيه ما لا يخفى.

وقال ابنُ عطية: إنَّ هذه الألفاظ عُدِلَتْ في حال التنكير، فتعرَّفت بالعدل، فهي لا تنصرفُ للعدل والتعريف[2]. وهذا قولٌ غريب، ذكر في «البحر»[3] أنه[4] لبعض الكوفيين.

وفي «الكشاف»[5]: هي نكراتٌ يعرَّفنَ بلام التعريف، تقول: فلانٌ ينكح المثنى والثلاث والرباع.

وقيل: «مثنى» إلخ حالٌ من محذوف، والعامل فيه محذوفٌ يدلُّ عليه «رسلاً»، أي: يرسَلُون مثنى وثلاث ورباع. والمعوَّل عليه ما تقدَّم، والمراد: ذوي أجنحةٍ متعددةٍ متفاوتةٍ في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها حين يؤمرون.

---

(١) في الصحاح (ثلث). وانظر كلام سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٢٥.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٨.
(٣) ٧/ ٢٩٨.
(٤) لفظة: أنه. ليست في (م).
(٥) ١/ ٤٩٦.

ويجوزُ أن تكون كلّاً أو بعضاً لأمور أخر، كالزينة فيما بينهم، وكالإرخاء على الوجه حياءً من الله تعالى، إلى غير ذلك، والمعنى أنَّ من الملائكة خلقاً لكلٍّ واحدٍ منهم جناحان، وخلقاً لكلٍّ منهم ثلاثةُ أجنحة، وخلقاً لكلٍّ منهم أربعة أجنحة. ولا دلالة في الآية على نفي الزائد، بل قال بعض المحققين: إنَّ ما ذُكر من العدد للدلالة على التكثير والتفاوت، لا للتعيين ولا لنفي النقصان عن اثنين.

وقد أخرج الشيخان والترمذيُّ عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]: رأى جبريل له ستُّ مئة جناح[١].

والترمذيُّ عن مسروق عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ لم يَرَ جبريل في صورته إلَّا مرتين؛ مرَّةً عند سدرة المنتهى، ومرَّةً في جيادٍ له ستُّ مئة جناح قد سدَّ الأفق[٢].

وقال الزمخشريّ: مرَّ بي في بعض الكتب أنَّ صنفاً من الملائكة عليهم السلام لهم ستَّةُ أجنحة، فجناحان يلفُّون بهما أجسادهم، وجناحان يطيرون بهما في أمرٍ من أمور الله تعالى، وجناحان مرخيَّان على وجوههم حياءً من الله عزَّ وجلَّ[٣].

والبحث عن كيفية وضع الأجنحة ـ شفعاً كانت أو وتراً ـ فيما أرى ممَّا لا طائلَ تحته، ولم يصحَّ عندي في ذلك شيءٌ. ولقياس الغائب على الشاهد، قال بعضهم: إنَّ المعنى: إنَّ في كلِّ جانبٍ لبعض الملائكة عليهم السلام جناحين، ولبعضهم ثلاثة، ولبعضهم أربعة، وإلَّا فلو كانت ثلاثةٌ لواحد لما اعتدلت. وهو كما ترى.

وقال قوم: إنَّ الجناحَ إشارةٌ إلى الجهة، وبيانه أنَّ الله تعالى ليس فوقه شيء، وكلُّ شيءٍ سواه فهو تحت قدرته سبحانه وتعالى، والملائكة عليهم السلام لهم وجه إلى الله تعالى، يأخذون منه نعمه، ويعطون مَنْ دونَهم ممَّا أخذوه بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]،

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٢)، وصحيح مسلم (١٧٤)، وسنن الترمذي (٣٢٧٧).
(٢) سنن الترمذي (٣٢٧٨).
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨.

وهما جناحان، وفيهم مَنْ يفعلُ ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعلُه لا بواسطة، فالفاعلُ بواسطةٍ: منهم مَنْ له ثلاثُ جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر.

وهذا خلاف الظاهر جدّاً، ولا يحتاج إليه السُّنِّيُّ القائل بأنَّ الملائكةَ عليهم السلام أجسامٌ لطيفة نوريَّة، يقدرون على التشكُّل بالصور المختلفة وعلى الأفعال الشاقَّة، وإنَّما يحتاجُ إليه أو إلى نحوه الفلاسفةُ وأتباعهم؛ فإنَّ الملائكةَ عندهم هي العقول المجرَّدة، ويسميها أهلُ الإشراق بالأنوار الظاهرة، وبعض المتصوفة بالسرادقات النوريَّة، وقد ذكر بعضُ متأخِّريهم أنَّ لها ذواتٍ حقيقيَّةً، وذواتٍ إضافيَّةً مضافة إلى ما دونها إضافةَ النفس إلى البدن، فأمَّا ذواتُها الحقيقيَّة فإنَّما هي أمريَّةٌ قضائيَّةٌ قوليَّةٌ، وأمَّا ذواتُها الإضافية فإنَّما هي خلقيَّة قدريَّة تنشأ منها الملائكة اللوحيَّة، وأعظمهم إسرافيل عليه السلام، وتطلق الملائكة عندهم على غير العقول، كالمدبِّرات العلويَّة والسفليَّة من النفوس والطبائع، وأطالوا الكلام في ذلك، وظواهرُ الآيات والأخبار تكذِّبهم، والله تعالى الموفق للصواب.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله من تفاوت الملائكة عليهم السلام في عدد الأجنحة، ومُؤْذِنٌ بأنَّ ذلك من إحكام مشيئته تعالى، لا لأمرٍ راجعٍ إلى ذواتهم، ببيان حكم كُلِّيٍّ ناطقٍ بأنَّه عزَّ وجلَّ يزيدُ في أيِّ خلقٍ كان كلَّ ما يشاء أن يزيدَه بموجب مشيئته سبحانه، ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيطُ بها الوصف. وقال الفراء والزجاج: هذا في الأجنحة التي للملائكة[1]، أي: يزيدُ في خلق الأجنحة للملائكة ما يشاء، فيجعلُ لكلٍّ ستَّةَ أجنحة أو أكثر، وروي ذلك عن الحسن، وكأنَّ الجملةَ لدفع توهُّم عدم الزيادة على الأربعة.

وعن ابن عباس: يزيدُ في خلق الملائكة والأجنحة ما يشاء.

وقيل: «الخلق» خلق الإنسان، و«ما يشاء» الخلق الحسن، أو الصوت الحسن، أو الحظُّ الحسن، أو الملاحَةُ في العينين، أو في الأنف، أو في الوجه،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٦، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٦١.

أو خفَّةُ الروح، أو جعودة الشعر وحسنه، أو العقل، أو العلم، أو الصنعة، أو العفَّة في الفقراء، أو حلاوة النطق. وذكروا في بعض ذلك أخباراً مرفوعةً، والحقُّ أنَّ ذلك من باب التمثيل لا الحصر، والآيةُ شاملةٌ لجميع ذلك، بل شاملةٌ لما يُستحسن ظاهراً، ولما لا يستحسن، وكلُّ شيء من الله عزَّ وجلَّ حسن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ تعليلٌ بطريق التحقيق للحكم المذكور، فإنَّ شمولَ قدرته تعالى لجميع الأشياء ممَّا يوجبُ قدرتَه سبحانه على أن يزيدَ في كلِّ خلقٍ كلَّ ما يشاؤه تعالى إيجاباً بيِّناً.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ أي: ما يطلقها ويرسلها، فالفتح مجازٌ عن الإرسال بعلاقة السببيَّة، فإنَّ فتحَ المغلق سببٌ لإطلاق ما فيه وإرساله، ولذا قوبل بالإمساك والإطلاق كنايةً عن الإعطاء، كما قيل: أطلق السلطانُ للجند أرزاقَهم، فهو كنايةٌ متفرِّعةٌ على المجاز.

وفي اختيار لفظ الفتح رمزٌ إلى أنَّ الرحمةَ من أَنْفَس الخزائن وأعزِّها منالاً، وتنكيرُها للإشاعة والإبهام، أي: أيَّ شيءٍ يفتح الله تعالى من خزائن رحمته، أيِّ رحمةٍ كانت، من نعمةٍ وصحَّةٍ، وأمنٍ وعلم وحكمةٍ، إلى غير ذلك ممَّا لا يحاط به، حتى إنَّ عروة كان يقول ـ كما أخرج ابنُ المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير عنه في ركوب المَحْمِل[1] ـ: هي والله رحمةٌ فُتِحت للناس، ثمَّ يقول: (مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ) إلخ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ: الرحمة: المطر. وعن ابن عباس: التوبة[2]. والمراد التمثيل،

والجارُّ والمجرور في موضع الحال، لا في موضع الصفة؛ لأنَّ اسم الشرط لا يوصف.

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: فلا أحد يقدرُ على إمساكها ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي: أيَّ شيء يمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ أي: فلا أحد يقدرُ على إرساله. واختلاف الضميرين لِمَا أنَّ

(١) المحمل: الهودج. المعجم الوسيط (حمل).
(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

مرجعَ الأول مبيَّنٌ بالرحمة، ومرجع الثاني مطلقٌ يتناولها وغيرها.

وفي ذلك - مع تقديم أمر فتح الرحمة - إشعارٌ بأنَّ رحمتَه تعالى سبقت غضبَه عزَّ وجلَّ، كما ورد في الحديث الصحيح[(١)].

وقيل: المراد: وما يمسك من رحمةٍ، إلَّا أنَّه حذف المبيّن لدلالة ما قبلُ عليه، والتذكيرُ باعتبار اللفظ، وعدمِ ما يقوِّي اعتبارَ المعنى في التلفُّظ.

وأُيِّد بأنَّه قُرئ: «فلا مرسل لها» بتأنيث الضمير[(٢)].

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على كلِّ ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ الذي يفعلُ كلَّ ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لما قبلَها، ومعرِبٌ عن كون كلٍّ من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التي يدورُ عليها أمر التكوين[(٣)].

وما أدعَى هذه الآية إلى الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عمَّا سواه عزَّ وجلَّ، وإراحةِ البال عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليال.

وقد أخرج ابنُ المنذر عن عامر بن عبد قيس قال: أربع آياتٍ من كتاب الله تعالى إذا قرأتُهُنَّ فما أبالي ما أصبحُ عليه وأمسي: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] و﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[(٤)] [هود: ٦].

وبعد ما بيَّن سبحانه أنه الموجدُ للملك والملكوت، والمتصرِّف فيهما على

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١)، وانظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنعام.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٩.

(٣) في الأصل: التمكين. والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٧/ ١٤٢، والكلام منه.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

الإطلاق، أَمرَ الناس قاطبةً، أو أهل مكَّة ـ كما روي عن ابن عباس، واختاره الطيبيُّ ـ بشكر نعمه عزَّ وجلَّ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنعامه تبارك وتعالى عليكم، إنْ جُعلت النعمةُ مصدراً، أو: كائنةً عليكم، إن جُعلت اسماً، أي: راعوها واحفظوها بمعرفة حقِّها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها، فليس المرادُ مجرَّدَ الذكر باللسان، بل هو كنايةٌ عما ذكر.

وعن ابن عباس ـ وقد جعل الخطاب لمن سمعت ـ: اذكروا نعمةَ الله عليكم، حيث أسكَنَكم حرمه، ومنعكم من جميع العالم، والناسُ يتخطَّفون من حولكم. وعنه أيضاً: نعمة الله تعالى: العافية. والأَوْلى عدم التخصيص.

ولمَّا كانت نِعَمُ الله تعالى مع تشعُّب فنونها منحصرةً في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، نَفَى سبحانَه أن يكون في الوجود شيءٌ غيره سبحانه يصدرُ عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الذي هو لإنكار التصديق وتكذيب الحكم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، و«هل» تأتي لذلك، كما في «المطوَّل» وحواشيه. وقولُ الرضيِّ: إنَّ «هل» لا تستعملُ للإنكار: أرادَ به الإنكارَ على مُدَّعي الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠] ويلزمه النفي، والإنكارَ على من أوقعَ الشيء، كما في قولك: أتضربُ زيداً وهو أخوك[١].

أي: هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجودٌ لكم أو للعالم؟! على أنَّ «خالق» مبتدأ محذوفُ الخبر، زيدت عليه «من» لتأكيد العموم، و«غير الله» صفةٌ له باعتبار محلِّه، وصحَّت الوصفيَّةُ به مع إضافته إلى أعرف المعارف؛ لتوغُّله في التنكير، فلا يكتسب تعريفاً في مثل هذا التركيب.

وجُوِّزَ أنْ يكون بدلاً من «خالق» بذلك الاعتبار، ويعتبر الإنكار في حكم النفي؛ ليكون «غير الله» هو الخالق المنفيّ، ولأنَّ المعنى على الاستثناء، أي:

(١) وثالث قسمي الإنكار المذكورين أن «هل» لإنكار وقوع الشيء. قال الخفاجي في حاشيته ٧/ ٢١٥: ويستعمل «هل» في الأخير دون الأولين.

لا خالقَ إلَّا الله تعالى، والبدليَّةُ في الاستثناء بـ «غير» إنَّما تكون في الكلام المنفيِّ، وبهذا الاعتبار زيدت «من» عند الجمهور، وصحَّ الابتداء بالنكرة.

وكذا جُوِّزَ أن يكون فاعلاً بـ «خالق» لاعتماده على أداة الاستفهام، نحو: أقائمٌ زيد، في أحد وجهيه، وهو حينئذٍ سادٌّ مسدَّ الخبر.

وتعقَّبهُ أبو حيَّان بقوله: فيه نظر، وهو أنَّ اسمَ الفاعل أو ما يجري مجراه، إذا اعتمدَ على أداة الاستفهام وأجريَ مجرى الفعل، فرفع ما بعدَه، هل يجوزُ أن تدخل عليه «من» التي للاستغراق، فيقال: هل من قائم الزيدون، كما تقول: هل قائم الزيدون؟ والظاهرُ أنَّه لا يجوزُ، ألا ترى أنَّه إذا أجريَ مجرى الفعل لا يكون فيه عموم، بخلافه إذا دخلت عليه «من»، ولا أحفظُ مثله في لسان العرب، وينبغي أن لا يُقْدَمَ على إجازة مثل هذا إلَّا بسماعٍ من كلامهم[1].

وفيه أنَّ شرط الزيادة والإعمال موجودٌ، ولم يُبدِ مانعاً يُعَوَّل عليه، فالتوقُّفُ تعنُّتٌ من غير توقُّف.

وفي «الكشف»: لا مانعَ من أن يكون «غير» خبراً، ومنعه الشهاب بأنَّ المعنى ليس عليه[2].

وقرأ ابن وثَّاب وشقيق وأبو جعفر وزيد بن عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ: «غيرِ» بالخفض[3] صفةً لـ «خالق» على اللفظ، وهذا متعَيِّنٌ في هذه القراءة، ولأنَّ توافق القراءتين أولى من تخالفهما كان الأظهرُ في القراءة الأولى كونَه وصفاً لـ «خالق» أيضاً.

وقرأ أبو الفضل بن إبراهيم النحويُّ: «غيرَ» بالنصب على الاستثناء[4].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٢١٥.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١، وفي الأخير قراءة أبي جعفر، وقرأ بها أيضاً من العشرة خلف.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٠.

وقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ بالمطر والنبات، كلامٌ مبتدأ لا محلَّ له من الإعراب، لا صفة «خالق» باعتبار لفظه أو محلِّه.

قال في «الكشف»: لأنَّ المعنى على التقريع والتذكير بما هم معترفون به، فكأنَّه قيل: هل من خالقٍ لتلك النعم التي أمرتم بذكرها، أو مطلقاً - وهو أولى، وتدخل دخولاً أوَّليّاً - غير الله، ثم تمَّم ذلك بأنَّه يرزُقكم من السماء والأرض، وذلك أيضاً يقتضي اختصاصَه تعالى بالعبادة، كما أنَّ الخالقيَّة تقتضي ذلك. وفيه أنَّ الخالقَ لا يكونُ إلَّا رازقاً، ولو قيل: هل من خالقٍ رازقٍ من السماء والأرض غيرُ الله؟ يخرج الكلام عن سَنَنه المقصود.

وجوزَ أن يكون «خالق» فاعلاً لفعلٍ مضمرٍ يفسِّره المذكور، والأصل: هل يرزقكم خالقٌ، و«من» زائدة في الفاعل.

وتُعقِّبَ بأنَّ ما في النظم الجليل إن كان من باب: هل رجلٌ عرف؟ فقد صرَّح السكاكيُّ(١) بقبح هذا التركيب؛ لأن «هل» إنما تدخلُ على الجملة الخبرية، فلا بدَّ من صحتها قبل دخول «هل»، و: رجل عرف، لا يصحُّ بدون اعتبار التقديم والتأخير؛ لعدم مصحِّح الابتدائية سواه، وإذا اعتبر التقديم والتأخير كان الكلامُ مفيداً لحصول التصديق بنفس الفعل، فلا يصحُّ دخول «هل» عليه؛ لأنَّها لطلب التصديق، وما حُصِّلَ لا يُطْلَب؛ لئلَّا يلزمَ تحصيلُ الحاصل، ولاحتمال أنْ يكون رجل فاعلَ فعلٍ محذوف؛ قال بالقبح دون الامتناع.

وإن كان من باب: هل زيد عرف؟ فقد صرَّح العلَّامة الثاني السعدُ التفتازانيُّ بأنَّه قبيحٌ باتِّفاق النحاة، وأنَّ ما ذكره صاحب «المفصَّل» من أنَّ نحو: هل زيد خرج؟ على تقدير الفعل: تصحيحٌ للوجه القبيح البعيد، لا أنَّه شائعٌ حسنٌ، غايةُ ما في الباب أنَّ سببَ قبحه ليس ما ذكر في قبح: هل زيد عرف؟ عند السكاكيِّ؛ لعدم تأتِّيه فيه، بل السبب أنَّ «هل» بمعنى «قد» في الأصل، وأصله: أَهَلْ، كقوله:

(١) في مفتاح العلوم ص ٣٠٨-٣٠٩.

أهـل عـرفـتَ الـدار بـالـغـرتـيـن[1]

وترك الهمزة قبلها لكثرة وقوعها في الاستفهام، فأقيمت هي مقام الهمزة وتطفَّلت عليها في الاستفهام، و«قد» من لوازم الأفعال، فكذا ما هي بمعناها، ولم يقبح دخولها على الجملة الاسمية التي طرفاها اسمان؛ لأنَّها إذا لم تر الفعل في حيِّزها تتسلَّى عنه ذاهلةً، وهذا بخلاف ما إذا رأته، فإنَّها حينئذٍ تتذكر عهوداً بالحمى، وتحنُّ إلى الإلف المألوف، وتطلبُ معانقته، ولم ترضَ بافتراق الاسم بينهما، ويعلمُ من هذا أنَّه لا فرقَ عند النحاة بين: هل رجل عرف؟ و: هل زيد عرف؟ في القبح، لذلك.

وأجابَ بعضُهم بأنَّ مُجوِّزَ هذا الوجه الزمخشريُّ ومتابعوه، وهو لا يسلِّم ما ذكر؛ لأنَّ حرفَ الشرط كان مثلاً ألزمَ للفعل من «هل»؛ لأنَّه لا يجوزُ دخولُه على الجملة الاسميَّة التي طرفاها اسمان كما دخلت عليها «هل»، وقد جازَ بلا قبحٍ عملُ الفعل بعده على شريطة التفسير، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]، فيجوز في «هل» بالطريق الأَوْلَى.

وقيل: يجوز أن يكون «يرزقكم» إلخ مستأنفاً في جواب سؤالٍ مقدَّر، تقديره: أيُّ خالقٍ يسأل عنه؟ وأن يكون هو الخبر لـ «خالق».

ولا يخفى على متأمِّلٍ أنَّ ما نقل عن «الكشف» قاضٍ بمرجوحيَّة هذه الأوجه جميعها، فتأمَّل.

وفي الآية على ما هو الأَوْلَى في تفسيرها وإعرابها ردٌّ على المعتزلة في قولهم: العبدُ خالقٌ لأفعاله، ونصرةٌ لأهل السنة في قولهم: لا خالق إلا الله تعالى.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ للنفي المفهوم ممَّا تقدَّم قصداً، ولم يجوِّز

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وسيأتي ١٨/٢٥ بلفظ بالغَرِيَّيْن. وهو الصواب. والغريَّان: موضع بالكوفة نحو فرسخين منها، وهو مثنى الغَرِيّ، بفتح الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وتشديد الياء. كذا قال عبد القادر البغدادي في الخزانة، وهو من قصيدة لخطام المجاشعي من البحر السريع. انظر الخزانة ١١/ ٢٦١-٢٦٩.

جارُ الله أنْ يجعل صفة لـ «خالق» كما جعل «يرزقكم» صفة له، حيث قال: ولو وصلت جملة «لا إله إلا هو» كما وصلت «يرزقكم» لم يساعد عليه المعنى؛ لأنَّ قولَك: هل من خالقٍ آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق، غيرُ مستقيم؛ لأنَّ قولَك: هل من خالق سوى الله، إثباتٌ لله تعالى، فلو ذهبت تقول ذلك كنتَ مناقضاً بالنفي بعد الإثبات(١). اهـ.

وبيَّن صاحبُ «الكشف» وجهَ المناقضة على تقدير أنْ يكون «غير الله» صفة، بأنَّ الكلامَ مسوقٌ لنفي المشاركة في الصفة المحقَّقة، أعني: الخَلْق، فقولك: هل من خالقٍ آخر سوى الله، إثباتٌ لله تعالى ونفي المشارك له فيها، ثم وصفُ الآخر بانحصار الإلهية فيه يكون لنفي خالقيته دون تفرُّدٍ بالإلهية، والتفرُّد بالإلهية مع مغايرته لله تعالى متناقضان؛ لأنَّ الأولَ ينفيه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، والثاني يثبتُه مع الغير، جلَّ عن كلِّ شريكٍ ونقص.

ثم قال: والتحقيقُ في هذا أنَّ «هل» لإنكار ما يليها، وما تلاهُ إنْ كان من تتمَّته ينسحبُ عليه حكم الإنكار بالتبعيَّة(٢)، وإلَّا كان مُبْقًى على حاله نفياً وإثباتاً، ولمَّا كان الكلامُ في الخالقية على ما مرَّ، لم يكن الوصفان ـ أعني تفرُّد الآخر بالإلهيَّة ومغايرَته للقيوم الحقِّ ـ مصبّاً له، وهما متناقضان في أنفسهما على ما بُيِّن، فيلزم ما ذكره جارُ الله لزوماً بيِّناً. اهـ.

وقد دَفَع بتقريره ذلك كثيراً من القال والقيل، بيد أنَّه لا يخلو عن بحث، ويمكنُ تقرير المناقضة على تقدير الوصفيَّة بوجهٍ أظهر، لعلَّه لا يخفى على المتأمِّل، ويجوزُ أنْ يكونَ المانعُ من الوصفيَّة النظمَ المعجز، وحاكمه الذوق السليم، والكلام في ذلك طويلٌ فتأمَّل.

والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنَّه قيل: وإذا تبيَّن تفرُّده تعالى بالألوهيَّة والخالقيَّة والرازقيَّة، فمن أيِّ وجهٍ تُصرَفون عن التوحيد إلى الشرك؟!

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٠.

(٢) في (م): بالبقية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ إلخ تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام بعموم البليَّة والوعدِ له ﷺ والوعيدِ لأعدائه، والمعنى: وإن استمرُّوا على أن يكذِّبوك فيما بلَّغتَ إليهم من الحقِّ المبين بعد ما أقمتَ عليهم الحجَّة وألقمتَهم الحَجَر، فتأسَّ بأولئك الرسل في الصبر، فقد كذَّبهم قومُهم وصبرُوا، فجملة: «قد كذبت رسل من قبلك» قائمةٌ مقام جواب الشرط، والجواب في الحقيقة: تأسَّ، وأقيمت تلك الجملةُ مقامَه اكتفاءً بذكر السبب عن ذكر المسبَّب، وجُوِّز أن تُجعَل هي الجواب من غير تقدير، ويكون المترتِّب على الشرط الإعلام والإخبار، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وتنكير «رسل» للتعظيم والتكثير الموجبَين لمزيد التسلية، والحثُّ على التأسِّي والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه، أي: رسلٌ أولو شأنٍ خطيرٍ وعددٍ كثير.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾ لا إلى غيره عزَّ وجلَّ، فيجازي سبحانه كلّاً منك ومنهم بما يليقُ به.

وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع به تعالى مع إبهام الجزاء ثواباً وعقاباً من المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى.

وقُرئ: «تَرجع» بفتح التاء[1]، من الرجوع، والأوَّل أدخلُ في التهويل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ المشار إليه بقوله سبحانه: «وإلى الله ترجع الأمور» من البعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ لا محالةَ من غير خُلْفٍ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن يذهلكم التمتُّع بمتاعها ويلهيكم التلهِّي بزخارفها عن تداركِ ما ينفعكم يومَ حلول الميعاد. والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإنْ توجَّه النهيُ صورةً إليها نظيرَ قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ [هود: ٨٩]، وقولك: لا أرينك هنا.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ حيث إنَّه جلَّ شأنه عفوٌّ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ ﴿ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾

---

(١) هي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. انظر التيسير ص ٨٠، والنشر ٢/٢٠٨-٢٠٩.

أي: المبالغ في الغرور، وهو ـ على ما رويَ عن ابن عباس والحسن ومجاهد ـ الشيطانُ، فالتعريف للعهد، ويجوز التعميم، أي: لا يغرَّنَّكم كلُّ من شأنُه المبالغةُ في الغرور، بأن يمنِّيكم المغفرةَ مع الإصرار على المعصية قائلاً: إنَّ الله يغفرُ الذنوب جميعاً، فإنَّ ذلك وإن أمكن، لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقُّع من قبيل تناول السمِّ تعويلاً على دفع الطبيعة.

وتكرير فعل النهي؛ للمبالغة فيه، ولاختلاف الغرورين في الكيفية.

وقرأ أبو حيوة وأبو السمَّال: «الغُرُور» بالضمِّ[١] على أنَّه مصدر غرَّه يغرُّه، وإن قلَّ في المتعدِّي، أو جمع غَارّ، كقُعود وسُجود مصدرين وجمعين، وعلى المصدريَّة الإسنادُ مجازيّ.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةً عامَّةً قديمةً لا تكاد تزول، ويُشعِرُ بذلك الجملةُ الاسميَّة و«لكم»، وتقديمُه للاهتمام ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم إيَّاه في عقائدكم وأفعالكم، وكونوا على حذرٍ منه في مجامع أحوالكم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ تقريرٌ لعداوته، وتحذيرٌ من طاعته، بالتنبيه على أنَّ غرضَه في دعوة شيعته إلى اتِّباع الهوى والركونِ إلى ملاذِّ الدنيا ليس إلَّا توريطَهم وإلقاءهم في العذاب المخلد من حيث لا يشعرون، فاللام ليست للعاقبة، وزعم ابن عطية أنَّها لها[٢].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم، وإجابتهم لدعوة الشيطان، واتِّباعهم لخطواته، ولعلَّ تنكير «عذاب» لتعظيمه بحسب المدَّة، فكأنَّه قيل: لهم عذاب دائم شديد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ لا غايةَ لهما بسبب ما ذُكر من الإيمان والعمل الصالح.

و«الذين كفروا» مبتدأ، خبره: «لهم عذاب»، وكذا «الذين آمنوا» و«لهم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠، وانظر تفسير القرطبي ١٧/ ٣٤٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٠.

مغفرة» إلخ. وجَوَّزَ بعضُهم كون «الذين كفروا» في موضع خفض بدلاً من «أصحاب السعير»، أو صفةً له، أو في موضع نصب بدلاً من «حزبه»، أو صفة له، أو في موضع رفع بدلاً من ضمير «ليكونوا»، والكلُّ مفوِّتٌ لجزالة التركيب كما لا يخفى على الأريب.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: حُسِّن له عمله السيِّئ ﴿فَرَءَاهُ﴾ فاعتقده بسبب التزيين ﴿حَسَنًا﴾ فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«من» موصولةٌ في موضع رفع على الابتداء، والجملةُ بعدها صلتُها، والخبر محذوف، والفاء للتفريع، والهمزة للإنكار، فإن كانت مقدَّمةً من تأخير ـ كما هو رأي سيبويه والجمهور في نظير ذلك ـ فالمراد تفريعُ إنكار ما بعدَها على ما قبلها من الحكمين السابقين، أي: إذا كانت عاقبةُ كلٍّ من الفريقين ما ذُكر، فليس الذي زُيِّن له الكفرُ من جهة عدوِّه الشيطان فاعتقدَه حسناً وانهمك فيه، كمن استقبحه واجتنبَه واختار الإيمان والعمل الصالح، وإن كانت في محلِّها الأصليِّ وكان العطفُ على مقدَّرٍ تكون هي داخلةً عليه[1] ـ كما ذهب إليه جمعٌ ـ فالمرادُ إنكارُ[2] ما في حيِّزها، ويكون التقدير: أهما ـ أي: الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ متساويان، فالذي زُيِّنَ له الكفرُ من جهة عدوِّه الشيطان، فاعتقدَه حسناً وانهمك فيه، كمن استقبحَه واجتنبَه واختارَ الإيمان والعمل الصالح؟ أي: ما هما متساويان، ليكون الذي زُيِّنَ له الكفر كمن استقبحه، وحذف هذا الخبر لدلالة الكلام عليه، واقتضاء النظم الجليل إيَّاه.

وقد صرَّح بالجزأين في نظير الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي التعبير عن الكافر بمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً إشارةٌ إلى غاية ضلاله،

---

(١) في (م): إليه.
(٢) لفظة: إنكار. ليست في (م).

حتى كأنَّه غلبَ على عقله، وسَلَبَ تمييزَه، فشأن المغلوب على عقله ذلك كما يشير إليه قول أبي نواس:

واسقني حتى تراني حسناً عندي القبيحُ[١]

وظاهرُ كلام الزجَّاج أنَّ «مَن» شرطية، حيث قال: الجوابُ على ضربين:

أحدهما: ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ إلخ، ويكون المعنى: أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فأضلَّه اللهُ ذهبت نفسُك عليهم حسرة.

وثانيهما: ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ إلخ، ويكون المعنى: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله كمن هداهُ الله تعالى[٢]. وإلى ذلك ذهب ابنُ مالكٍ أيضاً[٣].

واعترض ابنُ هشام على التقدير الثاني بأنَّ الظرفَ لا يكون جواباً، وإن قلنا: إنَّه جملة[٤]. ووجهُه أنَّ الرضيّ صرَّح بأنَّه لا يكون مستقرّاً في غير الخبر والصفة والصلة والحال، ولم يَذكر الجواب، لا أنَّ ذلك لعدم الفاء، وتقديرُها[٥] داخلةً على مبتدأ يكون الظرف خبره، والجملةُ بتمامها جزاءً = غير جائز؛ لما فيه من التكلُّف، كما قيل.

وزعم بعضهم أنَّه يجوزُ أن يكون الزَّجَّاجُ قد ذهب إلى أن «من» موصولة، وأطلق على خبرها الجواب لشَبَهه به في المعنى، ألا تراهم يدخلون الفاء في خبر الموصول الذي صلته جملةٌ فعليَّةٌ، كما يدخلونها في جواب الشرط، فيقولون: الذي يأتيني فله درهم.

وفيه أنَّه خلاف الظاهر، ولا قرينة على إرادته سوى عدم صحة الجزائية.

---

(١) ديوان أبي نواس ص ١٦٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٦٤.

(٣) في شرح الألفية، كما صرح بذلك الشهاب في حاشيته ٧/ ٢١٧. وانظر شرح ابن الناظم على الألفية ص ٢٧٥.

(٤) مغني اللبيب ص ٧٥٦-٧٥٧.

(٥) أي: الفاء. انظر حاشية الشهاب ٧/ ٢١٧.

وضُعِّفَ التقديرُ الأول بالفصل بين ما فيه الحذف ودليلِ المحذوف، مع خفاء ربط الجملة بما قبلها عليه.

ولا ينبغي أنْ تكون «من» شرطيَّةً جوابها: فرآه؛ لما في ذلك من الركاكة الصناعية، فإنَّ الماضيَ في الجواب لا يقترنُ بالفاء بدون «قد»، مع خفاء أمر إنكار رؤية سوءِ العمل حسناً بعد التزيين، وتفريعِه على ما قبله من الحكمين.

وكونُ الإنكار لما أنَّ المزيِّنَ هو الشيطان العدوُّ، والتفريعُ على قوله تعالى: (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ) = لا يخفى حالُه.

فالوجهُ المعوَّلُ عليه ما تقدَّم، وجُعل عليه قوله تعالى[1]: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ تعليلاً لسببيَّة التزيين لرؤية القبيح حسناً، وفيه دفعُ استبعاد أن يَرى الشخصُ القبيحَ حسناً بتزيين العدوِّ إيَّاه، ببيان أنَّ ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ التابعةِ للعلم المتعلِّق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر، وإيذانٌ بأنَّ أولئك الكفرةَ الذين زُيِّنَ لهم سوءُ عملهم فرأوه حسناً ممَّن شاء الله تعالى ضَلالهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ تفريعٌ عليه، أي: إذا كان الأمر كذلك «فلا تذهب نفسك» إلخ.

وذكر المولى سعدي چلبي أنَّ الهمزةَ في «أفمن» على التقدير الأول من التقديرين اللذين نُقِلا عن الزَّجَّاج لإنكار ذهاب نفسه ﷺ عليهم حسرة، والفاء في قوله سبحانه: «فإن الله» إلخ تعليلٌ لما يُفهِمه النظمُ الجليل من أنَّه لا جدوى للتحسُّر.

وفي «الكشّاف» أنَّه تعالى لمَّا ذكرَ الفريقين؛ الذين كفروا والذين آمنوا، قال سبحانه لنبيِّه ﷺ: «أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً»، يعني: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عملِه من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له، فكأنَّ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام قال: لا، فقال تعالى: «فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات»[2].

---

(١) في (م): . . . ما تقدم جعل عليه، وقوله تعالى. . .
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠١.

ويفهم من كلام الطيبيِّ أنَّ فاء «فلا تذهب» جزائية، وفاء «فإنَّ الله» للتعليل، وأن الجملة مقدَّمةٌ من تأخير، فقد قال: إنَّه ﷺ كان حريصاً على إيمان القوم، وأن يُسْلِكَ الضالِّين في زمرة المهتدي، فقيل له عليه الصلاة والسلام على سبيل الإنكار لذلك: «أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله» من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له، فلا بدَّ أن يُقِرَّ ﷺ بالنفي ويقول: لا، فحينئذٍ يقال له: فإذا كان كذلك «فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات» «فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء»، فقدَّم وأخَّر. انتهى. وفيه نظر.

وفي الآيات على ما يقتضيه ظاهر كلام الزمخشريِّ لفٌّ ونشرٌ، وبذلك صرَّحَ الطيبيُّ، ثم قال: الأحسنُ أن تجعل الآيات من الجمع والتقسيم والتفريق، فقوله تعالى: «يا أيها الناس إن وعد الله حق» جَمَعَ الفريقين معاً في حكم نداء الناس، وجَمَعَ ما لهما من الثواب والعقاب في حكم الوعد، وحذرهما معاً عن الغرور بالدنيا والشيطان، وأمَّا التقسيمُ فهو قوله تعالى: «الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ»، وأمَّا التفريق فقوله تعالى: «أفمن زُيِّن له سوء عمله»؛ لأنَّه فرَّقَ فيه، وبيَّنَ التفاوتَ بين الفريقين، كما قال الزمخشريُّ: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له[1]. وفُرِّعَ على ذلك ظهورُ أنَّ الفاء في «أفمن» للتعقيب، والهمزةُ الداخلةُ بين المعطوف والمعطوف عليه لإنكار المساواة، وتقريرِ البونِ بين الفريقين، وأنَّ المختارَ من أوجهٍ ذكرها السكاكيُّ في «المفتاح»[2] تقديرُ: كمن هداه الله تعالى، فحُذِفَ؛ لدلالة: «فإن الله يضلُّ من يشاء ويَهدي من يشاء».

ولهم في نظم الآيات الكريمة كلامٌ طويل غير ما ذكرناه، من أرادَه فليتتبَّع كتبَ التفاسير والعربية، ولعلَّ فيما ذكرناه مقنعاً لمن أوتي ذهناً سليماً وفهماً مستقيماً.

والحسرات جمعُ حسرة، وهي الغمُّ على ما فاته أو الندم[3] عليه، كأنَّه انحسَر عنه ما حملَه على ما ارتكبه، أو انحسر قواه من فرط غمٍّ، أو أدركه إعياءٌ عن

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠١.

(٢) ص ٢٧٩.

(٣) في (م): والندم.

تَدارك ما فَرَطَ منه. وانتصبت على أنَّها مفعولٌ من أجله، أي: فلا تُهلِك نفسَك للحسرات، والجمعُ ـ مع أنَّ الحسرة في الأصل مصدرٌ صادقٌ على القليل والكثير ـ للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسُّف والتحسُّر.

و«عليهم» صلةُ «تذهب»، كما يقال: هلك عليه حبّاً، و: مات عليه حزناً، أو هو بيانٌ للمتحسَّر عليه، فيكون ظرفاً مستقرّاً ومتعلَّقه مقدَّر، كأنَّه قيل: على من تذهب؟ فقيل: عليهم. وجُوِّزَ أن يتعلَّق بـ «حسرات» بناءً على أنَّه يُغتَفر تقديمُ معمول المصدر عليه إذا كان ظرفاً، وهو الذي أختارُه، والزمخشريُّ لا يجوِّزُ ذلك. وجَوَّزَ أنْ يكون «حسرات» حالاً من «نفسك» كأنَّ كلَّها صارت حسراتٍ لفرط التحسُّر، كما قال جرير:

مشقَ الهواجرُ لحمهنَّ مع السُّرَى حتى ذَهَبْنَ كَلَاكِلاً وصُدورا[1]

يريد: رجعنَ كلاكلاً وصدوراً، أي: لم يبق إلَّا كلاكلها وصدورُها[2]. وهو الذي ذهب إليه سيبويه[3] في البيت، وقال المبرِّد: كلاكلاً وصدوراً: تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعل، أي: حتى ذهب كلاكلها وصدورها، ومن هذا قوله:

فعلى إِثْرِهم تَساقَطُ نفسي حسراتٍ وذِكْرُهُم لي سَقامُ[4]

وفيه مبالغاتٌ ثلاث.

وقرأ عبيد بن عمير: «زَيَّنَ» مبنيّاً للفاعل، ونصب «سوءَ». وعنه أيضاً: «أسوأ» على وزن أفعل، وأريدَ بأسوأ عملِه الشركُ.

---

(١) ديوان جرير ١/ ٢٢٧، والكتاب ١/ ١٦٢. قوله: مشق، أي: أذهب لحومهنّ، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدر، فلذلك ذكر معه الصدر، وَصَفَ رواحل أهزلها دُؤوب السير في الهواجر والليل. ينظر شرح الشواهد للشنتمري ص ١٣٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠١.

(٣) انظر الكتاب ١/ ١٦٢.

(٤) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٩، والأصمعيات ص ١٨٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٧٨، وخزانة الأدب ٩/ ٥٩١.

وقرأ طلحة: «أمن» بغير فاء[١]، قال صاحب «اللوامح»: فالهمزةُ للاستخبار والتقرير، ويجوز أن تكون للنداء، وحذف ما نودي لأجله، أي: تفكَّر وارجع إلى الله «فإنَّ الله» إلخ.

والظاهر أنها للإنكار، كما في قراءة الجمهور.

وقرأ أبو جعفر وقتادة وعيسى والأشهب وشيبة وأبو حيوة وحميد والأعمش وابن محيصن: «تُذْهِب» مِن أَذْهَبَ مسنداً إلى ضمير المخاطب «نفسَكَ» بالنصب على المفعولية، ورويت عن نافع[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾ في موضع التعليل لما قبله، وفيه وعيد للكفرة، أي: إنَّه تعالى عليمٌ بما يصنعونه من القبائح، فيجازيهم عليه.

والآيات من قوله تعالى: (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ) إلى هنا نزلت ـ على ما روي عن ابن عباس ـ في أبي جهل ومشركي مكة، وأخرج جويبر عن الضحاك[٣] أنها نزلت في عمر رضي الله عنه وأبي جهل، حيث هدى الله تعالى عمر، وأضلَّ أبا جهل.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبتدأ وخبر، وقرأ حمزة والكسائيُّ وابن كثير: «الريحَ»[٤]، وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالَّة على كمال القدرة والحكمة، وكثيراً ما يفعلون ذلك بفعلٍ فيه نوعُ تميُّزٍ وخصوصية بحالٍ تستغرب أو تهمُّ المخاطَبَ أو غير ذلك، ومنه قول تأبَّط شرّاً:

ألا مَنْ مبلغٌ فتيانَ فَهْمٍ بما لاقيتُ عند رَحَى بِطَانِ
بأنِّي قد رأيتُ الغُولَ تهوي بسَهْبٍ كالصَّحيفة صَحْصَحَانِ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠١.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠١، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٥١.
(٣) لباب النقول ص ١٨١، ووقع في مطبوع الدر المنثور ٥/ ٢٤٥: وأخرج الطبري من طريق جويبر عن الضحاك؟! والخبر ليس في تفسير الطبري.
(٤) التيسير ص ٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣. وهي قراءة خلف من العشرة.

فقلت لها كِلَانا نِضْوُ أرضٍ[١] أخو سفرٍ فخلّي لي مكاني
فشدَّت شدَّةً نحوي فأهوَتْ لها كفِّي بمصقولٍ يماني
فأضربُها بلا دَهَشٍ فخرَّت صريعاً لليدين وللجِرانِ[٢]

ولأنَّ الإثارة خاصِّيَّةٌ للرياح وأثرٌ لا ينفكُّ ـ في الغالب ـ عنها، فلا يوجدُ إلَّا بعد إيجادها، فيكون مستقبلاً بالنسبة إلى الإرسال، وعلى هذا يكون استعمالُ المضارع على ظاهره وحقيقته من غير تأويل؛ لأنَّ المعتبرَ زمانُ الحكم لا زمان التكلُّم، والفاء دالَّةٌ على عدم تراخي ذلك، وهو شيءٌ آخر.

وجُوِّزَ أن يكون الإتيانُ بما يدلُّ على الماضي ثمَّ بما يدلُّ على المستقبل إشارةً إلى استمرار الأمر وأنَّه لا يختصُّ بزمانٍ دون زمان، إذ لا يصحُّ المضيُّ والاستقبال في شيءٍ واحد إلَّا إذا قصد ذلك.

وقال الإمام[٣]: اختلافُ الفعلين لأنَّه لمَّا أسندَ فعل الإرسال إلى الله تعالى، وما يفعلُ سبحانه يكون بقوله عزَّ وجلَّ: «كن»، فلا يُبقي في العدم زماناً ولا جزءَ زمان = جيء بلفظ الماضي دون المستقبل؛ لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنَّه كان، وكأنه[٤] تعالى فرغَ من كلِّ شيء، فهو سبحانه قَدَّرَ الإرسال في الأوقات المعلومة، وإلى المواضع المعينة، والتقدير كالإرسال، ولمَّا أسندَ فعل الإثارة إلى الرياح، وهي تؤلَّف في زمان قال سبحانه: «تثير» بلفظ المستقبل. اهـ.

وأُورد عليه قوله تعالى: في سورة الروم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الآية: ٤٨]، وفي سورة الأعراف ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الآية: ٥٧] حيث جيء في الإرسال فيهما بالمضارع، فتأمَّل.

﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قطعةٌ من الأرض لا نباتَ فيها.

---

(١) في الديوان: أين.
(٢) ديوان تأبط شرّاً ص ٢٢٢-٢٢٥، والأغاني ٢١/ ١٣٤. والجِران: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره. والسهب: الفلاة. والصحصحان: ما استوى من الأرض. القاموس (جرن) و(سهب) و(صحح).
(٣) في تفسيره ٢٦/ ٧.
(٤) في الأصل و(م): ولأنه، والمثبت من تفسير الرازي.

وقرئ «ميت» بالتخفيف[١]، وهما بمعنًى واحد في المشهور.

وفي «كلِّيَّات» أبي البقاء الكفوي: الميْت بالتخفيف هو الذي مات، والميِّت بالتشديد والمائت هو الذي لم يمت بعدُ، وأنشد:

ومــن يــكُ ذا روحٍ فــذلــك مــيِّــتٌ وما الميْتُ إلَّا من إلى القبرِ يُحمَلُ[٢]

والمعوَّل عليه هو المشهور.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بالمطر النازل منه المدلولِ عليه بالسحاب، فإنَّ بينهما تلازماً في الذهن كما في الخارج، أو بالسحاب، فإنَّه سببُ السبب، وإحياءُ الأرض إنباتُ الشجر والكلأ فيها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبسها وخلوِّها عن ذلك.

وإيراد الفعلين بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، وإسنادُهما إلى نون العظمة المنبئ عن الاختصاص به تعالى؛ لما فيهما من مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياءِ الأرض وبين البعث الذي شُبِّه به بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربَّانيَّة.

وقال الإمام عليه الرحمة: أسند «أَرْسَل» إلى الغائب، و«ساق» و«أحيى» إلى المتكلِّم؛ لأنَّه في الأول عَرَّفَ سبحانه نفسَه بفعلٍ من الأفعال، وهو الإرسال، ثمَّ لمَّا عُرِفَ قال تعالى: أنا الذي عَرَفْتني سُقْتُ السحابَ، وأحييتُ الأرضَ، ففي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة، فإنَّ كمالَ نعمتَيِ الرِّيَاحِ والسُّحُبِ بالسَّوق والإحياء[٣]. وهو كما ترى.

وقال سبحانه: «فأحيينا به الأرض» دون: فأحييناه ـ أي: البلد الميت ـ به؛ تعليقاً للإحياء بالجنس المعلوم عند كلِّ أحدٍ، وهو الأرض، ولأنَّ ذلك أوفقُ بأمر

---

(١) هي قراءة شعبة وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب. انظر التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) الكليات ص ٨٥٨، وأورد البيت أيضاً صاحب تاج العروس (موت) وقال: قال الخليل: أنشدني أبو عمرو. وقبله:

أيـا سـائـلـي تـفـسـيـر مَـيْـتٍ ومـيِّـتٍ فـدونـك قـد فـسَّـرتُ إن كـنـت تـعـقـلُ

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٧.

البعث. وقال تعالى: «بعد موتها» مع أنَّ الإحياء مؤذِنٌ بذلك؛ لما فيه من الإشارة إلى أنَّ الموتَ للأرض الذي[1] تعلَّق بها الإحياء معلومٌ لهم، وبذلك يَقْوَى أمرُ التشبيه، فليتأمَّل.

و«النشور» على ما في «البحر» مصدرُ نَشَرَ الميتُ: إذا حيي، قال الأعشى:

حتى يقولَ الناس ممَّا رأوا يا عجباً للميِّت الناشر[2]

وفي «نهاية» ابن الأثير: يقال: نَشَر الميتُ يَنْشُر نشوراً، إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله تعالى: أحياه[3].

وقال الراغب: قيل: نشرَ الله تعالى الميت وأنشرَه بمعنى، والحقيقة أن نَشَر الله تعالى الميتَ مستعارٌ من نَشْرِ الثوب، أي: بَسْطِه، كما قال الشاعر:

طَوَتْكَ خطوبُ دهركَ بعد نشر كذاك خطوبُهُ طيّاً ونشرا[4]

والمراد بالنشور هنا إحياءُ الأموات في يوم الحساب، وهو مبتدأ، والجارُّ والمجرور قبلَه في موضع الخبر. وقيل: الكاف في حيِّز الرفع على الخبرية، أي: مِثْلُ ذلك الإحياءِ الذي تشاهدونَه إحياءُ الأموات يومَ القيامة، في صحَّة المقدوريَّة، وسهولة التأتِّي، من غير تفاوتٍ بينهما أصلاً، سوى الإلف في الأول دون الثاني.

وقال أبو حيان: وقع التشبيهُ بجهات؛ لمَّا قبلت الأرض الميتة الحياةَ اللائقة بها، كذلك الأعضاء تقبلُ الحياة، أو كما أنَّ الريحَ تجمعُ قِطَعَ السحاب، كذلك يجمعُ الله تعالى أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى، أو كما يسوق سبحانه السحابَ إلى البلد الميت يسوقُ عزَّ وجلَّ الروحَ والحياة إلى البدن[5].

وقال بعضهم: التشبيه باعتبار الكيفية. فقد أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: التي.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٢، والبيت في ديوان الأعشى ص١٩١.
(٣) النهاية (نشر).
(٤) المفردات (نشر)، والبيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص ٤٤٢، وفيه: نشراً وطيًّا.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يقومُ مَلَك بالصور بين السماء والأرض، فينفخُ فيه، فلا يبقى خلقٌ لله في السماوات والأرض إلَّا مَن شاء الله تعالى إلَّا ماتَ، ثم يرسل الله تعالى من تحت العرش ماءً كمنيِّ الرجال، فتنبتُ أجسامهم من ذلك الماء، وقرأ الآية، ثم يقوم مَلَكٌ فينفخ فيه، فتنطلقُ كلُّ نفسٍ إلى جسدها[1].

وفي حديث مسلم مرفوعاً: «يُنزلُ الله تعالى مطراً كأنَّه الطَّلُّ، فينبتُ أجساد الناس»[2].

ونباتُ الأجساد من عَجْب الذنب، على ما ورد في الآثار، وقد جاء أنَّه لا يبلى، وهو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز[3].

وقال أبو زيد الوقواقي[4]: هو جوهرٌ فردٌ يبقى من هذه النشأة لا يتغيَّر. ولا حاجةَ إلى التزام أنَّه جوهرٌ فردٌ.

ووراء ذلك أقوالٌ عجيبة في هذا العجْب، فقيل: هو العقل الهيولانيّ، وقيل: بل الهيولى، وعن الغزالي: إنَّما هو النفس، وعليها تنشأ النشأة الآخرة. وعن الشيخ الأكبر[5] أنَّه العين الثابت من الإنسان، وعن بعض المتكلِّمين أنَّه الأجزاءُ الأصلية.

وقال الملَّا صدرا الشيرازي في «أسفاره»: هو عندنا القوَّة الخياليَّة؛ لأنَّها آخر الأكوان الحاصلة في الإنسان، من القوى الطبيعية والحيوانية والنباتية المتعاقبة في الحدوث للمادة الإنسانيَّة في هذا العالم، وهي أول الأكوان الحاصلة في النشأة الآخرة. ثم بيَّن ذلك بما بيَّن، وإنَّه لأضعف من بيت العنكبوت وأوهن، والمعوَّلُ عليه ما يوافقُ فهمَ أهل اللسان، وأيُّ حاجةٍ إلى التأويل بعد التصديق بقدرة الملك الديَّان جلَّ شأنُه وعَظُم سلطانه.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٥، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم. وهو عند الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٦.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفيه: «فتنبت منه أجساد الناس».

(٣) انظر ما سلف عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الإسراء.

(٤) كما في الفتوحات المكية ١/ ٣١٢، وفيه: الرقراقي. ولم أعرفه.

(٥) ينظر الفتوحات المكية ١/ ٣١٢.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الشرفَ والمَنَعَةَ من قولهم: أرضٌ عَزَاز، أي: صُلبة، وتعريفُها للجنس، والآية في الكافرين؛ كانوا يتعزَّزون بالأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبِهم؛ كانوا يتعزَّزون بالمشركين، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩].

و«من» اسم شرط، وما بعده فعل الشرط، والجمع بين «كان» و«يريد» للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ دليل الجواب، ولا يصحُّ جعله جواباً من حيث الصناعة؛ لخلوِّه عن ضميرٍ يعود على «مَنْ»، وقد قالوا: لا بدَّ أن يكون في جملة الجواب ضميرٌ يعود على اسم الشرط إذا لم يكن ظرفاً، والتقدير: من كان يريد العزَّةَ فليطلبها من الله تعالى، فلله وحدَه لا لغيره العزَّةُ، فهو سبحانه يتصرَّفُ فيها كما يريد، فوضع السببَ موضع المسبَّب؛ لأنَّ الطلبَ ممن هي[1] له وفي ملكه جميعها مسبَّبٌ عنه.

وتعريفُ «العزَّة» للاستغراق بقرينة «جميعاً»، وانتصابُه على الحال، والمراد عزَّةُ الدنيا والآخرة، وتقديمُ الخبر على المبتدأ للاختصاص كما أشرنا إليه.

ولا ينافي ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] لأنَّ ما لله تعالى وحدَه العزَّةُ بالذات، وما للرسول ﷺ العزَّةُ بواسطة قُرْبِه من الله تعالى، وما للمؤمنين العزَّةُ بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكأنَّه للإشارة إلى ذلك أعيد الجارُّ.

وقَدَّر بعضهم الجوابَ: فليطع الله تعالى، وأيَّدَ بما رواه أنس ـ كما في «مجمع البيان» ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ ربكم يقول كل يوم: أنا العزيزُ، فمن أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز»[2].

---

(١) في الأصل: هو. والمثبت من (م) وحاشية الخفاجي ٧/ ٢١٨.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢٣٠. والحديث أخرجه الخليلي في الإرشاد ٣/ ٩٢١، والخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٦٠، ٨/ ١٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٧، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٨٦.

=

ومن قَدَّر: فليطلبها من الله تعالى، قال: إنَّ الطلبَ منه تعالى إنَّما يكونُ بالطاعة والانقياد.

وعن الفرَّاء: المعنى: من كان يريدُ علم العزَّة ـ أي: القدرة على القهر ـ لمن هي؟ فلينسبها إلى الله تعالى، فهي له تعالى وحده[١].

وقيل: المعنى: من كان يريدُ العزَّةَ، أي: الغلبة، فهو مغلوبٌ؛ لأنَّ الغلبةَ لله تعالى وحدَه، ولا تتمُّ إلَّا به عزَّ وجلَّ، ونُسبَ هذا إلى مجاهد.

وقيل: تعريفُ «العزَّة» الأولى للاستغراق أيضاً أو للعهد، والمراد الفرد الكامل، والمعنى: من كان يريد العزَّةَ جميعها، أو الفردَ الكاملَ منها، وهي العزَّةُ التي لا يشوبُها ذلَّةٌ من وجهٍ، فهو لا ينالُها، فإنَّها لله تعالى وحده.

وهذا القول أحسنُ من القولين قبله، وأظهرُ الأقوال عندي الأول، وهو منسوبٌ إلى قتادة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إلى آخره، كالبيان لطريق تحصيلِ العزَّة وسلوك السبيل إلى نيلها، وهو الطاعةُ القوليَّةُ والفعليَّة. وقيل: بيانٌ لكون العزَّة كلِّها لله تعالى وبيده سبحانه؛ لأنَّها بالطاعة، وهي لا يعتدُّ بها ما لم تقبل. وقيل: استئناف كلام، وعلى الأول المعوَّل.

و «الكلم» اسم جنسٍ جمعيٌّ عند جمع، واحدُه: كلمة، والمراد بـ «الكلم الطيب» على ما في «الكشاف» و«البحر» عن ابن عباس: لا إله إلا الله[٢]. ومعنى كونه طيِّباً ـ على ما قيل ـ أنَّ العقلَ السليمَ يستطيبُه ويستلذُّه؛ لما فيه من الدلالة على التوحيد الذي هو مدار النجاة، والوسيلة إلى النعيم المقيم، أو يستلذُّه الشرع، أو الملائكةُ عليهم السلام.

وقيل: إنَّه حسنٌ يقبله العقلُ ولا يردُّه.

= قال الخليلي: ولا يعرف له إسنادٌ غيره.
وأورده الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٤/ ٨٤ في ترجمة سعيد بن هبيرة، من غرائبه.

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

وإطلاقُ الكلم على ذلك إنْ كان واحدُه هنا[١] الكلمةَ بالمعنى الحقيقيِّ ظاهرٌ؛ لتضمُّنه عدَّةَ كلمات، لكن في وصفه بالطيِّب بالنظر إلى غير الاسم الجليل خفاءٌ، ولعلَّ ذلك باعتبار خصوصيَّة التركيب. وإن كان واحدُهُ هنا الكلمة بالمعنى المجازيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٥]، و: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: «أصدقُ كلمة قالها شاعر كلمةُ لبيد»[٢]، وقولهم: «لا إله إلا الله» كلمةُ التوحيد، إلى ما لا يُحصى كثرةً، فإطلاقُ الكلم على ذلك؛ لتعدُّده بتعدُّد القائل، وكأنَّ القرينةَ على إرادة المعنى المجازيِّ للكلمة الصادقِ على الكلام الوصفُ بالطيب، بناءً على أنَّ ما يستطيب ويستلذُّ هو الكلام دون الكلمة العريَّة عن إفادة حكمٍ تنبسطُ منه النفس أو تنقبض.

أو يقال: إنَّ كثرةَ إطلاق الكلمة على الكلام وشيوعه فيما بينهم، حتى قال بعضهم - كما نقل الحمصيُّ في «حواشي التصريح» عن بعض شرَّاح الآجرومية -: إنَّه حقيقيةٌ لغويَّة = تغني عن القرينة.

وأخرجَ ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن الحبر أنَّه فسَّر «الكلم الطيب» بذكر الله تعالى[٣].

وقيل: هو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر. وهو ظاهرُ أثرٍ أخرجه ابن مردويه والديلميُّ عن أبي هريرة[٤].

وقيل: هو: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله. وهو ظاهرُ أثرٍ أخرجه جماعةٌ عن ابن مسعود[٥].

---

(١) لفظة: هنا، ليست في (م).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦): (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩، والأسماء والصفات (٨٩٩).

(٤) هو في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٨، والطبراني في الكبير (٩١٤٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٦٧)، والحاكم ٢/ ٤٢٥.

=

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب أنَّه القرآن[١].

وقيل: هو الثناءُ بالخير على صالحي المؤمنين.

وقيل: هو الدعاءُ الذي لا ظلمَ فيه.

وقال الإمام ـ وبه أقتدي ـ: المختارُ أنَّه كلُّ كلامٍ هو ذكرُ الله تعالى، أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم[٢].

وأمَّا ما أفاده كلام الملَّا صدرا في «أسفاره» من أنَّه النفوسُ الطاهرة الزكيَّة، فإنَّه تطلقُ الكلمة على النفس إذا كانت كذلك، كما قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] = فلا ينبغي أن يعدَّ في عداد أقوال المفسرين كما لا يخفى.

وصعود الكلم إليه تعالى مجازٌ مرسلٌ عن قَبوله بعلاقة اللزوم، أو استعارةٌ بتشبيه القَبول بالصعود. وجُوِّزَ أنْ يُجعَلَ الكلمُ مجازاً عما كُتب فيه بعلاقة الحلول، أو يقدَّرَ مضافٌ، أي: إليه يصعدُ صحيفةُ الكلم الطيب، أو يُشبَّهَ وجودُه الخارجيُّ هنا ثم الكتابيُّ في السماء بالصعود، ثمَّ يطلقَ المشبَّه به على المشبَّه، ويُشتَقَّ منه الفعلُ على ما هو المعروف في الاستعارة التبعيَّة.

وقيل: لا مانعَ من اعتبار حقيقة الصعود للكلم، فلله تعالى تجسيدُ المعاني، وكونِ الصعود إليه عزَّ وجلَّ من المتشابه، والكلامُ فيه شهير، والكلامُ بعد ذلك كنايةٌ عن قَبوله والاعتناء بشأن صاحبه، وتقديم الجارِّ والمجرور لإفادة الحصر.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابن مسعود رضي الله عنه والسلميُّ وإبراهيم: «يُصْعِدُ» من أَصعَد، «الكلامَ الطيِّبَ» بالنصب[٣].

= قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٩٠: رواه الطبراني، وفيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات.

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والدر المصون ٩/ ٢١٧، وفيه: الكلم، بدل: الكلام.

وقال ابنُ عطية: وقرأ الضحاك: «يُصْعد» بضمِّ الياء[1]. ولم يَذْكُر مبنيًّا للفاعل ولا مبنيًّا للمفعول، ولا إعرابَ ما بعده. وفي «الكشاف»: وقُرِئ: «إليه يُصْعَد الكلمُ الطيب» على البناء للمفعول، و«إليه يُصعِدُ الكلمَ الطيِّبَ» من أصعدَ، والمُصْعِدُ هو الرجل، أي: يُصْعِدُ إلى الله عزَّ وجلَّ الكلمَ الطيِّبَ[2].

وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «إليه يَصْعَدُ» من صَعِد «الكلامُ» بالرفع[3].

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ مبتدأ وخبرٌ على المشهور، واختلف في فاعل «يرفع» فقيل: ضميرٌ يعودُ على العمل الصالح، وضميرُ النصب يعودُ على «الكلم»، أي: والعمل الصالح يرفعُ الكلمَ الطيِّب، وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد والضحاك وشهر بن حوشب على ما أخرجه عنه[4] سعيد بن منصور وغيره[5].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس أنَّه فسَّر العملَ الصالح بأداء الفرائض، ثمَّ قال: فمن ذكرَ الله تعالى وأدَّى فرائضَه، حملَ عملُه ذكرَ الله تعالى فصعد به إلى الله تعالى، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤدِّ فرائضَه رُدَّ كلامُه على عمله وكان عملُه أولَى به[6].

وتَعقَّب ذلك ابنُ عطية فقال: هذا قولٌ يردُّه[7] معتقد أهل السنة، ولا يصحُّ عن ابن عباس، والحقُّ أنَّ العاصيَ بترك فرائضه إذا ذكرَ الله تعالى وقال كلاماً طيباً،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٣.
(٤) لفظة: عنه. ليست في الأصل.
(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦، وزاد نسبته إلى ابن جرير وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب. وهو عند الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٤٧).
(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩، والأسماء والصفات للبيهقي (٨٩٩)، وسلف بعضه قريباً.
(٧) في الأصل و(م): يرد. والتصويب من المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٥٦، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

كُتِبَ له ذلك، وتُقُبِّل منه، وعليه وزرُ ترك الفرائض، والله تعالى يتقبَّل من كلٍّ من اتَّقى الشرك. انتهى.

ولعلَّ المرادَ برفع العملِ الصالح الكلمَ الطيِّبَ رفعُ قَدْرِه، وجَعْلُه بحيث يترتَّبُ عليه من الثواب ما لم يترتَّب عليه إذا كان بلا عمل. وحديث: «لا يقبلُ الله قولاً إلَّا بعمل، ولا يقبلُ قولاً وعملاً إلَّا بنيَّة، ولا يقبلُ قولاً وعملاً ونيَّةً إلَّا بإصابة السُّنَّة»[1] المذكورُ في «الكشاف» لا أظنُّ صحَّته. وقيل: إنَّه لو سُلِّم صحَّتُه، فالمراد نفيُ القَبولِ التامِّ.

ويجوز أن يكون المراد برفعه إيَّاه تحقيقَه وتقويته، وذلك باعتبار أنَّ الكلم[2] الطيب هو الإيمان، فإنَّه لا شكَّ أنَّ العملَ الصالحَ يُثَبِّتُ الإيمانَ ويحقِّقُه بإظهار آثاره، إذ به يعلم التصديقُ القلبيُّ.

وقيل: الفاعل ضميرٌ يعودُ على «الكلم الطيب»، وضمير النصب يعودُ على «العمل الصالح» أي: يرفع الكلمُ الطيِّب العملَ الصالحَ. ونسبَ أبو حيَّان[3] هذا القولَ إلى أبي صالح وشهر بن حوشب، وأُيِّدَ بقراءة عيسى وابن أبي عبلة: «والعملَ الصالحَ» بالنصب على الاشتغال[4]، وفيه بحثٌ لعدم تعيُّن ضمير «الكلم» للفاعليَّة عليها.

ومعنى رفع الكلمِ الطيِّب العملَ الصالحَ؛ قيل: أن يزيده بهجةً وحسناً.

ومن فسَّرَ الكلمَ الطيِّب بالتوحيد قال: معنى ذلك جعلُه مقبولاً، فإنَّ العملَ لا يقبل إلَّا بالتوحيد.

---

(١) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٦٩٢) من حديث أنس، وفيه أبان بن أبي عياش، وهو متروك. وانظر تتمة الكلام عنه في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٨.

(٢) في (م): الكلام.

(٣) في البحر ٧/ ٣٠٤.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٤.

وقيل: الفاعلُ ضميرُه تعالى، وضمير النصب يعودُ على العمل، وأخرج ذلك ابنُ المبارك عن قتادة، أي: والعملُ الصالح يرفعُه الله تعالى ويقبله(١).

قال ابن عطية: هذا أرجحُ الأقوال عندي(٢).

وقيل: ضميرُ الفاعل يعود على العمل، وكذا الضمير المنصوب، والكلام على حذف مضاف، أي: والعمل الصالح يرفعُ عاملَه ويشرِّفه، ونَسَبَ ذلك أبو حيَّان إلى ابن عباس، ثم قال: ويجوزُ عندي أنْ يكون «العمل» معطوفاً على «الكلم»، و«يرفعه» استئنافُ إخبار، أي: يرفعهما الله تعالى، ووحَّدَ الضميرَ لاشتراكهما في الصعود، والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة، فيكون لفظه مفرداً والمراد به التثنية، فكأنَّه قيل: ليس صعودهما من ذاتهما، بل ذلك برفع الله تعالى إيَّاهما(٣). اهـ.

وهو خلاف الظاهر جدًّا، ومثلُه ما نسبَ(٤) إلى ابن عباس، وأنا لا أظنُّ صحَّة نسبته إليه، وعلى التسليم يحتملُ أنَّه ﵁ أرادَ بقوله: العملُ الصالحُ يرفعُ عاملَه ويشرِّفه = بيانَ ما تشير إليه الآيةُ في الجملة.

والذي يتبادرُ إلى ذهني من الآية ما روي عن قتادة، واختاره ابنُ عطية. وتخصيصُ العمل الصالح برفع الله تعالى إيَّاه على ذلك؛ قيل: لما فيه من الكُلْفة والمشقَّة؛ إذ هو الجهادُ الأكبر.

وظاهرُ هذا أنَّ العمل أشرفُ من الكلام، ولا كلام في ذلك إذا أريد بالعمل الصالح ما يشتملُ العملُ القلبيَّ كالتصديق، ولعلَّ الكلام عليه نظير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وكلامُ الإمام صريحٌ في أنَّ «الكلم الطيب» المفسَّر بالذكر أشرفُ من العمل،

(١) الزهد لابن المبارك (٩١).
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤.
(٤) في (م): نسبه.

حيث جَعَل صعودَ الكلم بنفسه دليلَ ترجيحه على العمل الذي يرفعُه غيره، وقال في وجه ذلك: الكلامُ شريف؛ فإنَّ امتياز الإنسان عن كلِّ حيوانٍ بالنطق، والعملُ حركةٌ وسكون، يشتركُ فيه الإنسان وغيره، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يُمْنَع، ومَن دونَه لا يجدُ الطريقَ إلَّا عند الطلب، ويدلُّ على هذا أنَّ الكافرَ إذا تكلَّم بكلمة الشهادة أمنَ من عذاب الدارين إن كان ذلك عن صدق، وأمنَ في نفسه ودمه وحرمه في الدنيا إن كان ظاهراً، ولا كذلك العملُ بالجوارح، وأيضاً إنَّ القلبَ هو الأصلُ، وما فيه لا يظهر إلَّا باللسان، وما في اللسان لا يبين صدقه إلَّا بالفعل، فالقولُ أقربُ إلى القلب من الفعل، فيكون أشرفَ منه(١). اهـ. وفي القلب منه شيءٌ، فتدبر.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: المكرات السيئات، أو أصناف المكرات السيئات، على أنَّ «السيئات» صفةٌ لمحذوف، وليس مفعولاً به لـ «يمكرون»؛ لأنَّ «مَكَرَ» لازمٌ، وجُوِّزَ أنْ يكونَ مفعولاً على تضمين يقصدون أو يكسبون، وعلى الأوَّل فيه مبالغةٌ للوعيد الشديد على قصد المكر، أو هو إشارةٌ إلى عدم تأثير مكرهم.

والموصول مبتدأ، وجملة قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبره، أي: لهم بسبب مكرهم عذابٌ شديد لا يقادَر قدره، ولا يُعبأ بالنسبة إليه بما يمكرون.

والآية ـ على ما روي عن أبي العالية ـ في الذين مَكَروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] والمضارعُ لحكاية الحال الماضية.

ووَضعُ اسم الإشارة موضعَ ضميرهم في قوله سبحانه: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ للإيذان بكمال تميُّزهم بما هم عليه من الشرِّ والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان، وبُعد منزلتهم في العدوان، أي: ومكرُ أولئك المفسدين المشهورين ﴿هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ أي: يَفْسُدُ، وأصلُ البوار: فرطُ الكساد أو الهلاك، فاستعير هنا للفساد وعدم التأثير؛ لأنَّ فرط الكساد يؤدِّي إلى الفساد، كما قيل: كسد حتى فسد، أو لأنَّ الكاسد يكسدُ في الغالب لفساده، ولأنَّ الهالك فاسدٌ لا أثر له.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/٨-٩.

و «مكر» مبتدأ، خبره جملة «هو يبور»، وتقديمُ الضمير للتقوِّي أو الاختصاص، أي: مكرهم هو يَفسدُ خاصَّةً لا مكرنا بهم.

وأجاز الحوفيُّ وأبو البقاء(١) كون الخبر جملة «يبور»، و«هو» ضمير فصل.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّ ضميرَ الفصل لا يكون ما بعده فعلاً، ولم يذهب إلى ذلك أحدٌ فيما علمنا إلَّا عبد القاهر الجرجانيّ في «شرح الإيضاح» له، فإنَّه أجازَ في: كان زيد هو يقوم، أن يكون «هو» فصلاً، ورُدَّ ذلك عليه(٢).

وجوَّز أبو البقاء أيضاً كون «هو» تأكيداً للمبتدأ(٣). والظاهر ما قدمناه.

وقد أبار الله تعالى أولئك الماكرين بعد إبارة مكرهم، حيث أخرجهم من مكَّة وقتلَهم وأثبتَهم في قَليب بدر، فجمعَ عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقِّه عليه الصلاة والسلام بواحدةٍ منهنَّ، وحقَّق عزَّ وجلَّ فيهم قوله سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

ووجه ارتباط الآية بما قبلَها ـ على ما ذكره شيخ الإسلام ـ أنَّها بيانٌ لحال الكلم الخبيث والعمل السَّيِّئ وأهلهما، بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح(٤).

وقال في «الكشف»: كأنَّه لمَّا حصرَ سبحانه العزَّة وخصَّها به تعالى يعطيها من يشاء، وأرشد إلى نيل ما به يُنال ذلك المطلوب، ذكر على سبيل الاستطراد حالَ من أراد العزَّة من عند غيره عزَّ وجلَّ وأخذ في إهانة مَن أعزَّه الله تعالى فوق السماكين قَدْراً، وما رَجع إليهم من وبال ذلك كالاستشهاد لتلك الدعوى. وهو خلاصةُ ما ذكره الطيبيُّ في وجه الانتظام.

---

(١) في الإملاء ٤/٢١٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤.
(٣) الإملاء ٤/٢١٨.
(٤) تفسير أبي السعود ٧/ ١٤٦.

وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب أنَّ الآيةَ في أصحاب الرياء، وهي متَّصلةٌ بما عندها على ما روي عن شهر، حيث قال: «والذين يمكرون السيئات» أي: يراؤون «ومكر أولئك هو يبور» هم أصحاب الرياء، عملُهم لا يصعد.

وقال الطيبيُّ: إنَّ الجملة على هذه الرواية عطفٌ على جملة الشرط والجزاء، أعني قوله تعالى: «من كان يريد العزة» إلخ فيجب حينئذٍ مراعاةُ التطابق بين القرينتين والتقابل بين الفقرتين بحسب الإمكان، بأن يُقدَّرَ في كلٍّ منهما ما يحصلُ به التقابلُ بدلالة المذكور في الأولى على المتروك في الأخرى، وبالعكس. اهـ.

ولا يخفى بُعْدُه. وأيًّاما كان فالمضارعُ للاستمرار التجدديِّ.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ دليلٌ آخر على صحَّة البعث والنشور، أي: خلقكم ابتداءً منه في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمَّ خلقَكم منها خلقاً تفصيلياً ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ذكراناً وإناثاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٥٠] وأخرجَه ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ، وأخرج هو وغيره عن قتادة أنه قال: قدَّر بينكم الزوجيَّة، وزوَّج بعضَكم بعضاً(١).

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حالٌ من الفاعل، و«من» زائدة، أي: إلَّا ملتبسةً بعلمه تعالى، ومعلومية الفاعل راجعةٌ إلى معلوميَّة أحواله مفصَّلةً، ومنها حالُ ما حملته الأنثى ووضعته، فجعلُه من ذلك أبلغُ معنًى وأحسنُ لفظاً مِنْ جعله من المفعول، أعني المحمول والموضوع؛ لأنَّ المفعولَ محذوفٌ متروك، كما صرَّح به الزمخشريُّ في «حم السجدة»(٢)، وجعلُه حالاً من الحمل والوضع أنفسهما خلافُ الظاهر.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٤٢.

(٢) ينظر كلامه عند تفسير الآية (٤٧) من سورة فصلت.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: من أحدٍ، أي: وما يمدُّ في عُمر أحدٍ، وسمِّيَ معمَّراً باعتبار الأوْل، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦]، و: «مَن قَتَلَ قتيلاً»[١]، على ما ذكر غيرُ واحدٍ، وهذا لئلَّا يلزمَ تحصيلُ الحاصل. وجُوِّزَ أن يقال: لأنَّ «يُعمَّر» مضارعٌ، فيقتضي أنْ لا يكون معمَّراً بعدُ، ولا ضرورةَ للحمل على الماضي.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائدٌ على مُعَمَّرٍ آخر، نظير ما قال ابنُ مالك في: عندي درهمٌ ونصفه، أي: نصفُ درهم آخر، ولا يضُرُّ في ذلك احتمالُ أنْ يكونَ المراد: مثل نصفه، لأنَّه مثال، وهو استخدامٌ أو شبيهٌ به، وإلى ذلك ذهب الفرَّاء[٢] وبعض النحويين، ولعله الأظهر، وفسَّروا المعمَّر بالمُزادِ عمرُه، بدليل ما يقابله من قوله تعالى: «ولا يُنْقَص» إلخ، وهو الذي دعاهم إلى إرجاع الضمير إلى نظير المذكور دون عينه؛ ضرورةَ أنَّه لا يكُونُ المزيدُ في عمره منقوصاً من عمره.

وقيل عليه: هب أنَّ مرجعَ الضمير معمَّرٌ آخر، أليس قد نسب النقصَ في العمر إلى معمَّر، وقد قلتم إنَّه المزادُ عمره.

أجيبَ بأنَّ الأصلَ: وما يعمَّر من أحدٍ، فسمِّيَ معمَّراً باعتبار ما يَؤول إليه، وعاد الضمير باعتبار الأصل المحوَّل عنه، فمآل ذلك: ولا ينقص من عمر أحدٍ، أي: ولا يُجعلُ من ابتداء الأمر ناقصاً، فهو نظير قولهم: ضيّق فمَ الرَّكيَّة[٣].

وقال آخرون: الضميرُ عائدٌ على المعمَّر الأول بعينه، والمعمَّر هو الذي جَعل الله تعالى له عمراً طال أو قصر، ولا مانع أن يكون المعمَّر ومن ينقصُ من عمره شخصاً واحداً، والمراد بنقص عمره ما يمرُّ منه وينقضي، مثلاً يكتب عمره مئة سنة، ثمَّ يكتب تحتَه: مضى يومٌ، مضى يومان، وهكذا حتى يأتي إلى آخره،

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٦٠٧)، والبخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) عن أبي قتادة ﷺ. ويذكر شاهداً على تنزيل المُقْبِلِ على الأمر المشارِفِ له منزلةَ الشارع فيه.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٣٦٨.

(٣) الركية: بئر تحفر. تهذيب اللغة ١٠/ ٣٥٠.

وروي هذا عن ابن عباس وابن جبير وأبي مالك وحسان بن عطية والسُّدّيِّ، وقيل بمعناه:

حياتُك أنفاسٌ تُعَدُّ فكلَّما مضى نَفَسٌ منها انتقصت به جزءا[1]

وقيل: الزيادةُ والنقص في عمرٍ واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح، كما ورد في الخبر: «الصدقةُ تزيدُ في العمر»[2]، فيجوزُ أنْ يكونَ أحدٌ معمَّراً، أي: مزاداً في عمره إذا عمل عملاً، وينقص من عمره إذا لم يعمله، وهذا لا يلزم منه تغيير التقدير؛ لأنَّه في تقديره تعالى معلَّق أيضاً، وإن كان ما في علمه تعالى الأزليِّ وقضائه المبرم لا يعتريه محوٌ على ما عُرِفَ عن السلف، ولذا جاز الدعاءُ بطول العمر.

وقال كعب: لو أنَّ عمر ﷺ دعا الله تعالى، أخّر أجله.

ويعلم من هذا أنَّ قولَ ابن عطية: هذا قولٌ ضعيفٌ مردودٌ يقتضي القولَ بالأجلين، كما ذهبت إليه المعتزلة[3] = ليس بشيء.

ومن العجيب قولُ ابن كمال: النظرُ الدقيق يحكمُ بصحَّة أن المعمَّر ـ أي: الذي قُدِّرَ له عمرٌ طويلٌ ـ يجوز أنْ يبلغَ ذلك العمر، وأن لا يبلغَ، فيزيد عمره على الأول، وينقص على الثاني، ومع ذلك لا يلزم التغيير في التقدير؛ لأنَّ المقدَّر في كلِّ شخصٍ هو الأنفاس المعدودة لا الأيام المحدودة والأعوام الممدودة، ثم قال: فافهم هذا السرَّ العجيب، وكتب في الهامش: حتى ينكشفَ لك سرُّ اختيار حبس النفس، ويتَّضح وجهُ صحة قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ

---

(١) البيت في الديوان المنسوب لعليٍّ ﷺ ص ١١، ونسبه ابن عبد البر في بهجة المجالس ٣/ ٣٣٩ لمحمود الوراق، وكذا ذُكرَ في ديوانه ص ٢٤٠ في الأبيات المنسوبة له.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧/ (٣١) من حديث عمرو بن عوف ﷺ، وفيه كثير بن عبد الله المزني، وهو ضعيف. وجاء في معنى هذا الحديث ما أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ﷺ: «مَن سرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثره، فليصل رحمه». وينظر تفسير القرطبي ٧/ ٣٦١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٢.

الصدقةَ والصلةَ تعمران الديار، وتزيدان في الأعمار»[١]. اهـ. وتعقَّبه الشهابُ الخفاجيُّ[٢] بأنَّه مما لا يعوّل عليه عاقلٌ، ولم يقل به أحدٌ غيرُ بعض جهلة الهنود، مع أنَّه مخالفٌ لما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم والنسائيُّ وابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود من قول النبيِّ ﷺ لأمِّ حبيبة، وقد قالت: اللهم أمتعني بزوجي النبيِّ ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية: «سألتِ الله تعالى لآجالٍ مضروبة، وأيَّامٍ معدودة» الحديث[٣]، وأطال الچلبيُّ في ردِّه، وهو غنيٌّ عنه. اهـ.

وقال بعضهم: يجوزُ أنْ لا يبلغ من قُدِّرَ له عمرٌ طويل ما قُدِّرَ له، بأن يغيَّر ما قُدِّرَ أوَّلاً بتقديرٍ آخر، ولا حَجْر على الله تعالى. ويشيرُ إلى ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام في حديث التراويح: «خشيت أنْ تُفرضَ عليكم»[٤]، وقوله ﷺ في دعاء القنوت: «وقني شرَّ ما قضيت»[٥]، وخوفُه ـ عليه من الله تعالى آلافُ آلافِ صلاةٍ وسلام ـ من قيام الساعة إذا اشتدَّت الريح[٦]، مع إخباره بأنَّ بين يديها خروجَ

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢٥٢٥٩) من طريق القاسم عن عائشة ﵂، أن النبي ﷺ قال: «صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار».

(٢) في حاشيته ٧/ ٢٢٠.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٦٣)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٠٢٢) و(١٠٠٢٣)، ومصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٣-٣٧٤.

(٤) سلف عند تفسير الآية (١٥) من سورة الأنعام.

(٥) قطعة من حديث الحسن بن علي ﵄ مرفوعاً، أخرجه أحمد (١٧١٨)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي ٣/ ٢٤٨، وابن ماجه (١١٨٧).

(٦) لم أقف على ذكر لخوف النبي ﷺ من قيام الساعة عند هبوب الريح.

وأخرج البخاري في صحيحه (١٠٣٤) من حديث أنس يقول: كانت الريح الشديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي ﷺ.

وأخرج مسلم في صحيحه (٨٩٩): (١٤) عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم، عرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرَّ به، وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته. فقال: «إني خشيت أن يكون عذاباً سلط على أمتي». ويقول إذا رأى المطر: «رحمة».

المهديِّ والدجَّال والدابَّة، وطلوعَ الشمس من مغربها، إلى غير ذلك ممَّا لم يَحدُث بَعْدُ، وغايةُ ما يلزم من ذلك تغيُّر المعلوم، ولا يلزمُ منه تغيُّر العلم، على ما بُيِّن في موضعه، وعلى هذا لا إشكال في خبر: «الصدقة تزيدُ في العمر»[1]، ويتَّضحُ أمرُ فائدة الدعاء، وما يحكى عن بعضهم من نفي القضاء المبرَم يرجعُ إليه.

وقد رأيتُ كُرَّاسةً لبعض الأفاضل أطال الكلام فيها لتشييد هذا القول وتثبيت أركانه، والحقُّ عندي أنَّ ما في العلم الأزليِّ المتعلِّقِ بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر لا يتغيَّر، ويجب أن يقعَ كما علم، وإلَّا يلزم الانقلاب، وما يتبادرُ منه خلافُ ذلك ـ إذا صحَّ ـ مؤولٌ، وخبرُ: «الصدقةُ تزيدُ في العمر»[2] قيل: إنَّه خبرُ آحاد، فلا يعارضُ القطعيَّات.

وقيل: المراد أنَّ الصدقةَ وكذا غيرها من الطاعات، تزيدُ فيما هو المقصودُ الأهمُّ من العمر، وهو اكتساب الخير والكمال والبركة التي بها تُستَكْمَلُ النفوسُ الإنسانيَّة، فتفوز بالسعادة الأبديَّة، والدعاءُ حُكْمُه حُكْمُ سائر الأسباب من الأكل والشرب والتحفُّظ من شدَّة الحرِّ والبرد مثلاً، ففائدته كفائدتها.

وقيل: هو لمجرَّد إظهار الاحتياج والعبوديَّة، فليتدبر.

وقيل: الضمير للعمر، والنقص لغيره، أي: ولا ينقصُ من عمر المعمَّر لغيره، بأن يُعطَى له عمرُ ناقصٍ من عمره.

وقيل: الضميرُ للمنقوص من عمره، وهو ـ وإن لم يصرَّح به ـ في حُكم المذكور كما قيل:

وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياء[3]

فيكون عائداً على ما عُلِم من السياق، أي: ولا يُنقص من عمر المنقوص من عمره بجعله ناقصاً.

---

(١) سلف قريباً.

(٢) سلف قريباً.

(٣) عجز بيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ١٤٩، وسلف ٧/ ٣٧١.

وقرأ الحسن وابن سيرين وعيسى: «ولا يَنْقُص» بالبناء للفاعل[(١)]، وفاعله ضميرُ المعمَّر، أو: «عمره»، و«من» زائدة في الفاعل، وإن كان متعدياً جازَ كونُه ضمير الله تعالى.

وقرأ الأعرجُ: «من عُمْرِه» بسكون الميم[(٢)].

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ عن ابن عباس: هو اللوح المحفوظ. وجُوِّزَ أنْ يرادَ به صحيفةُ الإنسان، فقد أخرجَ ابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخلُ الملكُ على النطفةِ بعدما تستقرُّ في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلةً، فيقول: يا ربّ، أشقيٌّ أم سعيد؟ أذكرٌ أم أنثى؟ فيقول الله تعالى، ويكتب، ثم يكتب عملَه ورزقَه وأجلَه وأثرَه ومصيبَته، ثم تُطْوى الصحيفةُ، فلا يزاد فيها ولا ينقص منها[(٣)].

وجُوِّزَ أيضاً أنْ يُراد به علمُ الله عزَّ وجلَّ. وذكر في ربط الآيات أنَّ قولَه تعالى: «والله خلقكم من تراب» إلخ مُسَاقٌ للدلالة على القدرة الكاملة، وقوله سبحانه: «ما تحمل من أنثى» إلخ للعلم الشامل، وقوله عز وجل: «وما يعمَّر من معمَّر» إلخ لإثبات القضاء والقدر، والمعنى: «وما يعمَّر» منكم، خطاباً لأفراد النوع الإنساني، وأيِّد بذلك الوجهُ الأول من أوجه: «وما يعمر» إلخ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الخَلْق وما بعده، مع كونه محاراً للعقول والأفهام ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ لاستغنائه تعالى عن الأسباب، فكذلك البعث والنشور.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٣ عن الحسن وابن سيرين ويعقوب، ونسبها في البحر المحيط ٧/ ٣٠٤ ليعقوب وسلام، وعبد الوارث وهارون كلاهما عن أبي عمرو.
وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٢ من رواية روح، وبخلف عن رويس.

(٢) أوردها القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٦٢ وزاد نسبتها للزهري. وهي في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن أبي عمرو، وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٤٧، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٦٤٤)، وأحمد (١٦١٤٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ﴾ طيِّبٌ ﴿فُرَاتٌ﴾ كاسر العطش ومزيله. وقال الراغب: الفراتُ: الماء العذب، يقال للواحد والجمع[١]. ولعلَّ الوصف على هذا على طرز: أسودُ حَالِكٌ، وأصفرُ فاقِعٌ.

﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ سهلٌ انحداره لخلوِّه ممَّا تعافه النفس.

وقرأ عيسى: «سيِّغ» كميِّت بالتشديد، وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم[٢].
وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغ» كَمَيْت بالتخفيف[٣].

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ﴾ متغيِّرٌ طعمُه التغيُّر المعروف.

وقرأ أبو نهيك وطلحة: «مَلِح» بفتح الميم وكسر اللام[٤]. قال أبو الفضل[٥] الرازي: وهي لغةٌ شاذَّةٌ. وجُوِّزَ أن يكون مقصوراً من مالح للتخفيف، وهو مبنيٌّ على ورود مالح، والحقُّ ورودُه بقلَّةٍ، وليس بلغةٍ رديئةٍ كما قيل.

وفرَّقَ الإمام بين الملح والمالح بأنَّ الملحَ الماءُ الذي فيه الطعم المعروف من أصل الخلقة، كماء البحر، والمالحُ الماء الذي وُضِع فيه ملحٌ فتغيَّر طعمُه، ولا يقال فيه إلَّا مالح[٦]. ولم أره لغيره.

وقال بعضهم: لم يَرِدْ مالح أصلاً، وهو قولٌ ليس بالمليح.

﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة والحرارة، من قولهم: أجيجُ النار وأَجَّتُها، ومن هنا قيل: هو الذي يحرقُ بملوحته، وهذا مثلٌ ضُرِبَ للمؤمن والكافر.

---

(١) المفردات (فرت).
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، والقراءة عن عيسى في القراءات الشاذة ص ١٢٣، وقراءة أبي عمرو وعاصم المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.
(٣) المحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٥.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، وهي في المحتسب ٢/ ١٩٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٦٢ عن طلحة فقط.
(٥) في الأصل و(م): أبو الفتح، وهو خطأ، والتصويب من البحر ٧/ ٣٠٥، والكلام منه.
(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١١.

وقوله تعالى[١]: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: من كلٍّ واحدٍ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: غضّاً جديداً، وهو السمكُ، على ما رُويَ عن السُّدِّيِّ. وقيل: الطير والسمك. واختار كثيرٌ الأول.

والتعبيرُ عن السمك باللحم مع كونه حيواناً، قيل: للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل، ووصفُه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيهِ على المسارعة إلى أكله لئلا يتسارعَ إليه الفسادُ، كما ينبئ عنه جَعْلُ كلٍّ من البحرين مبدأَ أكلِه.

واستدلَّ مالكٌ والثوريُّ بالآية ـ حيث سَمَّى فيها السمكَ لحماً ـ على حِنْثِ من حَلَفَ: لا يأكلُ لحماً، فأكلَ سمكاً.

وقال غيرهما: لا يحنث؛ لأنَّ مبنى الأيمان على العرف، وهو فيه لا يسمَّى لحماً، ولذلك لا يحنَثُ من حلف لا يركبُ دابَّة فركب كافراً، مع أنَّ الله تعالى سمَّاه دابَّةً في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٥٥].

ولا يبعدُ عندي أنْ يُراد بـ «لحماً» لحم السمك، ودعوى التلويح بانحصار الانتفاع بالسمك في الأكل لا أظنُّها تامَّةً.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ ظاهره: ومن كلٍّ تستخرجون ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والحليةُ التي تُستخرَجُ من البحر الملحِ اللؤلؤُ والمرجان، ويلبس ذلك الرجالُ والنساء، وإن اختلفت كيفيَّة اللبس، أو يقال: عبَّر عن لبس نسائهم بلبسِهم؛ لكونهنَّ منهم، أو لكون لبسهنَّ لأجلهم.

ولا نعلم حليةً تستخرجُ من البحر العذب، ولا يظهر هنا اعتبارُ إسناد ما للبعض إلى الكلِّ، كما اعتُبرَ ذلك في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وكون بعض الصخور التي في مجاري السيول قد تكسَّر فيوجد فيها ماس وهو حِلْيةٌ تلبسُ ـ إنْ صحَّ ـ لا ينفعُ اعتبارُه هنا، إذ ليس فيه استخراجُ الحِلْية من البحر العذب ظاهراً.

---

(١) جاء فوقها في الأصل: مبتدأ. اهـ. وسيأتي بيان خبره في الصفحة التالية.

وقيل: لا يَبعُدُ أنْ تكون الحلية المستخرجةُ من ذلك عظامَ السمك التي يصنعُ منها قبضاتٌ للسيوف والخناجر مثلاً، فتحملُ ويتحلَّى بها.

وفيه ما فيه، لا سيَّما إذا كانت الحلية كالحليّ: ما يتزيَّن به من مصنوع المعدنيات أو الحجارة.

وقال الخفاجيُّ: لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة، وإن لم نَرَهُ[1]. ولا يخفى ما فيه من البعد.

وذهب بعض الأجلَّة للخلاص من القيل والقال أنَّ المرادَ: وتستخرجونَ من البحرِ الملح خاصَّةً حليةً تلبسونها. ويشعرُ به كلامُ السُّدِّيِّ.

يحتملُ[2] ثلاثة أوجه:

الأوَّلُ: أنَّه استطرادٌ في صفة البحرين، وما فيهما من النعم والمنافع.

والثاني: أنَّه تتميمٌ وتكميلٌ للتمثيل؛ لتفضيل المشبَّه به على المشبَّه، وليس من ترشيح الاستعارة ـ كما زعم الطيبيُّ ـ في شيء، بل إنَّما هو استدراكٌ لدعوى الاشتراك بين المشبَّه والمشبَّه به، يلزمُ منه أنْ يكونَ المشبَّهُ أقوى، وهذا الاستدراكُ مخصوصٌ بالملح، وإيضاحُه أنَّه شبَّه المؤمنَ والكافر بالبحرين، ثمَّ فضَّل الأُجَاج على الكافر بأنَّه قد شارك الفرات في منافع، والكافر خِلْوٌ من النفع، فهو على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والثالث: أنَّه من تتمَّة التمثيل، على معنى أنَّ البحرين وإن اشتركا في بعض الفوائد تفاوتا فيما هو المقصودُ بالذات؛ لأنَّ أحدَهما خالطَه ما لم يبقِه على صفاء فطرته، كذلك المؤمنُ والكافر، وإن اتَّفق اتِّفاقهما في بعض المكارم، كالشجاعة

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢١.

(٢) فوقها في الأصل: خبر قوله تعالى. اهـ منه.

والسخاوة، متفاوتان فيما هو الأصلُ؛ لبقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر، فجملة «ومن كلٍّ» إلخ حالية.

وعندي خيرُ الأوجهُ الثلاثة أوسطُها، وعلى كلٍّ يحصلُ الجواب عمَّا قيل: كيف يناسب ذكرُ منافع البحر الملحِ، وقد شبَّه به الكافر؟

وقال أبو حيان: إنَّ قوله تعالى: «وما يستوي البحران» إلخ لبيان ما يستدلُّ به كلُّ عاقلٍ على أنَّه ممَّا لا مدخل لصنمٍ فيه[١].

وقال الإمام: الأظهرُ أنه دليل لكمال قدرة الله عزَّ وجلَّ[٢].

وما ذكرنا أوَّلاً من أنَّه تمثيلٌ للمؤمن والكافر هو المشهور روايةً ودرايةً، وفيه من محاسن البلاغة ما فيه.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السفن ﴿فِيهِ﴾ أي: في كلٍّ منهما، وانظر هل يحسنُ رجوعُ الضمير للبحر الملح، لانسياق الذهن إليه من قوله سبحانه: «وتستخرجون حليةً تلبسونها» بناءً على أنَّ المعروفَ استخراجُها منه خاصَّة؟ وأمرُ الفُلك فيه أعظم من أمرها في البحر العذب، ولذا اقتصر على رؤية الفلك فيه على الحالة التي ذكرها[٣] الله تعالى.

وأفردَ ضميرَ الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق؛ لأنَّ الخطاب لكلِّ أحدٍ تتأتَّى منه الرؤية، دون المنتفعين بالبحرين فقط.

﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقَّ للماء، يجريها مقبلةً ومدبرةً بريحٍ واحدة، فالمخرُ: الشقُّ.

قال الراغب: يقال: مَخَرَتِ السفينةُ مَخْراً ومُخُوراً: إذا شقَّت الماء بجؤجُئِها[٤].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤. والعبارة فيه: يُستَدلُّ بها على كل عاقل أنه ممَّا...

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٠.

(٣) في (م): الحال التي ذكر.

(٤) المفردات (مخر)، وجؤجؤ الطائر والسفينة: صدرهما. مختار الصحاح (جأجأ).

وفي «الكشاف»(١): يقال: مخرتِ السفينةُ الماء، ويقال للسحاب: بناتُ مَخْر؛ لأنَّها تمخرُ الهواء، والسُّفْنُ الذي اشتُقَّت منه السفينة قريبٌ من المخر؛ لأنَّها تسفِنُ الماء كأنها تقشره كما تمخره.

وقيل: المخر: صوتُ جري الفُلْك.

وجاء في سورة النحل: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [الآية: ١٤] بتقديم «مواخر» وتأخير «فيه» وعَكَسَ هاهنا، فقيل في وجهه: لأنَّه علَّق «فيه» هنا بـ «ترى»، وثمت بـ «مواخر». ولا يحسم مادة السؤال.

والذي يظهر لي في ذلك أنَّ آية «النحل» سيقت لتعداد النعم، كما يؤذنُ بذاك سوابقُها ولواحقُها، وتعقيبُ الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فكان الأهمُّ هناك تقديمَ ما هو نعمةٌ، وهو مخرُ الفلك للماء، بخلاف ما هنا، فإنَّه إنما سيق استطراداً أو تتمَّةً للتمثيل كما علمت آنفاً، فقدم فيه «فيه» إيذاناً بأنَّه ليس المقصود بالذات ذلك، وكأنَّ الاهتمامَ بما هناك اقتضَى أنْ يقال في تلك الآية: (وَلِتَبْتَغُواْ) بالواو، ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت تركَ الواو في قوله سبحانه: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: من فضل الله تعالى بالنقلة فيها. وهو سبحانه وإنْ لم يَجْرِ له ذكرٌ في الآية، فقد جرى له تعالى ذكرٌ فيما قبلها، ولو لم يَجْرِ لم يُشْكِلْ؛ لدلالة المعنى عليه عزَّ شأنُه.

واللام متعلِّقة بـ «مواخر»، وجُوِّزَ تعلُّقها بمحذوفٍ دلَّ عليه الأفعال المذكورة، كـ: سخَّر البحرين، وهيَّأهما، أو: فعل ذلك «لتبتغوا من فضله».

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ تعرفونَ حقوقَه تعالى، فتقومونَ بطاعته عزَّ وجلَّ وتوحيده سبحانه.

و«لعلَّ» للتعليل على ما عليه جمعٌ من الأجلَّة، وقد قدَّمنا ذلك.

وقال كثير: هي للترجِّي، ولمَّا كان محالاً عليه تعالى كان المرادُ اقتضاءَ ما ذُكر من النعم للشكر، حتَّى كأنَّ كلَّ أحدٍ يترجَّاه من المنعِم عليه بها، فهو تمثيلٌ يؤول إلى أمره تعالى بالشكر للمخاطَبين.

---

(١) ٣/ ٣٠٤.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بزيادةِ أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كلٍّ منهما إلى الآخر.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ عطفٌ على «يولج» واختلافُهما صيغةً؛ لما أنَّ إيلاجَ أحد المَلَوين في الآخر متجدِّدٌ حيناً فحيناً، وأما تسخيرُ النيِّرَين فأمرٌ لا تعدُّد فيه، وإنَّما المتعدِّدُ والمتجدِّدُ آثارُه، وقد أشير إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِي﴾ أي: بحسب حركته على المدارات اليوميَّة المتعدِّدة حسبَ تعدُّدِ أيَّام السنة، أو بحسب حركتيه ـ الخاصة وهي من المغرب إلى المشرق، والقسريَّة التي هي من المشرق إلى المغرب ـ جرياناً مستمرّاً.

﴿لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ قدَّره الله تعالى لجريانهما، وهو يومُ القيامة، كما روي عن الحسن.

وقيل: جريانُهما عبارةٌ عن حركتيهما الخاصَّتين بهما، والأجلُ المسمَّى عبارةٌ عن مجموع مدَّةِ دورتيهما، أو منتهاها، وهي للشمس سنة، وللقمر شهر، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك مفصَّلاً.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة.

وهو مبتدأ، وما بعدَه أخبارٌ مترادِفةٌ، أي: ذلكم العظيم الشأنِ الذي أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ وفيه من الدلالة على أنَّ إبداعَه تعالى لتلك البدائع ممَّا يوجِبُ ثبوتَ تلك الأخبار له تعالى.

وفي «الكشاف»(١): ويجوزُ في حكم الإعراب إيقاعُ اسم الله تعالى صفةً لاسم الإشارة، أو عطف بيان، و«ربكم» خبراً، لولا أنَّ المعنى يأباه. اهـ.

قال في «الكشف»: فيه نظر؛ لأنَّ الاسمَ الجليل جارٍ مجرى العَلَم، فلا يجوز أنْ يقعَ وصفاً لاسم الإشارة ألبتَّة، لا لفظاً ولا معنى، وكأنَّه فُرِض على تقدير عدم

---

(١) ٣/ ٣٠٤.

الغلبة، وأمَّا إباءُ المعنى على تقدير تجويز الوصف، فقد قيل: إنَّ المقصودَ أنَّه تعالى المنفردُ بالإلهية، لا أنَّ المنفرد بالإلهية هو ربُّكم؛ لأنَّ المشركين ما كانوا معترفين بالمنفرد على الإطلاق، وأمَّا عطفُ البيان، فقيل: لأنَّه يوهمُ تخييل الشركة، ألا ترى أنَّك إذا قُلت: ذلك الرجل سيِّدُك عندي، ففيه نوع شركة؛ لأن «ذا» اسم مبهم، وكأنَّه أرادَ أنَّ البيانَ حيث يذهبُ الوهم إلى غيره ويحتملُ الشركة مناسبٌ لا في مثل هذا المقام. وأفاد الطيبيُّ أنَّ «ذلك» يشارُ به إلى ما سبق؛ للدلالة على جدارة ما بعدَه بسبب الأوصاف السابقة، ولو كان وصفاً أو بياناً لكان المشارُ إليه ما بعده. وهذا في الأول حسنٌ دونَ الثاني، اللهم إلَّا أنْ يكون قولُه: أو عطف بيان، إشارةً إلى المذهب الذي يجعلُ الجنس الجاري على المبهم غير وصف، فيكون حكمُه حكمَ الوصف إذ ذاك، وبعدَ أن تبيَّنَ أنَّ المقام للإشارة إلى السابق، فاسمُ الإشارة قد يُجَاء به لأغراضٍ أخر. اهـ.

وأبو حيَّان منعَ صحَّة الوصفيَّة للعلمية، ثم قال: لا يظهرُ إباءُ المعنى ذلك[1].

ويجوز أنْ يكون قولُه تعالى: «له الملك» جملةً مبتدأةً واقعةً في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣﴾ ويكون ذلك مقرِّراً لما قبله من التفرُّد بالإلهية والربوبيَّة، واستدلالاً عليه، إذ حاصلُه: جميعُ الملك والتصرُّف في المبدأ والمنتهَى له تعالى، وليس لغيره سبحانه منه شيءٌ، ولذا قيل: إنَّ فيه قياساً منطقيّاً مطويّاً.

وجُوِّزَ أن يكون مقرِّراً لقوله تعالى: «والله خلقكم» إلخ، وقولِه تعالى: «يولج» إلخ، فجملة «الذين تدعون» إلخ عليه؛ إمَّا استئنافيةٌ أيضاً، وهي معطوفةٌ على جملة «له الملك»، وإمَّا حالٌ من الضميرِ المستقرِّ في الظرف، أعني: له.

وعلى الوجه الأوَّل هي معطوفةٌ على جملة «ذلكم الله» إلخ، أو حالٌ أيضاً.

والقِطْمِير على ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد: لفافةُ النواة[2]، وهي

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٣٥٠.

القشرُ الأبيضُ الرقيق الذي يكونُ بين التمر والنواة، وهو المعنى المشهور.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر[١]: أنَّه القمعُ الذي هو على رأس التمرة.

وأخرجَ عبد بن حميد عن قتادة: أنَّه القشرةُ على رأس النواة[٢]، وهو ما بين القمع والنواة.

وقال الراغب: إنَّه الأثرُ على ظهر النواة[٣].

وقيل: هو قشرُ الثوم.

وأيَّاما كان، فهو مَثَلٌ للشيء الدنيء الطفيف، قال الشاعر:

وأبـوك يـخـصـفُ نـعـلَـه مـتـورِّكـاً ... ما يـمـلـكُ الـمـسـكـين من قـطـميرِ[٤]

وقرأ عيسى وسلام ويعقوب: «يَدْعون» بالياء التحتانية[٥].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله، كاشفٌ عن جليَّة حال ما يَدعونه بأنَّه جمادٌ ليس من شأنه السماع، هذا إذا كان الكلامُ مع عَبَدَةِ الأصنام، ويحتمل أنْ يكون مع عَبَدَتها وعَبَدَة الملائكة وعيسى وغيرهم من المقرَّبين، وعدمُ السماع حينئذٍ، إمَّا لأنَّ المعبودَ ليس من شأنه ذلك، كالأصنام، وإمَّا لأنَّه في شُغل شاغل، وبُعدٍ بعيد عن عابده، كعيسى عليه السلام، ورويَ هذا عن البلخيِّ، أو لأنَّ الله عزَّ وجلَّ حفظَ سمعَه من أن يصل إليه مثلُ هذا الدعاء؛ لغاية قبحه وثقله على سمع من هو في غاية العبوديَّة لله سبحانه، فلا يردُ أنَّ الملائكةَ عليهم السلام يسمعون وهم في السماء ـ كما ورد في بعض الآثار ـ دعاءَ المؤمنين ربَّهم سبحانه.

---

(١) عن الضحاك، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٨.

(٢) وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٥٠.

(٣) المفردات (قطمر).

(٤) هو في البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، والدر المصون ٩/ ٢٢١ دون نسبة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٣ و١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٥. وقراءة يعقوب هي من طريق المعدل عن روح كما في النشر ٢/ ٣٥٢، وهي خلاف المشهور عنه.

وفي نظم ذوي النفوس القدسيَّة في سلك الملائكة عليهم السلام من حيثيَّة السماع وهم في مقارِّ نعيمِهم = توقُّفٌ عندي، بل في سماع كلٍّ من الملائكة عليهم السلام وهم في السماء، وذوي النفوس القدسيَّة وهم في مقارِّ نعيمِهم، نداءَ من ناداهم غيرَ معتقدٍ فيهم الإلهية = توقُّفٌ عندي أيضاً، إذ لم أظفر بدليلٍ سمعيٍّ على ذلك، والعقلُ يجوِّزُه، ولكن لا يُكتفَى بمجرَّد تجويزه في القول به.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنَّهم لم يُرزَقوا قوَّة التكلُّم، والسماعُ لا يستلزمُ ذلك، فالمرادُ بالاستجابة الاستجابةُ بالقول، ويجوزُ أنْ يُرَاد بها الاستجابةُ بالفعل، أي: ولو سمعوا ما نفعوكم؛ لعجزهم عن الأفعال بالمرَّة، هذا إذا كان المدعوّون الأصنام، وأمَّا إذا كانوا الملائكة عليهم السلام أو نحوهم من المقرَّبين، فعدمُ الاستجابة القوليَّة لأنَّ دعاءهم من حيث زعم أنَّهم آلهةٌ، وهم بمعزلٍ عن الإلهية، فكيف يجيبون زاعم ذلك فيهم؟ وفيه من التهمة ما فيه. وعدم الاستجابة الفعليَّة يحتملُ أنْ يكونَ لهذا أيضاً، ويحتملُ أنْ يكون لأنَّ نفعَ من دَعاهم ليس من وظائفهم. وقيل: لأنَّهم يرونَ ذلك نقصاً في العبوديَّة والخضوعِ لله عزَّ وجلَّ. ويجوز أنْ يكون هذا تعليلاً للأول أيضاً، فتأمَّل.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فضلاً عن أن يستجيبوا لكم إذا دعوتموهم، و«شرك» مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعل، أي: ويومَ القيامة يجحدونَ إشراكَكم إيَّاهم وعبادتكم إيَّاهم، وذلك بأنْ يُقدرَ اللهُ تعالى الأصنامَ على الكلام، فيقولون لهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] أو يظهرَ من حالها:

ظُهورَ نارِ القِرى ليلاً على عَلَمِ(١)

ما يدلُّ على ذلك، ولسانُ الحال أفصحُ من لسان المقال، ومِنْ هذا القبيل قول ذي الرُّمَّة:

وقفتُ على ربعٍ لميَّةَ ناطقٍ يخاطبُني آثارُه وأخاطبُه

(١) سلف عند تفسير الآية (٢) من سورة الأعراف.

وأسقيهِ حتى كادَ مما أبثُّه تكلِّمني أحجارُه وملاعبُه[1]

وإن كان المدعوون الملائكة ونحوهم، فأمرُ التكلُّم ظاهرٌ، وقد حكى الله تعالى قولَ الملائكة للمشركين في السورة السابقة بقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبرٌ مثل مخبرٍ خبير أخبرك به، يعني به تعالَى نفسَه، كما روي عن قتادة وغيره، فإنَّه سبحانه الخبيرُ بكُنْه الأمور، وهو خطابٌ للنبيِّ ﷺ، ويجوزُ أن يكونَ غيرَ مختصٍّ، أي: لا يخبرُكَ أيُّها السامعُ كائناً من كنتَ مخبرٌ هو مثلُ الخبير العالم الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء، والمراد: تحقيقُ ما أخبر سبحانه به من حال آلهتهم، ونفيُ ما يدَّعون لهم من الإلهيَّة.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون ذلك من تمام ذكر الأصنام، كأنَّه قيل: ولا يخبرك مخبرٌ مثلُ مَن يخبرك عن نفسه، وهي قد أخبرت عن أنفسها بأنَّها ليست بآلهة[2]. وفيه من البعد ما فيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم، وفيما يعنُّ لكم من أمرٍ مهمٍّ أو خطبٍ ملمٍّ.

وتعريف «الفقراء» للجنس أو للاستغراق، إذ لا عهد، وعُرِّفَ كذلك للمبالغة في فقرهم، كأنَّهم لكثرة افتقارهم وشدَّة احتياجِهم هم الفقراء فحسب، وأنَّ افتقارَ سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ولا يَرِدُ الجنُّ، إذ هم لا يحتاجون في المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاجُ

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ٨٢١، وعجز البيت الأول فيه:

فما زلت أبكي عنده وأخاطبُه

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٤.

الإنسان، وضعفُهم ليس كضعفه، فلا حاجةَ إلى إدخالهم في الناس تغليباً، على أنَّه قيل: لا يضرُّ ذلك، إذ الكلامُ مع من يُظهِرُ القوَّة والعناد من الناس.

والقول إنَّ القصر إضافيٌّ بالنسبة إليه تعالى، لا يخفى ما فيه.

وقال صاحب «الفرائد»: الوجهُ أن يقال ـ والله تعالى أعلم ـ: المرادُ الناس وغيرهم، وهو على طريقة تغليبِ الحاضر على الغائب، وأولي العلمِ على غيرهم. وهو بعيدٌ جدًّا.

وقال العلَّامة الطيبيُّ: الذي يقتضيه النظم الجليل أنْ يُحمَل التعريفُ في «الناس» على العهد، وفي الفقراء على الجنس؛ لأنَّ المخاطبين هم الذي خوطبوا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الآية، أي: ذلكم المعبودُ هو الذي وُصِف بصفات الجلال، لا الذين تدعونَ من دونه، وأنتم أشدُّ الخلائق احتياجاً إليه عزَّ وجلَّ. ولا يخلو عن حسن.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كلِّ شيءٍ لا غيره ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ المنعمُ على جميع الموجودات، المستحقُّ بإنعامه سبحانَه للحمد، وأصله المحمود، وأريد به ذلك على طريق الكناية؛ ليناسب ذكرَه بعد فقرهم، إذ الغنيُّ لا ينفع الفقير إلَّا إذا كان جواداً منعِماً، ومثلُه مستحقٌّ للحمد، وهذا كالتكميل لما قبلَه، كما في قول كعب الغنويّ:

حليمٌ إذا ما الحلمُ زيَّن أهلَه ... مع الحلم في عين العدوِّ مهيبُ(١)

ويدخلُ في عموم المستغنى عنه المخاطبونَ وعبادتُهم، وفي كلام الطيبيِّ رائحةُ التخصيص، حيث قال ما سمعتَ نقلَه(٢): وهو سبحانه غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم؛ لأنَّه تعالى حميدٌ، له عبادٌ يحمدونَه وإن لم تحمدوه أنتم. والأولى التعميم.

---

(١) أمالي القالي ٢/ ١٤٩، وخزانة الأدب ١٠/ ٤٣٥، ونسبه في الأصمعيات ص١٠٠ لغُرَيقَة بن مسافع العبسي. وهو في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٢ دون نسبة. قال عبد السلام هارون في تعليقه على البيان والتبيين: الأبيات من قصيدتين متشابهتين متداخلتين يخلط الرواة بين أبياتهما، إحداهما لكعب بن سعد الغنوي، والأخرى لعريقة (كذا) بن مسافع العبسي.

(٢) لعله يريد: إثر ما سمعت نقله.

وما روي في سبب النزول من أنَّه لمَّا كَثُرَ من النبيِّ ﷺ الدعاءُ، وكثرَ الإصرارُ من الكفار قالوا: لعلَّ الله تعالى محتاجٌ لعبادتنا، فنزلت = لا يقتضي شيئاً من التخصيص في الآية كما لا يخفى.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: إن يشأ سبحانه إذهابَكم أيُّها الناس والإتيان بخلقٍ جديدٍ يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ بعالَم غيرِ الناس لا تعرفونه، هذا إذا كان الخطابُ عامّاً، أو: إنْ يشأ يذهبكم أيُّها المشركون أو العرب ويأتِ بخلقٍ جديدٍ ليسوا على صفتكم، بل مستمرُّون على طاعته وتوحيده، وهذا إذا كان الخطابُ خاصًّا. وتفسيرُ الجديد بما سمعت مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأيّاً ما كان فالجملةُ تقريرٌ لاستغنائه عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ أي: ما ذكر من إذهابهم والإتيان بخلقٍ جديدٍ ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: بصعبٍ، فإنَّ أمرَه تعالى إذا أراد شيئاً أنْ يقول له: كن، فيكون.

وإن كان في «الناس» تغليب الحاضر على الغائب، وأولي العلم على غيرهم، وكان الخطابُ هنا على ذلك الطرز، وقلنا: إنَّ الآية تشعرُ بأنَّ ما يأتي به سبحانه من العالم أبدعُ = أشكلَ بحسب الظاهر قول حجَّة الإسلام: ليس في الإمكان أبدعُ ممَّا كان[1].

وأُجيب بأنَّ ذلكَ على فرض وقوعِه داخلٌ في حيِّز ما كان، وهو مع هذا العالم كبعضِ أجزاء هذا العالم مع بعض، أو بأنَّ الأبدعيَّة المشعور بها بمعنًى، والأبدعيَّة في كلام حجَّة الإسلام بمعنى آخر، فتدبَّر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي: لا تحملُ نفسٌ آثمةٌ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: إثمَ نفسٍ أخرى، بل تحملُ كلُّ نفسٍ وزرَها.

ولا منافاة بين هذا، وقولِه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [الآية: ١٣] فإنَّه في الضَّالين المضلِّين، وهم يَحملون إثمَ إضلالهم مع إثم ضلالِهم، وكلُّ ذلك آثامُهم، ليس فيها شيءٌ من آثام غيرهم، ولا ينافيه قوله

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٨.

سبحانه: (مَعَ أَثْقَالِهِمْ) لأنَّ المرادَ بأثقالهم ما كان بمباشرتهم، وبما معها ما كان بسَوقِهم وتسبُّبهم، فهو للمضلِّين من وجهٍ، وللآخرين من آخر.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقلتْها الأوزارُ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الذي أثقلَها، ووزرِها الذي بَهَضَها[1]؛ ليُحمَل شيءٌ منه ويخفَّف عنها. وقيل: أي: إلى حَمْل حملها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تُجَب بحملِ شيءٍ منه.

والظاهر أنَّ «ولا تزر» إلخ نفيٌ للحمل الاختياريِّ تكرُّماً من نفس الحامل ردّاً لقول المضلِّين: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ويؤيِّدُه سببُ النزول، فقد رويَ أنَّ الوليدَ بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: اكفروا بمحمدٍ (ﷺ) وعليَّ وزرُكم، فنزلت.

وهذا نفيٌ للحمل بعد الطلب من الوازرة أعمُّ من أن يكون اختياراً أو جبراً، وإذا لم يجبر أحدٌ على الحمل بعد الطلب والاستعانة، عُلِمَ عدمُ الجبر بدونه بالطريق الأولى، فيعمُّ النفيُ أقسامَ الحمل كلِّها، وكذا الحاملُ أعمُّ من أن يكون وازراً أم لا، وجاء العموم من عدم ذكر المدعوِّ ظاهراً، وقد يقال مع ذلك: إنَّ في الأولى نفيَ حمل جميع الوزر، بحيث يتعرَّى منه المحمول عنه، وفي الثاني نفيَ التخفيف، فلا اتِّحاد بين مضموني الجملتين كما لا يخفى.

وقيل في الفرق بينهما: إنَّ الأولَ نفيُ الحمل إجباراً، والثاني نفيٌ له اختياراً. وتعقِّبَ بأنَّ المناسب على هذا: ولا يوزر على وازرةٍ وزر أخرى، وإن تَدْعُ مثقلةٌ إلى حملها أحداً لا يحملْ منه شيئاً. وأيضاً حقُّ نفي الإجبار أنْ يُتعرَّض له بعد نفي الاختيار. وقيل: إنَّ الجملة الأولى كما دلَّت على أنَّ المثقلَ بالذنوب لا يحملُ أحدٌ من ذنوبه شيئاً دلَّت على عدله تعالى الكامل، والجملةُ الثانية دلَّت على أنَّه لا مستغاثَ من هول ذلك اليوم أيضاً، وهما المقصودان من الآيتين، فالفرقُ باعتبار ذلك. ولعلَّ ما ذكرناه أوَّلاً أولى.

وذكر بعض الأفاضل في الجملة الأولى ثلاثةَ أسئلة، قال في الأخيرين منها: لم أرَ من تفطَّن لهما، وقد أجابَ عن كلٍّ:

---

(١) أي: شقَّ عليها وفدحها. انظر القاموس واللسان (بهض).

الأول: أنَّ عدمَ حمل الغير على الغير عامٌّ في النفس الآثمة وغيرِ الآثمة، فَلِمَ خصَّ بالآثمة مع أنَّ التصريح بالعموم أتمُّ في العدل، وأبلغُ في البشارة، وأخصرُ في اللفظ؟ وذلك بأنْ يقال: ولا تحمل نفسٌ حملَ أخرى.

وجوابه: أنَّ الكلامَ في أرباب الأوزار المعذَّبين لبيان أنَّ عذابَهم إنَّما هو بما اقترفوه من الأوزار، لا بما اقترفَه غيرهم.

الثاني: أنَّ معنى وَزَرَ: حَمل الوزرَ، لا مطلق الحمل، على ما في «النهاية» الأثيرية، حيث قال: يقال: وَزَرَ يَزِرُ فهو وَازِرٌ، إذا حَمل ما يُثْقِل ظهرَه من الأشياء المثقِلة ومن الذنوب[1]. فكيف صحَّ ذكر وزر مع يزر؟

وجوابه: أنه من باب التجريد.

الثالث: أن «وازرة» يفهمُ من «تَزِر»، كما يفهم ضارب من يضرب مثلاً، فأيُّ فائدةٍ في ذكره؟

وجوابه: أنَّه إذا قيل: ضربَ ضاربٌ زيداً، فالذي يُستفاد من ضرب إنَّما هو ذاتٌ قام بها ضربٌ حدث من تعلُّق هذا الفعل بتلك الذات، ولمَّا عبَّر عن شيءٍ بما فيه معنى الوصفيَّة، وعُلِّق به معنى مصدريٌّ في صيغة فَعَلَ أو غيرها، فُهِم منه في عرف اللغة أنَّ ذلك الشيءَ موصوفٌ بتلك الصفة حالَ تعلُّق ذلك المعنى به لا بسببه، كما حققه بعض أجلَّة شراح «الكشاف»، فيجبُ أنْ يكون معنى ضارب في المثال: متصفاً بضربٍ سابق على تعلُّق ضربَ به، وكذا يقال في «لا تزر وازرة»، وهذه فائدةٌ جليلةٌ، ويزيدها جلالةً استفادةُ العموم إذ[2] أوردَ اسم الفاعل نكرةً في حيِّز نفي، وبذلك يسقطُ قول العلَّامة التفتازانيّ: إنَّ ذكرَ فاعل الفعل بلفظ اسم فاعله نكرةً قليلُ الجدوى جدّاً. انتهى.

وأنت تعلم أنَّه من مجموع الجملتين يستفادُ ما ذَكره في السؤال الأوَّل من العموم، وفي خصوص هاتين الجملتين وذِكْرِهما معاً ما لا يخفى من الفائدة.

---

(١) النهاية (وزر).

(٢) في (م): إذا. وهي غير واضحة في الأصل. ولعلَّ المثبت هو الصواب.

وفي «القاموس»: وزَرَهُ ـ كوعده ـ وِزْرًا، بالكسر: حَمَلَهُ[١]. وفي «الكشاف»: وزرَ الشيءَ إذا حمله. ونحوه في «البحر»[٢]. وعلى ذلك لا حاجةَ إلى التجريدِ فلا تغفل.

وأصلُ الحِمْل ما كان على الظهر من ثقيلٍ، فاستعير للمعاني من الذنوب والآثام.

وقرأ أبو السمَّال عن طلحة وإبراهيم عن الكسائيّ: «لا تَحمِل» بفتح التاء المثناة من فوق وكسر الميم[٣]، وتقتضي هذه القراءةُ نصبَ «شيء» على أنَّه مفعولٌ به لـ «تحمل»، وفاعله ضمير عائدٌ على مفعول «تَدْعُ»[٤] المحذوف، أي: وإن تَدْعُ مثقلةٌ نفساً إلى حملها، لم تَحمل منه شيئاً.

﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المدعوُّ، المفهوم من الدعوة ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابةٍ من الدَّاعي. وقال ابن عطية[٥]: اسم «كان» ضمير الداعي، أي: ولو كان الداعي ذا قرابةٍ من المدعو. والأول أحسنُ؛ لأنَّ الداعيَ هو المثقلةُ بعينه، فيكونُ الظاهرُ عود الضمير عليه وتأنيثه.

وقول أبي حيَّان: ذَكَّرَ الضميرَ حملاً على المعنى؛ لأنَّ قوله تعالى: «مثقلة» لا يراد بها مؤنَّثُ المعنى فقط، بل كلُّ شخصٍ، فكأنَّه قيل: وإن يدعُ شخصٌ مثقلٌ[٦] = لا يخفى ما فيه.

وقرئ: «ولو كان ذو قربى» بالرفع[٧]. وخُرِّجَ على أنَّ «كان» ناقصةٌ أيضاً، و«ذو قربى» اسمها، والخبر محذوف، أي: ولو كان ذو قربى مدعوّاً.

---

(١) القاموس (وزر).
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٥، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٧.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٧، وقراءة الكسائي المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٤) في الأصل و(م): تدعو. والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٣٠٧ والكلام منه.
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.
(٦) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨.

وجُوِّزَ أنْ تكون تامَّةً، وتُعقِّبَ بأنَّه لا يلتئم معها النظمُ الجليل؛ لأنَّ الجملة الشرطيَّة كالتتميم والمبالغة في أنْ لا غياثَ أصلاً، فيقتضي أن يكونَ المعنى أنَّ المثقلةَ إنْ دَعَتْ أحداً إلى حملها لا يجيبُها إلى ما دعته إليه ولو كان ذو القربى مدعوّاً، ولو قلنا: إنَّ المثقلةَ إنْ دعت أحداً إلى حملها لا يَحْمِلُ مدعوُّها شيئاً ولو حضر ذو قربى، لم يحسُن ذلك الحُسْنَ، وملاحظةُ كونِ ذي القربى مدعوّاً بقرينة السياق، أو تقدير: فدعته ـ كما فعل أبو حيَّان[1] ـ خلافُ الظاهر، فيخفى عليه أمرُ الانتظام.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ لبيان من يتَّعظ بما ذُكر، أي: إنَّما تنذرُ بهذه الإنذارات ونحوها ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه تعالى غائبين عن عذابه سبحانه، أو عن الناس في خلواتهم، أو يخشون عذابَ ربِّهم غائباً عنهم، فالجارُّ والمجرور في موضع الحال من الفاعل، أو من المفعول.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: راعوها كما ينبغي، وجعلوها مناراً منصوباً وعَلَماً مرفوعاً، أي: إنَّما ينفعُ إنذارك وتحذيرُك هؤلاء من قومك دونَ مَن عَدَاهم من أهل التمرُّد والعناد.

ونكتة اختلاف الفعلين تُعلَم ممَّا مرَّ في قوله تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا) فتذكَّر، ما في العهد من قدم.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ من أدناس الأوزار والمعاصي بالتأثُّر من هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أنَّ من تدنَّس بها لا يتدنَّس إلَّا عليها، والتزكِّي شاملٌ للخشية وإقامة الصلاة، فهذا تقريرٌ وحثٌّ عليهما.

وقرأ العباس عن أبي عمرو: «ومن يزَّكَّى فإنَّما يزَّكَّى» بالياء من تحت، وشدِّ الزاي فيهما[2]، وهما مضارعان أصلهما: ومن يتزكَّى فإنما يتزكَّى، فأدغمت التاءُ في الزاي، كما أدغمت في «يذَّكَّرون».

(١) في البحر ٧/٣٠٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/٣٠٨.

وقرأ ابن مسعود وطلحة: «ومن ازَّكّى» بإدغام التاء في الزاي، واجتلاب همزة الوصل في الابتداء، وطلحة أيضاً: «فإنَّما يزَّكّى»[1] بإدغام التاء في الزاي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾ لا إلى أحدٍ غيره استقلالاً أو اشتراكاً، فيجازيهم على تَزَكِّيهم أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾ عطفٌ على قوله تعالى: «وما يستوي البحران»، والأعمى والبصيرُ مَثَلان للكافر والمؤمن، كما قال قتادة والسُّدِّيُّ وغيرهما. وقيل: هما مَثَلان للصنم ولله عزَّ وجلَّ، فهو من تتمَّة قوله تعالى: «ذلكم الله ربكم له الملك» والمعنى: لا يستوي اللهُ تعالى مع ما عبدتم.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠﴾ أي: ولا[2] الباطل ولا الحق.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾ ولا الثواب ولا العقاب. وقيل: ولا الجنَّة ولا النار.

و«الحرور» فعولٌ من الحرِّ، وأطلق ـ كما حُكي عن الفرَّاء ـ على شدَّةِ الحرِّ ليلاً أو نهاراً. وقال أبو البقاء: هو شِدَّة حرِّ الشمس. وفي «الكشاف»: الحرور السموم، إلّا أنَّ السموم يكونُ بالنهار، والحرور بالليل والنهار. وقيل: بالليل[3].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيلٌ آخر للمؤمنين الذين دخلوا في الدين بعدَ البعثة، والكافرين الذين أصرُّوا واستكبروا، فالتعريفُ ـ كما قال الطيبيُّ ـ للعهد.

وقيل: للعلماء والجهلاء. والثعالبيُّ جعلَ «الأعمى والبصير» مَثَلين لهما[4]، وليس بذاك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أن[5] يسمعَه ويجعلَه مدركاً للأصوات. وقال

---

(١) في الأصل و(م): تزكى. والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٣٠٨، والدر المصون ٩/ ٢٢٣.
(٢) لفظة: ولا. ليست في الأصل.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٦.
(٤) أي: للجاهل والعالِم. تفسير أبي إسحاق الثعلبي ٨/ ١٠٤.
(٥) في (م): أي.

الخفاجيُّ[1] وغيره: ولعلَّ في الآية ما يقتضي أنَّ المرادَ: يسمعُ من يشاءُ سماعَ تدبُّرٍ وقَبولٍ لآياتِه تعالى.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾ ترشيحٌ لتمثيل المصرِّين على الكفر بالأموات، وإشباعٌ في إقناطه عليه الصلاة والسلام من إيمانهم. والباء مزيدةٌ للتأكيد، أي: وما أنت مسمعٌ، والمراد بالسماع هنا ما أريدَ به في سابقه، ولا يأبى إرادةَ السماعِ المعروف ما وردَ في حديث القَليب[2]؛ لأنَّ المرادَ نفيُ الإسماع بطريق العادة، وما في الحديث من باب: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وإلى هذا ذهبَ البعض، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك، فلا تغفل.

وما ألطفَ نظمَ هذه التمثيلات، فقد شبَّه المؤمنَ والكافرَ أوَّلاً بالبحرين، وفضَّل البحرَ الأُجَاج على الكافر؛ لخلوِّه من النفع، ثم بالأعمى والبصير مستتبعاً بالظلماتِ والنور والظلِّ والحرور، فلم يكتفِ بفقدان نورِ البصر، حتى ضمَّ إليه فقدان ما يمدُّه من النور الخارجيِّ، وقرنَ إليه نتيجةَ ذلك العمى والفقدان، فكان فيه ترقٍّ من التشبيه الأوَّل إليه، ثم بالأحياء والأموات تَرَقِّياً ثانياً، وأردفَ قوله سبحانه: «وما أنت بمسمع من في القبور».

وذكر الطيبيُّ أنَّ إخلاءَ الثاني من «لا» المؤكِّدة؛ لأنَّه كالتمهيد لقوله تعالى: «وما يستوي الأحياء ولا الأموات»، ولهذا كَرَّر: «وما يستوي»، وأمَّا ذكرُها في التمثيلين بعدَه، فلأنَّهما مقصودان في أنفسهما، إذ ما فيهما مَثَلان للحقِّ والباطل، وما يؤدِّيان إليه من الثواب والعقاب، دون المؤمن والكافر كما في غيرهما، وإنَّما حُمِلت على أنَّها زائدة للتأكيد، إذ ليس المرادُ أنَّ الظلمات في نفسها لا تستوي، بل تتفاوت، فمن ظلمة هي أشدُّ من أخرى مثلاً، وكذا يقال فيما بعد، بل المراد أنَّ الظلمات لا تساوي النور، والظلَّ لا يساوي الحرور، والأحياء لا تساوي الأموات.

وزعم ابن عطية أنَّ دخول «لا» على نيَّة التكرار، كأنه قيل: ولا الظلمات

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٢٣.
(٢) سلف ٢٠/ ٤٨٦.

والنور ولا النور والظلمات، وهكذا، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني، ودلَّ مذكورُ الكلام على متروكه[١].

والقولُ بأنَّها مزيدةٌ لتأكيد النفي يغني عن اعتبار هذا الحذف الذي لا فائدةَ فيه.

وقال الإمام: كُرِّرت «لا» فيما كررت؛ لتأكيد المنافاة، فالظلمات تنافي النور وتضادُّه، والظلُّ والحرور كذلك؛ لأنَّ المرادَ من الظلِّ عدمُ الحرِّ والبرد، بخلاف الأعمى والبصير، فإنَّ الشخصَ الواحدَ قد يكونُ بصيراً، ثمَّ يَعْرِضُ له العمى، فلا منافاةَ إلَّا من حيث الوصف، وأمَّا الأحياء والأموات فيهما؛ وإنْ كانا كالأعمى والبصير من حيث إنَّ الجسمَ الواحد قد يكون حيّاً، ثم يعرضُ له الموت، لكنَّ المنافاةَ بين الحيِّ والميت أتمُّ من المنافاة بين الأعمى والبصير، فإنَّهما قد يشتركان في إدراك أشياء، ولا كذلك الحيُّ والميت، كيف والميتُ مخالفُ الحيِّ في الحقيقة على ما تبيَّن في الحكمة الإلهية[٢].

وقيل: لم تكرَّر قبلُ وكرِّرت بَعْدُ؛ لأنَّ المخاطبَ في أوَّل الكلام لا يقصر في فهم المراد.

وقيل: كُرِّرَت فيما عدا الأخير؛ لأنَّه لو قيل: وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور مثلاً، لتوهِّم نفي الاستواء بين مجموع الأعمى والبصير، ومجموع الظلمات والنور، وفي الأخير للاعتناء، وإدخال «لا» على المتقابلين؛ لتذكير نفي الاستواء.

وقَدَّمَ الأعمى على البصير مع أنَّ البصيرَ أشرف؛ لأنَّه إشارةٌ إلى الكافر، وهو موجودٌ قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان، ولنحو هذا قَدَّمَ الظلمات على النور، فإنَّ الباطلَ كان موجوداً، فدمغَه الحقُّ ببعثته عليه الصلاة والسلام، ولم يقدِّم الحرور على الظلِّ؛ ليكون على طرز ما سبقَ من تقديم غير الأشرف، بل قدَّمَ الظلَّ رعايةً لمناسبتِه للعمى والظلمة من وجه، أو لسبق الرحمة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٦.

وقدَّم الأحياءَ على الأموات، ولم يعكس الأمرَ؛ ليوافق الأوَّلين في تقديم غير الأشرف؛ لأنَّ الأحياء إشارةٌ إلى المؤمنين بعد الدعوة، والأمواتَ إشارةٌ إلى المُصِرِّين على الكفر بعدها، ولذا قيل بعد: «إنَّ الله يُسمعُ من يشاء» إلخ، ووجودُ المصرِّين بوصف الإصرار بعد وجود المؤمنين.

وقيل: قدَّم ما قدَّم فيما عدا الأخير؛ لأنَّه عدم وله مرتبة السبق، وفي الأخير؛ لأنَّ المرادَ بالأموات فاقدو الحياة بعد الاتِّصاف بها، كما يشعرُ به إرداف ذلك بقوله تعالى: (وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ)، فيكون للحياة مع أنَّها وجوديَّةٌ رتبةُ السبق أيضاً.

وقيل: إنَّ تقديم غير الأشرف ـ مع انفهام أنَّه غير أشرف ـ على الأشرف؛ للإشارة إلى أنَّ التقديمَ صورةً لا يخلُّ بشرف الأشرف:

فالنارُ يعلوها الدخان وربَّما يعلو الغبارُ عمائمَ الفرسان[1]

وجمعُ الظلمات مع إفراد النور؛ لتعدُّد فنون الباطل واتِّحاد الحق. وقيل: لأنَّ الظلمةَ قد تتعدَّدُ فتكون في محالَّ قد تخلَّل بينها[2] نورٌ، والنور في هذا العالم ـ وإن تعدَّد ـ إلَّا أنَّه يتَّحد وراءَ محلِّ تعدُّده.

وجمعُ الأحياء والأموات على بابه؛ لتعدُّد المشبَّه بهما. ولم يجمع الأعمى والبصير لذلك؛ لأنَّ القصدَ إلى الجنس، والمفردُ أظهرُ فيه، مع أنَّ في: البصراء، تركَ رعاية الفاصلة، وهو على الذوق السليم دونَ: البصير، فتدبَّر جميعَ ذلك، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه وهو العليم الخبير.

وقرأ الأشهب والحسن: «بمُسْمِعِ مَن» بالإضافة[3].

---

(١) سلف ١٦/١١٧.

(٢) في (م): بينهما.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٩، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٣ لعليٍّ ﷺ، ونسبها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٠، وتبعه القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٧١ للحسن وعيسى الثقفي وعمرو بن ميمون.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾ أي: ما عليك إلَّا أنْ تبلِّغ وتنذرَ، فإن كان المنذَر ممَّن أرادَ الله تعالى هدايته سمعَ واهتدى، وإنْ كان ممَّن أرادَ سبحانَه ضلالَهُ وطبعَ على قلبه فما عليك من تبعة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: محقِّين، على أنَّه حالٌ من الفاعل، أو محقّاً، على أنَّه حالٌ من المفعول، أو إرسالاً مصحوباً بالحقِّ، على أنَّه صفةٌ لمصدرٍ محذوف.

وجَوَّزَ الزمخشريُّ تعلُّقه بقوله سبحانه: ﴿بَشِيرًا﴾، ومتعلّق قوله تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾ محذوفٌ لدلالة المقابل على مقابله، أي: بشيراً بالوعد الحقِّ، ونذيراً بالوعيد الحقِّ[1].

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي: ما من جماعةٍ كثيرةٍ أهل عصر وأمةٍ من الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ من نبيٍّ أو عالم ينذرُها، والاكتفاء بذكره للعِلْم بأنَّ النذارة قرينةُ[2] البشارة، لا سيَّما وقد اقترنا آنفاً، مع أنَّ الإنذارَ أنسبُ بالمقام.

وقيل: خُصَّ النذير بالذكر لأنَّ البشارةَ لا تكونُ إلَّا بالسمع، فهو من خصائص الأنبياء عليهم السلام، فالبشيرُ نبيٌّ أو ناقلٌ عنه، بخلاف النذارة، فإنَّها تكونُ سمعاً وعقلاً، فلذا وجّه النذير في كلِّ أمةٍ، وفيه بحث.

واستدلَّ بعضُ الناس بهذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] على أنَّ في البهائم وسائر الحيوانات أنبياء أو علماء ينذرون.

والاستدلالُ بذلك باطلٌ لا يكاد يخفى بطلانُه على أحدٍ حتى على البهائم، ولم نسمع القولَ بنبوَّة فردٍ من البهائم ونحوها إلَّا عن الشيخ محيي الدين ومن تابعه قدَّس الله سرَّه، ورأيتُ في بعضِ الكتب أنَّ القولَ بذلك كفرٌ، والعياذُ بالله تعالى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٦.

(٢) في (م): قريبة، وهو تصحيف.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم العاتية، فلا تحزن من تكذيب هؤلاء إيَّاك.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ في موضع الحال على ما قال أبو البقاء[1]، إمَّا بدون تقدير «قد» أو بتقديرها، أي: كذَّب الذين من قبلهم وقد جاءتهم رسلهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة الدالَّة على صدقهم فيما يدَّعون ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصُحُف إبراهيم عليه السلام ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل، يعني أنَّ بعضَهم جاء بهذا، وبعضَهم جاء بهذا، لا على إرادةِ الجمع وأنَّ كلَّ رسولٍ جاء بجميع ما ذكر، حتى يلزم أنْ يكون لكلِّ رسولٍ كتاب، وعددُ الرسل أكثر بكثيرٍ من عدد الكتب كما هو معروف، ومآلُ هذا إلى منع الخلوِّ. ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحدٌ، والعطفُ لتغاير العنوانين، لكن فيه بُعْدٌ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع الظاهر موضع ضميرهم؛ لذمِّهم بما في حيِّز الصلة والإشعارِ بعلَّة الأخذ.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إنكاري عليهم بالعقوبة، وفيه مزيدُ تشديدٍ وتهويلٍ، وقد تقدَّم الكلامُ في نظير هذا في «سبأ» فتذكَّر.

وفي الآية من تسليته ﷺ ما فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ على ما يخطر بالبال لتقرير ما أشعرَ به قوله تعالى: (ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) من عظيم قدرته عزَّ وجلَّ.

وقال شيخ الإسلام: هو لتقرير ما قبله من اختلاف الناس ببيان أنَّ الاختلافَ والتفاوت أمرٌ مطَّردٌ في جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان[2].

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢١٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠.

وقال أبو حيان: تقريرٌ لوحدانيَّته تعالى بأدلَّةٍ سماويَّةٍ وأرضيَّةٍ، إثرَ تقريرها بأمثالٍ ضربها جلَّ شأنُه[1]. وهذا كما ترى.

والاستفهامُ للتقرير، والرؤية قلبيَّةٌ؛ لأنَّ إنزالَ المطر، وإن كان مدركاً بالبصر، لكنَّ إنزالَ الله تعالى إيَّاه ليس كذلك، والخطابُ عامٌّ، أي: ألم تعلم أنَّ الله تعالى أنزلَ من جهة العلوِّ ماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء، على أنَّه سببٌ عاديٌّ للإخراج، وقيل: أي: أخرجنا عنده.

والالتفاتُ لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة.

﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: أنواعُها، من التفَّاح والرمَّان والعنب والتين وغيرها ممَّا لا يحصر، وهذا كما يقال: فلانٌ أتى بألوانٍ من الأحاديث، و: قدَّم كذا لوناً من الطعام، واختلافُ كلِّ نوع بتعدُّد أصنافه كما في التفَّاح، فإنَّ له أصنافاً متغايرةً لذَّةً وهيئة، وكذا في سائر الثمرات، ولا يكاد يوجدُ نوعٌ منها إلَّا وهو ذو أصنافٍ متغايرة.

ويجوز أنْ يُرَاد اختلافُ كلِّ نوعٍ باختلاف أفراده.

وأخرجَ عبدُ بن حميد وابن جرير عن قتادة أنَّه حملَ الألوانَ على معناها المعروف، واختلافها بالصفرة والحمرة والخضرة وغيرها[2]، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً، وهو الأوفقُ لما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ وهو إمَّا عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى، أو حالٌ، وكونه استئنافاً مع ارتباطه بما قبله غيرُ ظاهر.

و«جدد» جمع: جُدَّةٍ بالضَّمِّ، وهي الطريقة، من جَدَّه: إذا قطعه.

وقال أبو الفضل: هي من الطرائق ما يخالف لونُه لونَ ما يليه، ومنه جُدَّة الحمار للخطِّ الذي في وسط ظهره يخالف لونه.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١١.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩، وأخرجه الطبريُّ في تفسيره ١٩/ ٣٦٣.

وسأل ابنُ الأزرق ابنَ عباس ﷺ عن الجُدَد، فقال: طرائق؛ طريقةٌ بيضاء، وطريقةٌ خضراء، وأنشدَ قول الشاعر:

قد غادرَ السبعُ في صفحاتها جُدَداً   كـأنَّـهـا طُـرقٌ لاحـت عـلـى أكـمِ(١)

والكلامُ على تقدير مضاف إن لم تُقصد المبالغة؛ لأنَّ الجبالَ ليست نفس الطرائق، أي: ذو جدد.

وقرأ الزهريُّ: «جُدُد» بضمَّتين(٢)، جمع: جَدِيدة، كسفينة وسفن، وهي بمعنى جُدَّة.

وقال صاحب «اللوامح»: هو جمعُ جديد بمعنى: آثارٌ جديدةٌ واضحةُ الألوان.

وقال أبو عبيدة: لا مدخلَ لمعنى الجديد(٣) في هذه الآية.

ولعلَّ من يقول بتجدُّد حدوث الجبال وتكونُّها من مياهٍ تنبعُ من الأرض وتتحجَّر أولاً فأولاً، ثم تنبعُ من موضعٍ قريبٍ ممَّا تحجَّر، فتتحجَّرُ أيضاً، وهكذا حتى يحصل جبل = لا يأبى حملَ الآية على هذه القراءة على ما ذكر.

والظاهر من الآيات والأخبار أنَّ الجبالَ أحدثَها اللهُ تعالى بُعَيْدَ خلق الأرض؛ لئلَّا تميدَ بسكَّانها، والفلاسفةُ يزعمون أنَّها كانت طيناً في بحار انحسرت ثمَّ تحجَّرت، وقد أطال الإمام الكلامَ على ذلك في كتابه «المباحث المشرقية»، واستدلَّ على ذلك بوجود أشياء بحرية كالصدف بينَ أجزائها. وهذا عند تدقيق النظر هباءٌ، وأكثرُ الأدلَّة مثله، ومن أراد الاطِّلاعَ على ما قالوا فليرجع إلى كتبهم.

وروي عنه أيضاً أنه قرأ: «جَدَد» بفتحتين(٤)، ولم يُجِز ذلك أبو حاتم، وقال: إنَّ هذه القراءة لا تصحُّ من حيث المعنى. وصحَّحها غيرُه وقال: الجَدَد: الطريقُ الواضح المبين، إلَّا أنَّه وضعَ المفرد موضعَ الجمع، ولذا وُصِف بالجمع.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩، وعزاه للطستي.
(٢) المحتسب ٢/ ١٩٩، والكشاف ٣/ ٣٠٧، والبحر المحيط ٧/ ٣١١.
(٣) في الأصل و(م): الجديدة، والمثبت من البحر ٧/ ٣١١، وعنه نقل المصنف.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣-١٢٤، والمحتسب ٢/ ١٩٩، والبحر المحيط ٧/ ٣١١.

وقيل: هو من باب: نطفةٌ أمشاج، وثوبٌ أخلاق؛ لاشتمال الطريق على قِطَعٍ. وتعقِّبَ بأنَّه غيرُ ظاهر ولا مناسبٍ لجمع الجبال.

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: أصنافُها بالشدَّةِ والضعف؛ لأنَّها مقولةٌ بالتشكيك[1]، فـ «مختلف» صفة «بيضٌ وحمرٌ»، و«ألوانها» فاعلٌ له، وليس بمبتدأ و«مختلف» خبره؛ لوجوب مختلفة حينئذٍ، وجُوِّز أن يكون صفة «جدد».

﴿وَغَرَابِيبُ﴾ عطفٌ على «بيض»، فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بها، أي: ومن الجبال ذو جُدَدٍ بيض وحمر وغرابيب.

والغِرْبِيبُ هو الذي أَبْعَدَ في السواد وأَغْرَبَ فيه، ومنه الغراب، وكثر في كلامهم إتباعُه للأسود على أنَّه صفةٌ له أو تأكيدٌ لفظيّ، فقالوا: أسودٌ غربيبٌ، كما قالوا: أبيضُ يَقَقٌ، وأصفرُ فاقعٌ، وأحمرُ قانٍ.

وظاهر كلام الزمخشري[2] أنَّ «غرابيب» هنا تأكيدٌ لمحذوف، والأصل: وسودٌ غرابيب، أي: شديدة السواد.

وتُعقِّب بأنَّه لا يصحُّ إلَّا على مذهب من يُجوِّزُ حذفَ المؤكَّد، ومن النحاة من مَنع ذلك ـ وهو اختيارُ ابن مالك ـ لأنَّ التأكيدَ يقتضي الاعتناء والتقوية وقصدَ التطويل، والحذف يقتضي خلافَه. وردَّه الصفَّار كما في «شرح التسهيل» لأنَّ المحذوف لدليل كالمذكور فلا ينافي تأكيده، وفي بعض شروح «المفصَّل» أنه صفةٌ لذلك المحذوف أقيم مقامه بعد حذفه، وقوله تعالى: ﴿سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ بدلٌ منه أو عطفُ بيانٍ له، وهو مفسِّرٌ للمحذوف، ونظير ذلك قول النابغة:

والمؤمِنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُها ... ركبانُ مكَّةَ بين الغَيْلِ والسَّنَدِ[3]

وفيه التفسيرُ بعد الإبهام، ومزيدُ الاعتناء بوصف السواد، حيث دلَّ عليه من طريق الإضمار والإظهار.

---

(١) اللفظ المقول بالتشكيك: هو لفظ يدل على أمر عامٍّ مشتركٍ بين أفرادٍ لا على السَّواء، بل على التفاوت. المعجم الوسيط (شكك).

(٢) في الكشاف ٢/ ٣٠٧.

(٣) ديوان النابغة ص ٣٥، وفيه: والسَّعَد، بدل: والسَّند.

ويجوز أن يكون العطفُ على «جدد» على معنى: ومن الجبال ذو جددٍ مختلف اللون، ومنها غرابيب متحدةُ اللون، كما يؤذنُ به المقابلةُ وإخراجُ التركيبِ على الأسلوب الذي سمعته، وكأنَّه لمَّا اعتنى بأمرِ السواد بإفادة أنَّه في غاية الشدَّة، لم يذكر بعدَه الاختلاف بالشدَّة والضعف.

وقال الفرَّاء: الكلامُ على التقديم والتأخير، أي: سودٌ غرابيب.

وقيل: ليس هناك مؤكَّدٌ ولا موصوفٌ محذوف، وإنَّما «غرابيب» معطوفٌ على «جُدَد» أو على «بيض» من أوَّل الأمر و«سود» بدلٌ منه. قال في «البحر»: وهذا حسنٌ، ويحسِّنُه كونُ غربيب لم يلزم فيه أن يستعملَ تأكيداً، ومنه ما جاء في الحديث: «إنَّ الله تعالى يبغضُ الشيخَ الغربيب»[1] وهو الذي يخضبُ بالسواد - وفسَّره ابنُ الأثير بالذي لا يشيب[2]، أي: لسفاهتِه أو لعدمِ اهتمامه بأمر آخرته، وحَكَى[3] ما في «البحر» بصيغة قيل - وقولُ الشاعر:

العينُ طامحةٌ واليدُ شامخةٌ والرجلُ لائحةٌ والوجهُ غربيبُ[4]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ومنهم بعضٌ مختلفٌ ألوانُه، أو: وبعضُهم[5] مختلفٌ ألوانُه على ما ذَكروا في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]. والجملةُ عطفٌ على الجملة التي قبلَها، وحكمُها حكمها.

وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّ إيرادَ الجملتين اسميتين، مع مشاركتهما لمَا قبلهما من الجملة الفعليَّة في الاستشهاد بمضمونها على تباين الناس في الأحوال الباطنة؛ لمَا أنَّ اختلافَ الجبال والناس والدوابِّ والأنعامِ فيما ذكر من الألوان أمرٌ

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٠١٦. قال محمد بن طاهر المقدسي في ذخيرة الحفاظ ٢/ ٦٠٣: وهذا لا يرويه غير رشدين، وهو ضعيف جداً.

(٢) النهاية (غرب).

(٣) أي: ابن الأثير.

(٤) البحر ٧/ ٣١٢، وفيه: واليد سابحة، والبيت في ديوان امرئ القيس برواية:

والعين قادحة واليدُ سابحةٌ والرجلُ طامحةٌ واللونُ غربيبُ

(٥) في الأصل و(م): أو بعضهم، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ١٥١، والكلام منه.

مستمرٌّ، فعبَّر عنه بما يدلُّ على الاستمرار، وأمَّا إخراجُ الثمرات المختلفة، فحيث كان أمراً حادثاً، عبَّرَ عنه بما يدلُّ على الحدوث، ثمَّ لمَّا كان فيه نوعُ خفاءٍ، علَّق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريريِّ المنبئ عن الحمل عليها والترغيبِ فيها، بخلافِ أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنَّها مشاهَدةٌ غنيَّةٌ عن التأمُّل، فلذلك جُرِّدَت عن التعليق بالرؤية، فتدبَّر[١]. اهـ.

وما ذكرَه من أمر تعليقِ الرؤية مخالفٌ لما في «البحر»، حيث قال: وهذا استفهامُ تقريرٍ، ولا يكونُ إلَّا في الشيءِ الظاهرِ جدّاً[٢]. فتأمَّل.

وقرأ الزهريُّ: «والدوابِ» بتخفيف الباء[٣]، مبالغةً في الهرب من التقاء الساكنين، كما همز بعضهم: «ولا الضألِّين»[٤] لذلك.

وقرأ ابن السميفع: «ألوانُها»[٥].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محلِّ نصبِ صفةٍ لمصدرِ «مختلف» المؤكِّد، والتقدير: مختلفٌ اختلافاً كائناً كذلك، أي: كاختلاف الثمرات والجبال، فهو من تمام الكلام قبلَه، والوقف عليه حسن بإجماعِ أهل الأداء. وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ تكملةٌ لقوله تعالى: «إنَّما تنذرُ الذين يخشون ربَّهم بالغيب» بتعيين من يخشاه عزَّ وجلَّ من الناس بعد الإيماء إلى بيان[٦] شرف الخشية، ورداءة ضدِّها، وتوعُّد المتَّصفين به، وتقرير قدرته عزَّ وجلَّ المستدعي للخشية، على ما نقول. أو بعد بيان اختلاف طبقات الناس، وتباين مراتبهم؛ أمَّا في الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل، وأمَّا في الأوصاف الصوريَّة فبطريق التصريح؛ توفيةً لكلٍّ واحدةٍ منهما حقَّها اللائقَ بها من البيان.

وقيل: «كذلك» في موضع رفعِ خبرِ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمر كذلك، أي:

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥١.

(٢) البحر ٧/ ٣١١.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٤) هي قراءة أيوب السختياني كما في القراءات الشاذة ص ١، والمحتسب ١/ ٤٦.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٦) لفظة: بيان. ليست في الأصل.

كما بُيِّن ولُخِّص، ثم قيل: «إنَّما يخشَى اللهَ» إلخ، وسلك به مسلكَ الكناية من باب: العرب لا تخفر الذمم[١]؛ دلالةً على أنَّ العلم يقتضي الخشية ويناسبُها، وهو تخلُّصٌ إلى ذكر أوليائه تعالى، مع إفادةِ أنَّهم الذين نفعَ فيهم الإنذار، وأنَّ لك بهم غنيةً عن هؤلاء المصرِّين.

قال صاحب «الكشف»: والرفعُ أظهر ليكون من فصل الخطاب.

وقال ابن عطية[٢]: يحتملُ أن يكون «كذلك» متعلِّقاً بما بعده، خارجاً مخرجَ السبب، أي: كذلك الاعتبارِ والنظر في مخلوقات الله تعالى واختلاف ألوانها يخشَى اللهَ العلماءُ.

وردَّه السمينُ بأنَّ «إنَّما» لا يعملُ ما بعدَها فيما قبلها، وبأنَّ الوقفَ على «كذلك» عند أهل الأداء جميعاً[٣]. وارتضاه الخفاجيُّ وقال: وبه ظهر ضعفُ ما قيل: إنَّ المعنى: الأمرُ كذلك، أي: كما بُيِّنَ ولُخِّص، على أنه تخلُّصٌ لذكر أولياء الله تعالى[٤].

وفيه أنَّه ليس في هذا المعنى عملُ ما بعدَ «إنَّما» فيما قبلها، وإجماعُ أهلِ الأداء على الوقف على «كذلك» - إن سُلِّم - لا يظهرُ به ضعفُ ذلك، وفي بعض التفاسير المأثورة عن السلف ما يُشعرُ بتعلُّق «كذلك» بما بعده؛ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في الآية: كما اختلفت هذه الأنعام تختلفُ الناس في خشية الله تعالى كذلك[٥].

وهذا عندي ضعيفٌ، والأظهر ما عليه الجمهور، وما قيلَ أدقُّ وألطف.

والمراد بالعلماء: العالمون بالله عزَّ وجلَّ وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شؤونه الجميلة، لا العارفون بالنحو والصرف مثلاً، فمدار

---

(١) ينظر شرح ذلك في الكشاف ٣/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧.

(٣) أي: وقف تامٌّ. الدر المصون ٩/ ٢٣١.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩.

الخشية ذلك العلم لا هذه المعرفة، فكلٌّ من كان أعلم به تعالى كان أخشى.

روى الدارميُّ عن عطاء قال: قال موسى عليه السلام: يا ربّ، أيُّ عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكمُ للناس كما يحكم لنفسه. قال: يا ربّ، أيُّ عبادِك أغنى؟ قال: أرضاهم بما قسمتُ له. قال: يا ربّ، أيُّ عبادك أخشى؟ قال: أعلمهم بي[1].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له»[2].

ولكونه المدار ذُكِرت الخشيةُ بعدَ ما يدلُّ على كمال القدرة، ولهذه المناسبة فسَّر ابن عباس ـ كما أخرج عنه ابن المنذر وابن جرير ـ «العلماء» في الآية بالذين يعلمون أنَّ الله تعالى على كلِّ شيءٍ قدير[3].

وتقديمُ المفعول؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ الخاشين، والإخبارُ بأنَّهم العلماءُ خاصَّةً دون غيرهم، ولو أخّرَ لكان المقصودُ بيانَ المخشيِّ، والإخبارَ بأنَّه الله تعالى دونَ غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] والمقامُ لا يقتضيه، بل يقتضي الأوَّلَ؛ ليكونَ تعريضاً بالمنذَرين المصرِّين على الكفر والعناد، وأنهم جهلاءُ بالله تعالى وبصفاته، ولذلك لا يخشونَ الله تعالى ولا يخافون عقابَه.

وأنكر بعضهم إفادة «إنما» هنا للحصر. وليس بشيء.

وروي عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة ﷺ أنَّهما قرأا: «إنما يخشى اللهُ» بالرفع «العلماءَ» بالنصب[4]، وطعنَ صاحب «النشر» في هذه القراءة[5]، وقال أبو حيان: لعلها لا تصحُّ عنهما، وقد رأينا كتباً في الشواذِّ، ولم يذكروا هذه

---

(١) سنن الدارمي (٣٦٢).

(٢) أورده بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٣/ ٤٠٧، وأبو السعود في تفسيره ٧/ ١٥١. وأخرج البخاري في صحيحه (٢٠) من حديث عائشة قوله ﷺ: «إنَّ أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا». وبرقم (٦١٠١) و(٧٣٠١) عن عائشة أيضاً بلفظ: «فوالله إنِّي لأعلمُهم بالله وأشدُّهم له خشية».
وأخرج مسلم في صحيحه (١١١٠) من حديث عائشة أيضاً: «والله إنِّي لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلم بما أتَّقي».

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٠، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٦٤.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٧٧، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٥) النشر ١/ ١٦.

القراءة، وإنَّما ذكرها الزمخشريُّ، وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة[١] في كتابه «الكامل»[٢].

وخُرِّجت على أنَّ الخشيةَ مجازٌ عن التعظيم بعلاقة اللزوم، فإنَّ المعظَّم يكون مهيباً.

وقيل: الخشيةُ تَرِد بمعنى الاختيار، كقوله:

خشيت بني عمِّي فلم أرَ مثلهم[٣]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ تعليلٌ لوجوب الخشية؛ لأنَّ العزَّة دالَّةٌ على كمال القدرة على الانتقام، ولا يوصَفُ بالمغفرة والرحمة إلَّا القادرُ على العقوبة.

وقيل: ذكر «غفور» من باب التكميل نظير ما في بيت الغنوي المذكورِ آنفاً[٤].

والآية ـ على ما في بعض الآثار ـ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ظهرت عليه الخشيةُ حتى عُرِفت فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداومون على قراءته، حتى صارت سمةً لهم وعنواناً، كما يُشعرُ به صيغةُ المضارع ووقوعُه صلةً واختلافُ الفعلين.

والمراد بـ «كتاب الله» القرآن، فقد قال مطرف بن عبد الله بن الشِّخير: هذه آية القُرَّاء. وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في «تفسيره» عن ابن عباس أنَّها نزلت في حصين بن الحارث بن عبد المطلب القرشيّ[٥].

ثم إنَّ العبرةَ بعموم اللفظ، فلذا قال السُّدّيُّ في التَّالِين: هم أصحابُ رسول الله ﷺ. وقال عطاء: هم المؤمنون. أي: عامَّة، وهو الأرجح، ويدخلُ الأصحابُ دخولاً أوَّليّاً.

---

(١) في (م): جنادة. وهو خطأ. وهو الهذلي المتوفى سنة (٤٦٥ هـ). له ترجمة مطولة في غاية النهاية ٢/ ٣٩٧-٤٠١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٣) أورده الخفاجي في حاشيته ٧/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٤) ص٢٠١ من هذا الجزء.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٥١، ولباب النقول ص ١٨١. والصواب كما في الإصابة ٢/ ٢٥٥، والاستيعاب ٣/ ٣٤ (بهامش الإصابة): حصين بن الحارث بن المطلب. والله أعلم.

وقيل: معنى «يتلون كتاب الله»: يتَّبعونَه، فيعملونَ بما فيه. وكأنَّه جعلَ «يتلو» من تلاه إذا تبِعَه، أو حملَ التلاوةَ المعروفة على العمل؛ لأنَّها ليس فيها كثيرُ نفعٍ دونه، وقد ورد: ربَّ قارئٍ للقرآن والقرآنُ يلعنه(١).

ويشعرُ كلامُ بعضهم باختيار المعنى المتبادر، حيث قال: إنَّه تعالى لمَّا ذكرَ الخشية، وهي عمل القلب، ذكرَ بعدها عملَ اللسان والجوارح والعبادةَ الماليَّة.

وجُوِّزَ أنْ يُرَاد بكتاب الله تعالى جنسُ كتبه عزَّ وجلَّ الصادقُ على التوراة والإنجيلِ وغيرهما، فيكونُ ثناءً على المصدِّقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذِّبين بقوله تعالى: «وإن يكذبوك» إلخ، والمضارعُ لحكاية الحال الماضية، والمقصودُ من الثناء عليهم وبيانِ ما لهم حثُّ هذه الأمة على اتِّباعهم، وأنْ يفعلُوا نحوَ ما فعلوا.

والوجهُ الأوَّل أَوْجَهُ كما لا يخفى، وعليه الجمهور.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: مسرِّين ومعلنين، أو: في سرٍّ وعلانية، والمراد: ينفقون كيفما اتفق، من غير قصدٍ إليهما.

وقيل: السرُّ في الإنفاق المَسْنُون، والعلانيةُ في الإنفاق المفروض.

وفي كون الإنفاق ممَّا رُزقوا إشارةٌ إلى أنَّهم لم يسرفوا، ولم يبسطوا أيديَهم كلَّ البسط، ومقامُ التمدُّح مشعرٌ بأنَّهم تحرَّوا الحلالَ الطيِّبَ. وقيل: جيء بـ «من» لذلك.

والمعتزلة يخصُّون الرزقَ بالحلال، وهو أنسبُ بإسناد الفعلِ إلى ضمير العظمة، ومن لا يخصُّه بالحلال يقول: هو للتعظيم والحثِّ على الإنفاق.

﴿يَرْجُونَ﴾ بما أتوا من الطاعات ﴿تِجَـٰرَةً﴾ أي: معاملةً مع الله تعالى لنيل ربح الثواب، على أنَّ التجارةَ مجازٌ عمَّا ذُكر والقرينة حاليَّةٌ، كما قال بعض الأجلَّة.

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء ١/ ٢٧٤ من قول أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لن تكسُد، وقيل: لن تهلِك بالخسران، صفةُ «تجارة»، وترشيحٌ للمجاز. وجملة «يرجون» إلخ ـ على ما قال الفراء وأبو البقاء ـ خبرُ «إنَّ»[(١)].

وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارةٌ إلى أنَّهم لا يقطعون بنَفاق تجارتهم، بل يأتون ما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلةٌ أنْ لا يقبلَ منهم.

وجَعَل بعضُهم التجارة مجازاً عن تحصيل الثواب بالطاعة، وأمر الترشيح على حاله، وإليه ذهب أبو السعود، ثم قال: والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عِدَةٌ قطعيَّةٌ بحصولِ مرجوِّهم[(٢)].

وظاهر ما رُوي عن قتادة من تفسيره التجارةَ بالجنَّة: أنَّها مجازٌ عن الربح، وفَسَّر «لن تبور» بـ: لن تبيد، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلِّقٌ عند بعضٍ بما دلَّ عليه «لن» تعلُّقَ «بنعمة ربك» في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] بما دلَّ عليه «ما»، لا بالحرف، إذ لا يتعلَّقُ الجارُّ به على المشهور، أي: ينتفي الكساد عنها، وتنفق عند الله تعالى؛ ليوفيهم أجورَ أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء، وعن أبي وائل: زيادتُه تعالى إيَّاهم بتشفيعهم فيمن أحسنَ إليهم. وقال الضحَّاك: بتفسيح القلوب. وفي الحديث: بتضعيفِ حسناتهم[(٣)]، وقيل: بالنظرِ إلى وجهه تعالى الكريم.

والظاهر أنَّ «من فضله» راجعٌ لما عنده، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ توفيته[(٤)] أجورَهم

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٩، وإملاء ما من به الرحمن ٢/ ٢٠١.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٢.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٣، وكذا ذكر ذلك الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٢، وقال: وهو مأثور. ولعلَّه يريد بذلك ما أخرجه الترمذي(٢٩١٠)، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) في (م): توفية.

كالواجب؛ لكونه جزاءً لهم بوعده سبحانه، ويجوزُ أنْ يكون راجعاً إليهما.

أو متعلِّقٌ بمقدَّرٍ يدلُّ عليه ما قبله، وهو ما عَدَّ من أفعالهم المرضيَّة، أي: فعلوا ذلك ليوفيهم أجورهم.. إلخ. وجُوِّزَ تعلُّقُه بما قبلَه على التنازع، وصنيعُ أبي البقاء[1] يشعرُ باختيار تعلُّقه بـ «يرجون»، وجَعَلَ اللام عليه لام الصيرورة.

وتُعُقِّبَ بأنَّه لا مانعَ من جعلها لام العلة، كما هو الشائع الكثير، ولا يظهرُ للعدول عنه وجه.

ووَجَّه ذلك الطيبيُّ بأنَّ غَرَضهُم فيما فعلوا لم يكن سوى تجارةٍ غيرِ كاسدة؛ لأنَّ صلة الموصول هنا علَّةٌ وإيذانٌ بتحقُّق الخبر، ولمَّا أدى ذلك إلى أنْ وفَّاهم الله تعالى أجورَهم أتى باللام، وإنَّما لم يذهب إليه بعضُ الأجلَّة، كالزمخشريِّ؛ لأنَّ هذه اللام لا توجدُ إلَّا فيما يترتَّب الثاني - الذي هو مدخولها - على الأول، ولا يكون مطلوباً، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ تعليلٌ لما قبلَه من التوفية والزيادة عند الكثير، أي: غفورٌ لفَرَطَات المطيعين، شكورٌ لطاعاتهم، أي: مجازيهم عليها أكملَ الجزاء، فيوفِّي هؤلاءِ أجورَهم، ويزيدهم من فضله.

وجُوِّزَ أنْ يكون خبراً بعد خبر، والعائد محذوفٌ، أي: لهم.

وجُوِّزَ أن يكون هو الخبر بتقدير العائد، وجملة «يرجون» حالٌ من ضمير «أنفقوا» بناءً على أنَّ القيدَ المتعقِّب لأمورٍ متعددة يختصُّ بالأخير، كما هو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، أو على أنَّ رجاءَ التجارة النافقة أوفقُ بالإنفاق، أو من مقدَّرٍ، أي: فعلوا جميعَ ذلك راجين، واستظهره الطيبيُّ، والجملةُ عليه معترضةٌ، فلا يَرِدُ أنَّ فيه الفصلَ بين المبتدأ وخبره بأجنبيٍّ.

وجُوِّزَ أن يكون حالاً من ضمير «الذين» على سبيل التنازع، ولم يشتهر التنازعُ في الحال. وأنا لا أرى فيه بأساً.

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢٢٠.

واستظهرَ بعض المعاصرين جعلَ الجملة المذكورة حالاً من ضمير «أنفقوا»؛ لقربه وشدَّة الملاءمة بين الإنفاق ورجاء تجارة لها نَفَاق، ولا يبعدُ أنْ يكون قد حذف فيما تقدَّم نظيرها لدلالتها عليه، وجَعَلَ «ليوفيهم» متنازعاً فيه للأفعال الثلاثة المتعاطفة، أو جعلَ الجملة حالاً من مقدَّرٍ كما سمعت آنفاً، و«ليوفيهم» متعلِّقاً بـ «يرجون»، وجملة «إنه غفور شكور» خبرُ المبتدأ، والرابطُ محذوف، وفي جملة «يرجون» إلخ احتمالُ الاستعارة التمثيلية، ولو على بُعْدٍ. ولم أرَ من أشارَ إليه، فتدبَّر.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن، و«من» للتبيين، إذ القرآن أخصُّ من «الذي أوحينا» مفهوماً وإن اتحدَا ذاتاً. أو جنسُ الكتاب، و«من» للتبعيض، إذ المراد من «الذي أوحينا» هو القرآن، وهو بعض جنس الكتاب. وقيل: هو اللوح، و«من» للابتداء.

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إذا كان المراد الحصر، فهو من قَصْرِ المسندِ إليه على المسند لا العكس؛ لعدم استقامة المعنى إلا أنْ يقصد المبالغة، قاله الخفاجيُّ(١).

والمتبادر الشائع في أمثاله قصرُ المسند على المسند إليه، وهو هاهنا ـ إن لم تقصد المبالغة ـ قصرٌ إضافيٌّ بالنسبة إلى ما يفتريه أهلُ الكتاب وينسبونَه إلى الله تعالى.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لِمَا تقدَّمه من الكتب السماويَّة، ونصب «مصدقاً» على الحالية، والعامل فيه مقدَّرٌ يُفهم من مضمون الجملة قبله، أي: أحقِّقُه مصدِّقاً، وهو حال مؤكِّدَةٌ؛ لأنَّ حقِّيَّته تستلزمُ موافقتَه للكتب الإلهيَّة المتقدِّمةِ عليه بالزمان في العقائد وأصول الأحكام، واللام للتقوية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ محيطٌ ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوَّة لم يوحِ إليك مثلَ هذا الحقِّ المعجز الذي هو عيار(٢)

---

(١) في حاشيته ٧/٢٢٦.

(٢) مصدر عايَرْتُ المكاييلَ والموازين: إذا قايَسْتَها بغيرها ليعلم صحتها، وهو مجاز مرسل يعلم =

على سائر الكتب. وتقديم «الخبير» للتنبيه على أنَّ العمدةَ هي الأمور الروحانيَّة، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى أعمالكم، وإنَّما ينظرُ إلى قلوبكم»(١).

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، كما عليه الجمهور، والعطف ـ قيل ـ على «الذي أوحينا»، وقيل: على «أوحينا» بإقامة الظاهر مقام الضمير العائد على الموصول، واستُظهِر ذلك بالقرب وتوافق الجملتين، أي: ثم أعطيناه من غير كدٍّ وتعبٍ في طلبه ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم ـ كما قال ابن عباس وغيره ـ أمَّةُ محمد ﷺ، فإنَّ الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أُمَّةً وسطاً؛ ليكونوا شهداءَ على الناس، وخصَّهم بالانتماء إلى أكرم رسله وأفضلهم عليهم الصلاة والسلام.

و«ثمَّ» للتراخي الرتبيّ، فإنَّ إيحاءَ الكتاب إليه ﷺ أشرفُ من الإيراث المذكور، فإنَّه(٢) كالعلَّة له، وبه تحقَّقت نبوَّته عليه الصلاة والسلام التي هي منبعُ كلِّ خيرٍ، وليست للتراخي الزمانيّ، إذ زمانُ إيحائه إليه عليه الصلاة والسلام هو زمانُ إيراثه، وإعطاؤه أمَّتَه بمعنى تخصيصه بهم، وجعلِه كتابَهم الذي إليه يرجعون، وبالعمل بما فيه ينتفعون.

وإذا أُريد بإيراثه إيَّاهم إيراثُه منه ﷺ، وجعلُهم منتفعين به، فاهمين ما فيه بالذات كالعلماء، أو بالواسطة كغيرهم بعدَه عليه الصلاة والسلام؛ فهي للتراخي الزمانيّ، والتعبيرُ عن ذلك بالماضي لتحقُّقه.

= به صحة غيره منها، فما وافقه فهو صحيح من عند الله، وما خالفه فليس منه، بل هو محرَّف مبدل. حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٦.

(١) لم أقف عليه بهذا السياق. والذي أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤): (٣٣) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».
وأخرجه مسلم أيضاً برقم (٢٥٦٤): (٣٤) بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٢) في (م): كأنه.

وجُوِّزَ أن يكون معنى «أَوْرَثْنا الكتاب»: حَكَمْنا بإيرائه وقدَّرناه، على أنَّه مجازٌ، من إطلاق السبب على المسبَّب، فتكون «ثمَّ» للتراخي الرُّتْبيِّ، وإلَّا فزمانُ الحكم سابقٌ على زمان الإيحاء، ووجه التعبير بالماضي عليه ظاهر.

وفي «شرح الرضي» أنَّ «ثمَّ» قد تجيء في عطف الجمل خاصَّةً؛ لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلَها وعدم مناسبته له، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] فإنَّ بين توبة العباد وهي انقطاعُ العبد إليه تعالى بالكليَّة وبينَ طلب المغفرة بَوناً بعيداً، وهذا المعنى فرعُ التراخي ومجازه. اهـ.

وابن الشيخ جعل ما هنا كما في هذه الآية، وجَوَّزَ أنْ يكون «ثم أورثنا» إلخ متَّصلاً بما سبق من قوله تعالى: (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) والمراد: ثمَّ أورثنا الكتاب من الأمم السالفة، وأعطيناه بعدهم الذين اصطفيناهم من الأمَّة المحمديَّة، و«الكتاب» القرآن، كما قيل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقيل: لا يحتاج إلى اعتبار ذلك، ويجعل المعنى: ثمَّ أخَّرنا القرآن عن الأمم السالفة، وأعطيناه هذه الأمَّة، ووجه النظم أنَّه تعالى قدَّم إرساله في كلِّ أمَّةٍ رسولاً، وعقَّبه بما ينبئ أنَّ تلك الأمم تفرَّقت حزبين، حزب كذَّبوا الرسل وما أُنزِلَ معهم، وهم المشارُ إليهم بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] وحِزْبٌ صدَّقوهم، وتَلَوا كتابَ الله تعالى، وعملوا بمقتضاه، وهم المشارُ إليهم بقوله سبحانه: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ) إلخ، وبعد أنْ أثنى سبحانه على التَّالين لكتبه، العاملين بشرائعه من بين المكذِّبين بها من سائر الأمم، جاء بما يختصُّ برسوله ﷺ من قوله سبحانه: (وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) إلخ استطراداً معترضاً، ثم أخبر سبحانه بإيرائه هذا الكتاب الكريم هذه الأمَّةَ بعد إعطاء تلك الأمم الزُّبُر والكتابَ المنير، وعلى هذا يكون المضيُّ[1] في «أورثنا» على ظاهره، و«ثمَّ» للتراخي في الإخبار، أو للتراخي

(١) في (م): المعنى. وهو تصحيف.

في الرتبة إيذاناً بفضل هذا الكتاب على سائر الكتب، وفضلِ هذه الأمة على سائر الأمم، وفي هذا الوجه حَمْلُ الكتاب في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ على الجنس، وجَعْلُ الآية ثناءً على الأمم المصدِّقين بعد اقتصاص حال المكذِّبين منهم، فإنْ دُفِع ما فيه فهو من الحسن بمكان.

وجُوِّزَ أن يكون عطفاً على ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، وإذا كان إيراثُ الكتاب سابقاً على تلاوته، فالمُضيُّ[1] على ظاهره، و«ثم» للتفاوت الرتبيّ، أو للتراخي في الإخبار، و«الذي أوحينا» إلخ اعتراضٌ لبيان كيفيَّة الإيراث؛ لأنَّه إذا صدَّقها بمطابقته لها في العقائد والأصول كان كأنَّه هي، وكأنَّه انتقل إليهم ممن سلف، وهو كما ترى.

وجُوِّز على هذا وما قبله أنْ يُراد بالكتاب الجنس، ولا يخفى أنَّ إرادةَ القرآن هو الظاهر.

وقيل: المراد بالمصطفين علماءُ الأمَّة من الصحابة ومَنْ بعدهم ممَّن يسيرُ بسيرتهم، وإيراثُهم القرآن جعلُهم فاهمين معناه، واقفين على حقائقه ودقائقه، أمناءَ على أسراره.

وروى الإماميَّةُ عن الصادق والباقر ﵉ أنَّهما قالا: هي لنا خاصَّةً، وإيَّانا عنى، أرادا أنَّ أهلَ البيت أو الأئمة منهم هم المصطفون الذين أورثوا الكتاب، واختار هذا الطبرسيُّ الإماميُّ، قال في تفسيره «مجمع البيان»: وهذا أقرب الأقوال؛ لأنَّهم أحقُّ الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء، وإيراث علم الأنبياء عليهم السلام[2].

وربما يستأنسُ له بقوله عليه الصلاة والسلام: «إني تاركٌ فيكم الثقلين؛ كتابَ الله تعالى، وعترتي، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[3].

وحملُهم على علماء الأمة أولى من هذا التخصيص، ويدخلُ فيهم علماءُ أهل

---

(١) في (م): فالمعنى، وهو تصحيف.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢٤٣.

(٣) سلف ٧/ ٣٢١ و٢١/ ٣٠٥.

البيت دخولاً أوَّلياً، ففي بيتهم نزلَ الكتاب، ولن يفترقا حتى يردا الحوض يومَ الحساب. وإذا كانت الإضافة في «عبادنا» للتشريف، واختصَّ «العباد» بمؤمني هذه الأمَّة، وكانت «من» للتبعيض، كان حملُ المصطفين على العلماء كالمُتَعَيِّن.

وعن الجبَّائيِّ أنَّهم الأنبياءُ عليهم السلام، اختارهم الله تعالى وحَبَاهم برسالته وكتبه، وعليه يكونُ تعريفُ «الكتاب» للجنس، والعطف على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ و«ثم» للتراخي في الإخبار؛ أخبرَ سبحانه أوَّلاً عمَّا أوتيَه نبيُّنا ﷺ، وهو متضمِّنٌ للإخبار بإيتائه عليه الصلاة والسلام الكتابَ على أكمل وجهٍ، ثمَّ أخبر سبحانه بتوريثِ إخوانه الأنبياء عليهم السلام وإيتائهم الكتب.

وممَّا يَرِدُ عليه أنَّ إيتاءَ الأنبياء عليهم السلام الكتبَ قد عُلِم قبلُ من قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾.

وعن أبي مسلم أنَّهم المصطفونَ المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وهو دون ما قبله.

وأيّاً ما كان، فالموصول مفعولٌ أول لـ «أورثنا»، و«الكتاب» مفعولٌ ثانٍ له، قُدِّمَ لشرفه والاعتناء به وعدم اللبس، و«من» للبيان أو للتبعيض.

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ الفاء للتفصيل، لا للتعليل كما قيل، وضمير الجمع على ما سمعتَ أوَّلاً في تفسير الموصول للموصول. والظالم لنفسه من قَصَّر في العمل بالكتاب، وأسرفَ على نفسه، وهو صادقٌ على من ظَلَم غيرَه؛ لأنَّه بذلك ظالمٌ لنفسه، والمشهور مقابلته بالظالم لغيره، واللام للتقوية.

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ يتردَّدُ بين العمل به ومخالفته، فيعمل تارةً، ويخالفُ أخرى، وأصلُ معنى الاقتصاد التوسُّط في الأمر.

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ﴾ متقدِّمٌ إلى ثواب الله تعالى وجنَّته[1] ﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: بسبب الخيرات، أي: الأعمال الصالحة. وقيل: سابقٌ على الظالم لنفسه والمقتصدِ في الدرجات بسبب الخيرات. وقيل: أي: محرزٌ الفضلَ بسببها.

---

(١) قوله: وجنته. ليس في الأصل.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتيسيره تعالى وتوفيقه عزَّ وجلَّ، وفيه تنبيهٌ على عِزَّةِ منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها، وفُسِّر بمن غلبت طاعتُه معاصيَه، وكَثُر عملُه بكتاب الله تعالى.

وما ذُكر في تفسير الثلاثة ممَّا يشير إليه كلام الحسن، فقد رُوي عنه أنَّه قال: الظالمُ من خَفَّت حسناتُه، والمقتصدُ من استوت، والسابق من رجحت.

ووراء ذلك أقوالٌ كثيرةٌ، فقال معاذ: الظالمُ لنفسه الذي ماتَ على كبيرةٍ لم يَتُب منها، والمقتصدُ من مات على صغيرةٍ ولم يصب كبيرةً لم يتب منها، والسابق من مات تائباً من كبيرةٍ أو صغيرة، أو لم يصب ذلك.

وقيل: الظالمُ لنفسه العاصي المسرف، والمقتصدُ مُتَّقي الكبائر، والسابقُ المتَّقي على الإطلاق.

وقيل: الأوَّلُ المقصِّر في العمل، والثاني العاملُ بالكتاب في أغلب الأوقات، ولم يَخْلُ عن تخليط، والثالث السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار.

وقيل: الأوَّلان كما ذكر، والثالث المداومُ على إقامة مواجب الكتاب علماً وعملاً وتعليماً.

وقيل: الأول مَن أسلم بعد الفتح، والثاني من أسلم قبله، والثالث من أسلم قبل الهجرة.

وقيل: هم من لا يبالي من أين ينال، ومَن قُوْتُه من الحلال، ومَن يكتفي من الدنيا بالبلاغ.

وقيل: من همُّه الدنيا، ومن همُّه العقبى، ومن همُّه المولى.

وقيل: طالبُ النجاة، وطالبُ الدرجات، وطالب المناجاة.

وقيل: تاركُ الزَّلَّة، وتارك الغفلَة، وتارك العلاقة.

وقيل: من شغلَه معاشُه عن معاده، ومن شُغْلُه بهما، ومن شغلَه معادُه عن معاشه.

وقيل: من يأتي بالفرائض خوفاً من النار، ومن يأتي بها خوفاً منها ورضًى واحتساباً، ومن يأتي بها رضًى واحتساباً فقط.

وقيل: الغافلُ عن الوقت والجماعة، والمحافظ على الوقت دون الجماعة، والمحافظ عليهما.

وقيل: من غلبت شهوتُه عقلَه، ومن تساويا، ومن غلبَ عقلُه شهوته.

وقيل: من لا ينهى عن المنكر ويأتيه، ومن ينهى عن المنكر ويأتيه، ومن يأمر بالمعروف ويأتيه.

وقيل: ذو الجور، وذو العدل، وذو الفضل.

وقيل: ساكنُ البادية، والحاضرة، والمجاهد.

وقيل: من كان ظاهره خيراً من باطنه، ومن استوى باطنه وظاهره، ومن باطنُه خيرٌ من ظاهره.

وقيل: التالي للقرآن غير العالم به ولا العامل بموجبه، والتالي العالمُ غيرُ العامل، والتالي العالم العامل.

وقيل: الجاهل، والمتعلِّم، والعالم.

وقيل: من خالفَ الأوامر وارتكبَ المناهي، ومن اجتهدَ في أداء التكاليف وإن لم يوفَّق لذلك، ومن لم يخالِف تكاليفَ الله تعالى.

ورَوى بعضُ الإماميَّة عن ميسر بن عبد العزيز عن جعفر الصادق رضي الله عنه: الظالمُ لنفسه منَّا مَنْ لا يعرفُ حقَّ الإمام، والمقتصدُ العارفُ بحقِّ الإمام، والسابق هو الإمام.

وعن زياد بن المنذر عن أبي جعفرٍ رضي الله عنه: الظالمُ لنفسه منَّا من عملَ صالحاً وآخرَ سيِّئاً، والمقتصدُ المتعبِّدُ المجتهدُ، والسابقُ بالخيرات عليٌّ والحسن والحسين رضي الله عنهم، ومن قُتِل من آل محمد شهيداً.

وقيل: هم الموحِّدُ بلسانه الذي تخالفُه جوارحُه، والموحِّدُ الذي يمنعُ جوارحه بالتكليف، والموحِّدُ الذي ينسيه التوحيدُ غيرَ التوحيد.

وقيل: من يدخلُ الجنَّة بالشفاعة، ومن يدخلُها بفضل الله تعالى، ومن يدخلها بغير حساب.

وقيل: من أوتي كتابَه من وراء ظهره، ومن أوتيَ كتابه بشماله، ومن أوتي كتابه بيمينه.

وقيل: الكافر مطلقاً، والفاسقُ، والمؤمنُ التقيُّ. وفي معناه ما جاءَ في رواية عن ابن عباس وقتادة وعكرمة: الظالمُ لنفسه أصحابُ المشأمة، والمقتصدُ أصحاب الميمنة، والسابق بالخيرات السابقون المقربون.

والظاهر أن هؤلاء ومن قال نحوَ قولهم يجعلون ضمير «منهم» للعباد، لا للموصول، ولا شكَّ أنَّ منهم الكافر وغيره. وكون العباد المضاف إلى الله تعالى مخصوصاً بالمؤمنين ليس بمطَّرد، وإنَّما يكون كذلك إذا قصد بالإضافة التشريف. والقولُ برجوع الضمير للموصول، والتزامُ كون الاصطفاء بحسب الفطرة = تعسُّفٌ كما لا يخفى.

وقيل في تفسير الثلاثة غير ما ذكر، وذكرَ في «التحرير» ثلاثةً وأربعين قولاً في ذلك، ومن تتبَّع التفاسيرَ وجدها أكثرَ من ذلك، لكن لا يجدُ في أكثرها كثيرَ تفاوت، والذي يعضدُه معظمُ الروايات والآثار أنَّ الأصناف الثلاثة من أهل الجنة، فلا ينبغي أنْ يُلتفتَ إلى تفسير الظالم بالكافر إلَّا بتأويل كافرِ النعمة، وإرادة العاصي منه.

أخرج الإمام أحمد والطيالسيُّ وعبدُ بن حميد وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم وابنُ مردويه والبيهقيُّ والترمذيُّ وحسَّنه عن أبي سعيد الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ إلى ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾: «هؤلاء كلُّهم بمنزلةٍ واحدةٍ، وكلُّهم في الجنَّة»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وكلهم» إلخ عطفٌ تفسيريٌّ.

---

(١) الدر المنثور ٥/٢٥١، وأحمد (١١٧٤٥)، والطيالسي (٢٣٥٠)، والطبري في تفسيره ١٩/٣٧٦، والبيهقي في البعث (٦١)، والترمذي في سننه (٣٢٢٥).

=

وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه[١] في «البعث» عن أسامة بن زيد أنَّه قال في الآية: قال رسول الله ﷺ: «كلُّهم من هذه الأمَّة، وكلُّهم في الجنة»[٢].

وأخرج ابنُ النجار عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سابقُنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»[٣].

وأخرج العقيليُّ وابن مردويه والبيهقيُّ عن عمر بن الخطاب مرفوعاً نحوه[٤].

وأخرج الإمامُ أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ والحاكم وابنُ مردويه والبيهقيُّ عن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فأمَّا الذين سبقوا فأولئك يدخلونَ الجنَّة بغير حساب، وأمَّا الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبونَ حساباً يسيراً، وأمَّا الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسونَ في طول المحشر، ثمَّ هم الذين يتلقَّاهم الله تعالى برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ

= قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ.
وفي إسناده مبهمان؛ رجلٌ من ثقيف عن رجل من كنانة، فهو ضعيف.

(١) كذا في الأصل و(م). والصواب ـ كما في الدر المنثور ٥/ ٢٥١، وعنه نقل المصنف ـ: البيهقي.

(٢) الطبراني في الكبير (٤١٠)، والبيهقي في البعث (٦٣) و(٦٤).

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، وهو عند العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٣، والواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٥، والبغوي في تفسيره ٣/ ٥٧١ من طريق الفضل بن عميرة عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر مرفوعاً. والفضل بن عميرة ضعيف. قال البغوي بعد ذكره: قال أبو قلابة: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجَّب منه. وأخرجه البيهقي في البعث (٦٥) من طريق ميمون بن سياه عن عمر ﷺ به. قال البيهقي: فيه إرسال بين ميمون بن سياه وبين عمر ﷺ.
وأخرجه سعيد بن منصور (٢٣٠٨) عن عمر موقوفاً. وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٩.

إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾» الآية [فاطر: ٣٤]. قال البيهقيُّ: إذا كثرت الروايات في حديثٍ ظهر أنَّ للحديث أصلاً(١).

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وفيما ذكر كفاية.

وقُدِّمَ الظالم لنفسه لكثرة الظالمين لأنفسهم، وعُقِّبَ بالمقتصد لقلَّة المقتصدين بالنسبة إليهم، وأُخِّر السابقُ؛ لأنَّ السابقين أقلُّ من القليل؛ قاله الزمخشريُّ(٢).

وحكى الطبرسيُّ أنَّ هذا الترتيبَ على مقامات الناس، فإنَّ أحوال العباد ثلاث: معصيةٌ، ثم توبةٌ، ثم قربةٌ، فإذا عصى العبد فهو ظالم، فإذا تاب فهو مقتصد، فإذا صحَّت توبتُه وكثرت مجاهدتُه فهو سابق(٣).

وقيل: قُدِّمَ الظالمُ لئلَّا ييأس من رحمة الله تعالى، وأُخِّر السابق لئلَّا يعجب بعمله، فتعيَّنَ توسيطُ المقتصد.

وقال قطب الدين: النكتةُ في تقديم الظالم أنَّه أقربُ الثلاثة إلى بداية حال العبد قبل اصطفائه بإيراث الكتاب، فإذا باشره الاصطفاء فمن العباد من يتأثَّر قليلاً وهو الظالم لنفسه، ومنهم من يتأثَّر وسطاً وهو المقتصد، ومنهم من يتأثَّر تأثُّراً تامًّا وهو السابق.

وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ الاصطفاء مشكَّكٌ تتفاوت مراتبه، وأوَّلها ما يكون للمؤمن الظالم لنفسه، وفوقه ما يكونُ للمقتصد، وفوق الفوق ما يكون للسابق بالخيرات، فجاء الترتيبُ كالترقِّي في المراتب.

وقيل: أُخِّر السابقُ لتعدُّد ما يتعلَّق به، فلو قُدِّم أو وسِّطَ لبَعُد في الجملة ما بين الأقسام المتعاطفة، ولمَّا كان الاقتصادُ كالنسبة بين الظلم والسبق اقتضى ذلك تقديمَ الظالم وتأخير المقتصد؛ ليكون المقتصدُ بين الظالم والسابق لفظاً، كما هو بينهما معنى.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥١، وأحمد (٢١٦٩٧) و(٢٧٥٠٥)، والطبري ١٩/ ٣٧٥، والحاكم ٢/ ٤٢٦، والبيهقي في البعث (٦٢). وهو ضعيف، وانظر تتمة الكلام عليه في مسند الإمام أحمد.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٩.

(٣) مجمع البيان ٢٢/ ٢٤٥.

وقد يقال: رتبت هذه الثلاثة هذا الترتيب ليوافق حالُهم في الذكر بالنسبة إلى ما وعدوا به من الجنات في قوله سبحانه: «جنات عدن» الآية حالَهم في الحشر عند تحقُّق الوعد، فأخّر السابق الداخل في الجنان أوَّلاً ليتَّصل ذكره بذكر الجنات الموعودِ بها، وذكرَ قبلَه المقتصد، وجعل السابق فاصلاً بينه وبين الجنات؛ لأنَّه إنَّما يدخلُها بعدَه، فيكون فاصلاً بينه وبينها في الدخول، وذكرَ قبلهما الظالم لنفسه؛ لأنَّه إنما يدخلُها ويتَّصل بها بعدَ دخولهما، فتأخير السابق في المعنى تقديم، وتقديمُ الظالم في المعنى تأخير.

ويحتملُ ذلك أوجهاً أخرى تظهر بالتأمُّل، فتأمَّل.

وقرأ أبو عمران الجونيّ، وعمر بن أبي شجاع، ويعقوب في رواية، والقزَّاز عن أبي عمرو: «سبَّاق» بصيغة المبالغة[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما تقدَّم مِن الإيراث والاصطفاء ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ من الله عزَّ وجلَّ، لا دخل للكسب فيه.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ مبتدأ خبره قولُه تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ويؤيِّده قراءة الجحدريِّ وهارون عن عاصم: «جناتِ» بالنصب على الاشتغال[2]، أي: يدخلون جنات عدن يدخلونَها، واحتمال جرِّه بدلاً من الخيرات بعيدٌ، وفيه الفصل بين البدل والمبدل منه بأجنبيٍّ، فلا يلتفتُ إليه.

وضمير الجمع للذين اصطفينا، أو للثلاثة.

وقال الزمخشريُّ[3]: «ذلك» إشارةٌ إلى السبق بالخيرات، و«جنات عدن» بدلٌ من «الفضل» الذي هو السبق، ولمَّا كان السبقُ بالخيرات سبباً لنيل الثواب جُعِلَ نفسَ الثواب؛ إقامةً للسبب مقام المسبَّب، ثمَّ أُبدِل منه. وضمير الجمع للسابق؛ لأنَّ القصدَ إلى الجنس.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٣، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٤ عن أبي عمران الجوني فقط.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٣ عن الجحدري فقط.
(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠٩.

فخَصَّ الوعدَ بالقِسْمِ الأخير؛ مراعاةً لمذهب الاعتزال، وهو على ما سمعت للأقسام الثلاثة، وذلك هو الأظهرُ في النظم الجليل؛ ليطابقه قوله تعالى بَعْدُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، وليناسبَ حديث التعظيم والاختصاص المُدْمَج في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾، وإلَّا فأيُّ تعظيمٍ في ذلك الذكر بعد أن لُزَّ أكثر المصطفين في قَرن الكافرين، وليناسبَ ذكرُ الغفور بعدُ حالَ الظالم والمقتصد، والشكور حالَ السابق، ولتعسُّف ما ذَكره من الإعراب وبعدِه عن الذوق، وكيف لا يكون الأظهرَ وقد فسَّره كذلك أفضلُ الرسل ومن أنزل عليه هذا الكتاب المبين، على ما مرَّ آنفاً، وإليه ذهبَ الكثيرُ من أصحابه الفخام ونجوم الهداية بين الأنام رضي الله عنهم، وعَدَّ منهم في «البحر»: عمر وعثمان وابن مسعود وأبا الدرداء وأبا سعيد وعائشة رضي الله عنهم[(١)].

وقد أخرج سعيد بن منصور، والبيهقيُّ في «البعث» عن البراء بن عازب أنَّه قال بعدَ أن قرأ الآية: أشهدُ على الله تعالى أنَّه يدخلهم الجنَّة جميعاً[(٢)].

وأخرج غيرُ واحدٍ عن كعب أنَّه قرأ الآيةَ إلى «لغوب»، فقال: دخلوها وربِّ الكعبة، وفي لفظ: كلهم في الجنَّة، ألا ترى على أثره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾[(٣)].

نعم إن أُريد بالظالم لنفسه الكافر يتعذَّرُ رجوعُ الضمير إلى ما ذُكر، ويتعيَّن رجوعه إلى السابق، أو[(٤)] إليه وإلى المقتصد؛ لأنَّ المرادَ بهما الجنس، لكن لا ينبغي أنْ يُرادَ بعد هاتيك الأخبار.

وقرأ زرُّ بن حُبَيش والزهريُّ: «جنةُ عدن» بالإفراد والرفع[(٥)].

---

(١) البحر ٧/ ٣١٤.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، وأخرجه البيهقي في البعث (٦٧).
(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي. وأخرجه البيهقي في البعث (٧٠).
(٤) في (م): و.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٣١٤، والقراءة في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠ عن زر بن حبيش فقط.

وقرأ أبو عمرو: «يُدْخَلونها» بالبناء للمفعول، ورويت عن ابن كثير[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «جنات»، أو حال مقدَّرة. وقيل: إنَّها لقرب الوقوع بعد الدخول تعدُّ مقارِنةً.

وقرئ: «يَحْلَون» بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام[(٢)]، مِن حَلِيَت المرأةُ، فهي حالِيَة: إذا لبست الحَلْيَ، ويقال: جِيْدٌ حَالٍ، إذا كان عليه الحَلْيُ.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع: سوار، على ما في «الإرشاد»[(٣)]، وفي «القاموس»: السوار ككتاب وغراب: القُلْبُ، كالأُسوار بالضمِّ، جمعه: أَسْوِرةٌ وأساوِرُ وأساوِرةٌ وسورٌ وسُؤُور[(٤)]. اهـ. وإطلاقُ الجمع على جمع الجمع كثيرٌ، فلا مخالفة، وسوارُ المرأة معرَّب، كما قال الراغب[(٥)]، وأصله: دسْتِواره.

و«من» للتبعيض، أي: يحلَّون بعضَ أساور، كأنَّه بعضٌ له امتياز وتفوُّقٌ على سائر الأبعاض.

وجُوِّزَ أن تكون للبيان؛ لما أنَّ ذِكر التحلية مما ينبئ عن الحَلْي المبهم.

وقيل: زائدةٌ، بناءً على ما يرى الأخفش من جواز زيادتها في الإثبات.

وقيل: نعتٌ لمفعولٍ محذوف لـ «يُحَلَّون»، وإنه بمعنى: يلبسون.

و«من» في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيانيَّةٌ.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على محلِّ «من أساور»، أي: ويحلَّون فيها لؤلؤاً.

أخرجَ الترمذيُّ والحاكم وصححه، والبيهقيُّ في «البعث» عن أبي سعيد

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤. وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٢٥٢. وقراءة ابن كثير المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٣.

(٤) القاموس (سور).

(٥) في المفردات (سور).

الخدريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ تلا الآية فقال: «إنَّ عليهم التيجان، إنَّ أدنى لؤلؤةٍ منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب»(١).

وقيل: عطف على المفعول المحذوف، أو منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يدلُّ عليه «يُحلَّون» أي: ويؤتون لؤلؤاً.

وقرأ جمعٌ من السبعة: «ولؤلؤٍ» بالجرِّ عطفاً على «ذهبٍ»(٢)، أي: يُحَلَّون فيها بعضَ أساور من مجموع ذهبٍ ولؤلؤ، بأنْ تُنظَم حبَّاتُ ذهبٍ مع حبَّاتِ لؤلؤ، ويُتَّخَذَ من ذلك سوارٌ كما هو معهودٌ اليوم في بلادنا، أو بأن يرصَّعَ الذهبُ باللؤلؤ، كما يرصَّع ببعضِ الأحجار.

وقيل: أي: من ذهبٍ في صفاء اللؤلؤ. وفيه ما فيه من الكدر.

ولعلَّ من يقول بأنَّه لا اشتراكَ بين ذهب الدنيا ولؤلئها وذهب الآخرة ولؤلئها إلّا بالاسم لا يَلتزمُ النظمَ ولا الترصيع، كما لا يخفى.

وقُرِئ: «لولؤاً» بتخفيف الهمزة الأولى(٣).

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي: إبريسمٌ محضٌ، كما في «مجمع البيان»(٤). وقال الراغب: ما رَقَّ من الثياب(٥).

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥٣، وسنن الترمذي (٢٥٦٢) - دون ذكر تلاوة الآية - من طريق رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين.
وأخرجه الحاكم ٢/ ٤٢٦-٤٢٧ من طريق عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث به، وأخرجه البيهقي في البعث (٣٣٠) من طريق الحاكم، وتعقب الذهبي الحاكم في تصحيحه بقوله: درَّاج صاحب عجائب.
وأخرجه الإمام أحمد (١١٧١٦) عن الحسن بن موسى الأشيب عن ابن لهيعة عن دراج به دون ذكر تلاوة الآية أيضاً. وضعف محققو المسند إسناده لضعف ابن لهيعة ودراج، وانظر تمام الكلام عليه ثمة.

(٢) هي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي من السبعة، وقرأ بها أيضاً يعقوب وخلف من العشرة. انظر التيسير ص ١٥٦، والنشر ٢/ ٣٢٦.

(٣) هي قراءة شعبة وأبي جعفر. انظر التيسير ص ١٥٦، والنشر ١/ ٣٩٠-٣٩١، ٣٩٤.

(٤) ٢٢/ ٢٤٥.

(٥) المفردات (حرر).

وتغيير الأسلوب، حيث لم يقل: ويلبسون فيها حريراً، قيل: للإيذان بأنَّ ثبوتَ اللباس لهم أمرٌ محقَّق غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنَّما المحتاج إلى البيان أنَّ لباسَهم ماذا، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنَّها ليست من اللوازم الضروريَّة، ولذا لا يلزم العدلُ بين الزوجات فيها، فجعل بيان تحليتهم مقصوداً[1] بالذات، ولعلَّ هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان حال اللباس.

وقيل: إنَّ ذلك للدلالة على أنَّ الحرير ثيابُهم المعتادةُ مع المحافظة على هيئة الفواصل. وليس بذاك.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: ويقولون، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقُّق: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ حزن تقلُّب القلب، وخوف العاقبة، على ما رويَ عن القاسم بن محمد.

وقال أبو الدرداء: حزن أهوالِ القيامة، وما يصيبُ من ظَلَم نفسَه هنالك.

وأخرج الحاكم وصحَّحه وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس: حزن النار[2].

وقال الضحاك: حزنَ الموت، يقولونَ ذلك إذا ذُبح الموت.

وقال مقاتل: حزن الانتقال، يقولون ذلك إذا استقرُّوا فيها.

وقال قتادة: حزن أنْ لا تُتَقَبَّلَ أعمالهم.

وقال الكلبيُّ: خوف الشيطان.

وقال سمرة بن جندب: حزن معيشة الدنيا، الخبز ونحوه.

وعن ابن عباس: حزن الآفات والأعراض.

وقيل: حزن كراء الدار.

---

(١) في (م): مقصوراً.

(٢) المستدرك ٢/٤٢٧، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٩/٣٧٧.

والأولى أنْ يُرَاد جنسُ الحزن المنتظِم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة، وكلُّ ما سمعتَ من باب التمثيل، وقد تقدَّم في الحديث: «إنَّ الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يقولون» أي: بعد أن يتلقَّاهم الله تعالى برحمته: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» إلخ[١]. فلا تغفل.

وقرئ: «الحُزْن» بضمِّ الحاء وسكون الزاي، ذكره جناح بن حبيش[٢].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين ﴿شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ للمطيعين.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنه قال في ذلك: غَفَرَ لنا العظيمَ من ذنوبنا، وشكر لنا القليلَ من أعمالنا[٣].

وفي «الكشاف»: ذِكْرُ الشكور دليلٌ على أنَّ القومَ كثيرو الحسنات[٤]. وكان عليه أن يقول: وذِكْرُ الغفور دليلٌ على أنهم كثيرو الفرطَات، فينطبقُ على الفرق، ولا ينفكُّ النظم، ولكن مَنَعَهُ المذهبُ.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: دار الإقامة التي لا انتقالَ عنها أبداً وهي الجنة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من إنعامه سبحانه وتفضُّله وكرمه، فإنَّ العملَ وإن كان سبباً لدخول الجنة في الجملة، لكن سببيَّته بفضل الله عزَّ وجلَّ أيضاً، إذ ليس هناك استحقاقٌ ذاتيٌّ، ومَن علم أنَّ العمل متناهٍ زائلٌ، وثوابَ الجنة دائمٌ لا يزول، لم يشكَّ في أنَّ الله تعالى ما أحلَّ من أحلَّ دارَ الإقامة إلَّا من محض فضله سبحانه.

وقال الزمخشريُّ: أي: من إعطائه[٥] تعالى وإفضاله، من قولهم: لفلانٍ فضولٌ على قومه وفواضل، وليس من الفضل الذي هو التفضُّلُ؛ لأنَّ الثوابَ بمنزلة الأجر المُستحَقِّ، والتفضُّل كالتبرع. وفيه من الاعتزال ما فيه.

---

(١) سلف ص٢٣٢-٢٣٣ من هذا الجزء.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٣١٠.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣١٠: عطائه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعبٌ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ كلالٌ وفتورٌ، وهو نتيجةُ النَّصَب، وضمُّه إليه وتكريرُ الفعل المنفيِّ للمبالغة في بيان انتفاء كلٍّ منهما، كذا قال جمعٌ من الأجلَّة.

وقال بعضهم: النَّصَبُ: التعبُ الجسمانيُّ، واللُّغوب: التعبُ النفسانيُّ.

وأخرج ابن جرير عن قتادة أنَّه فسَّر النَّصَبَ بالوجع[1]، والكلام من باب:

لا ترى الضبَّ بها ينجحر[2]

والجملةُ حالٌ من أحد مفعولي «أحلَّ».

وقرأ عليٌّ ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ والسلميُّ: «لَغُوب» بفتح اللام[3].

قال الفرَّاء: هو ما يُلْغَب[4] به، كالفَطور والسَّحور[5].

وجاز أن يكونَ صفةً لمصدرٍ محذوف، أي: لا يمسُّنا فيها لُغوبٌ لَغوبٌ، نحو: شعرٌ شاعرٌ، كأنَّه وصف اللُّغوب بأنه قد لَغِبَ، أي: أَعْيَى وتَعِبَ.

وقال صاحب «اللوامح»: يجوز أن يكون مصدراً كالقَبول، وإن شئتَ جعلتَه صفةً لمضمرٍ، أي: أمرٌ لَغوب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا يُحكَم عليهم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ليستريحوا بذلك من عذابها بالكليَّة. وإنما فسِّر «لا يُقْضَى» بما ذُكر دون: لا يموتون؛ لئلَّا يلغو: «فيموتوا»، ويحتاجَ إلى تأويله بـ: يستريحوا.

ونصب «يموتوا» في جواب النفي بإضمار «أن»، والمراد انتفاءُ المسبَّب لانتفاء السبب، أي: ما يكون حكمٌ بالموت، فكيف يكون الموت؟!

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٨١.

(٢) سلف ٤/ ٨٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٥. وزاد ابن خالويه نسبتها لسعيد بن جبير.

(٤) في (م): يغب.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٠.

وقرأ عيسى والحسن: «فيموتون» بالنون[1] عطفاً ـ كما قال أبو عثمان المازنيّ ـ على «يُقضى» كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] أي: لا يُقضَى عليهم ولا يموتون.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ المعهود لهم، بل كلَّما خَبَتْ زِيْدَ إسعارُها، والمراد دوامُ العذاب، فلا ينافي تعذيبَهم بالزمهرير ونحوه.

ونائب فاعل «يُخَفَّف»: «عنهم»، و«من عذابها» في موضع نصب، ويجوز العكس. وجُوِّز أن تكون «من» زائدة، فيتعيَّن رفعُ مجرورها على أنَّه النائب عن الفاعل، على ما فال أبو البقاء[2].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ولا يُخفَّفْ» بإسكان الفاء، شبَّه المنفصل بالمتصل[3]، كقوله:

فـالـيـوم أشـربْ غـيـرَ مُـسـتَـحْـقِـبٍ[4]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾ مبالغٍ في الكفر أو الكفران، لا جزاء أخفّ وأدنى منه.

وقرأ أبو عمرو وأبو حاتم عن نافع: «يُجْزَى» بالياء مبنيّاً للمفعول، و«كلُّ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[5].

وقرئ: «نُجازي» بنونٍ مضمومةٍ وألف بعد الجيم[6].

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٢) في الإملاء ٢/ ٢٠٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٢، وسلف ١١/ ٤٢١.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣١٦، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.

(٦) لم أقف عليها. وذكر الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٠، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٨، وأبو السعود في تفسيره ٧/ ١٥٤ أنه قرئ: يجازى.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ افتعالٌ من الصراخ، وهو شدَّة الصياح، والأصل: يصترخون، فأبدلت التاءُ طاءً، ويستعملُ كثيراً في الاستغاثة؛ لأنَّ المستغيثَ يصيح غالباً، وبه فسَّره هنا قتادة، فقال: يستغيثون فيها.

واستغاثتهم بالله عزَّ وجلَّ، بدليل ما بعده. وقيل: ببعضهم لحيرتهم. وليس بذاك.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ بإضمار القول، أي: ويقولون، بالعطف، أو: يقولون، بدونه على أنَّه تفسيرٌ لما قبله، أو: قائلين، على أنَّه حالٌ من ضميرهم.

وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسُّر على ما عملوه من غير الصالح، مع الاعتراف به، والإشعارِ بأنَّ استخراجهم لتلافيه، فهو وصفٌ مؤكِّد، ولأنَّهم كانوا يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، فكأنَّهم قالوا: نعمل صالحاً غير الذي كنَّا نحسبُه صالحاً فنعمله، فالوصف مقيّد.

وذكر أبو البقاء أنَّ «صالحاً» و«غير الذي» يجوزُ أن يكونا صفتين لمصدرٍ محذوف، أو لمفعولٍ محذوف، وأن يكون «صالحاً» نعتاً لمصدر، و«غير الذي» مفعول «نعمل»[(١)].

وأيًّاما كان، فالمراد: أخرِجنا من النار، ورُدَّنا إلى الدنيا نعمل صالحاً، وكأنَّهم أرادوا بالعمل الصالح التوحيد، وامتثالَ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، والانقيادَ له.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «نعمل صالحاً»: نقل: لا إله إلا الله.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جوابٌ من جهته تعالى وتوبيخٌ لهم في الآخرة حين يقولون: «ربنا» إلخ، فهو بتقدير: فنقول لهم، أو: فيقال لهم: «أوَ لم نُعمِّرْكم» إلخ. وفي بعض الآثار أنَّهم يجابون بذلك بعد مقدار الدنيا.

---

(١) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢٢١-٢٢٢.

والهمزةُ للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، و«ما» موصولةٌ، أو موصوفةٌ، أي: ألم نمهلكم ونعمِّركم الذي ـ أي: العمرَ الذي ـ أو عمراً يتذكَّر فيه من تذكَّر، أي: يتمكَّنُ فيه من أراد التذكُّر وتحقَّقت منه تلك الإرادة من التذكُّر والتفكُّر.

وقال أبو حيان: «ما» مصدريَّةٌ ظرفيَّةٌ، أي: أَلَم نُعمِّركم في مدَّة تذكُّر(١).

وتُعقِّبَ بأنَّ ضمير «فيه» يأباه؛ لأنَّها لا يعود عليها ضميرٌ إلا على نظر الأخفش، فإنَّه يرى اسميَّتها، وهو ضعيف، ولعلَّه يجعلُ الضمير للعمر المفهوم من «نعمر»(٢). وفيه بعد.

وجَعلُ «ما» نافيةً لا يصحُّ ـ كما قال ابن الحاجب ـ لفظاً ومعنى(٣).

وهذا العمر على ما رُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه(٤)، وأخرجه جماعةٌ ـ وصحَّحه الحاكم ـ عن ابن عباس(٥) ستُّون سنةً.

وقد أخرج الإمام أحمد والبخاريُّ والنسائيُّ وغيرهم عن سهل بن سعد(٦) قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذرَ الله تعالى إلى امرئٍ أخّر عمره حتى بلغ ستِّين سنة».

وقيل: هو خمسون سنة.

وفي روايةٍ عن ابن عباس أنَّه ستٌّ وأربعونَ سنة.

---

(١) البحر ٧/٣١٦.

(٢) في الأصل: يعمر.

(٣) أمالي ابن الحاجب ١/٢٠٧.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/٣٨٦.

(٥) المستدرك ٢/٤٢٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٨٥.

(٦) كذا ذكر المصنف تبعاً للسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٥٤، ولعله سبق قلم، فالحديث مرويٌّ عن أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، والبخاري (٦٤١٩)، والنسائي في الكبرى (١١٨٢٢).
أما حديث سهل بن سعد فأورده السيوطي في الدر المنثور إثر الحديث السابق، وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٣٣)، والحاكم في المستدرك ٢/٤٢٨، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٢٣). وعند الحاكم: سبعين سنة. بدل: ستين.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن أنَّه أربعون سنة[١].

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه سنُّ البلوغ.

وقيل: سبع عشرة سنة.

وعن قتادة: ثمان عشرة سنة.

وعن عمر بن عبد العزيز: عشرون سنة.

وعن مجاهد: ما بين العشرين إلى الستين.

وقرأ الأعمش: «ما يذَّكَّر فيه من اذَّكَّر» بالإدغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدرج[٢].

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عطفٌ على معنى الجملة الاستفهامية، فكأنَّه قيل: عمَّرناكم وجاءكم النذير، فليس من عطف الخبر على الإنشاء، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٢] وجُوِّزَ أن يكون عطفاً على «نعمِّركم»، ودخول الهمزة عليهما، فلا تغفل.

والمراد بـ: «النذير» ـ على ما روي عن السُّدِّيِّ وابن زيد ـ رسولُ الله ﷺ.

وقيل: ما معه من القرآن.

وقال أبو حيان: المراد جنسُ النذير، وهم الأنبياء عليهم السلام، فكلُّ نبيٍّ نذيرُ أمَّته، ويؤيِّده أنَّه قرئ: «النذُر» جمعاً[٣].

وعن ابن عباس وعكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسين بن الفضل والفرَّاء[٤] والطبريِّ[٥]: هو الشيب.

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٥.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤١، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٦، والقراءة أيضاً في الكشاف ٣/ ٣١١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٠.
(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٧٠.
(٥) في تفسيره ١٩/ ٣٨٧.

وفي الأثر: ما من شعرةٍ تبيضُّ إلَّا قالت لأختها: استعدِّي فقد قرب الموت.

ومن هنا قيل:

رأيتُ الشيبَ من نُذُرِ المنايا ... لصاحبه وحسبُك من نذير[1]

وقائلةٍ تخضَّب يا حبيبي ... وسوِّد شعرَ شيبك بالعبير

فقلتُ لها المشيبُ نذيرُ عمري ... ولستُ مسوِّداً وجهَ النذير[2]

وقيل: الحمَّى. وقيل: موت الأهل والأقارب. وقيل: كمالُ العقل.

والاقتصارُ على النذير؛ لأنَّه الذي يقتضيه المقام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلَها من التعمير ومجيء النذير، وفي قوله سبحانه: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ للتعليل.

والمراد بالظلم هنا الكفر، قيل: كان الظاهر: فما لكم، لكن عَدَل إلى المُظْهَر لتقريعهم، والمراد استمرارُ نفي أن يكون لهم نصيرٌ يدفعُ عنهم العذاب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كل غيبٍ فيهما، أي: لا يخفى عليه سبحانه خافيةٌ فيهما، فلا تخفى عليه جلَّ شأنُه أحوالُهم التي اقتضت الحكمةُ أن يعاملوا بها هذه المعاملة، ولا يُخْرَجوا من النار.

وقرأ جناح بن حبيش: «عالمٌ» بالتنوين «غيبَ» بالنصب على المفعوليَّة لـ «عالم»[3].

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ قيل: إنَّه تعليلٌ لما قبله؛ لأنَّه تعالى إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى ما يكون، كان عزَّ وجلَّ أعلمَ بغيرها. وفيه نوع خفاء.

---

(١) أورده الدينوري في المجالسة ٤/ ٢١١، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٩١ دون نسبة.

(٢) ذكر هذين البيتين ابن قتيبة في عيون الأخبار ٤/ ٥١، والمبرد في الكامل ٢/ ٧٠٣، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٥١. ونسبه المبرد للعتبي. وفي رواية البيت الأول منهما اختلاف بين المصادر.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

وقال الإمام: إنَّ قوله تعالى: «إنَّ الله» إلخ تقريرٌ لدوامهم في العذاب مع أنَّهم ما كفروا إلَّا أيَّاماً معدودةً، فكأنَّ سائلاً يسأل عن وجه ذلك، فقيل: إنَّ الله تعالى لا يخفى عليه غيبُ السماوات والأرض، فلا يخفى عليه ما في الصدور، فكان يعلمُ سبحانه من الكافر أنَّ الكفرَ قد تمكَّن في قلبه بحيثُ لو دام إلى الأبد لما أطاع الله تعالى ولا عَبَدَه[1]. انتهى.

وظاهره أنَّ الجملةَ الأولى تعليلٌ للثانية على عكس ما قيل.

ويمكن أن يقال: إنَّ قوله تعالى: (فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) متضمِّنٌ نفيَ أنْ يكون لهم نصيرٌ على سبيل الاستمرار، ومستدعٍ خلودَهم في العذاب، فكان مظنَّةَ أن يقال: كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار، والعادةُ في الشاهد قاضيةٌ بوجود نصيرٍ لمن تطولُ أيَّام عذابه؟ فأجيبَ بـ «إنَّ الله عالمُ غيب السماوات والأرض» على معنى أنَّه تعالى محيطٌ بالأشياء علماً، فلو كان لهم نصيرٌ في وقتٍ من الأوقات لعلِمَه، ولمَا نفى ذلك على سبيل الاستمرار. وكذا مظنَّة أن يُقَال: كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظَلموا في أيام معدودة؟ فأجيبَ بـ «إنه عليمٌ بذات الصدور» على معنى أنَّه تعالى يعلمُ ما انطوت عليه ضمائرُهم، فيعلم أنَّهم صمَّموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد، فكلٌّ من الجملتين مستأنفٌ استئنافاً بيانيّاً، فتأمل.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملقًى إليكم مقاليدُ التصرُّف والانتفاع بما فيها، أو: جعلَكم خلفاء ممَّن قبلَكم من الأمم، وأورثَكم ما بأيديهم[2] من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة، أو: جعلكم بدلَ من كان قبلكم من الأمم الذين كذَّبوا الرسل فهلكوا، فلم تتَّعظوا بحالهم وما حلَّ بهم من الهلاك.

والخطاب ـ قيل ـ عامٌّ، واستظهره في «البحر»[3]. وقيل: لأهل مكَّة.

والخلائف جمع: خليفة، وقد اطَّرد جمع فعيلة على فعائل، وأما الخلفاء

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٣٠.

(٢) في (م): بأيديكم.

(٣) ٧/ ٣١٧.

فجمع خليف، ككريم وكرماء، وجَوَّزَ الواحديُّ كونه جمع خليفة أيضاً. وهو خلاف المشهور.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم مثلَ هذه النعمة السنيَّة وغمطَها، أو: فمن استمرَّ على الكفر وتركِ الإيمان، بعد أن لُطِف به وجُعِل له ما ينبِّهه على ما يترتَّب على ذلك ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالُ كفره وجزاؤه، لا على غيره.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أشدّ الاحتقار والبغض والغضب. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ في الآخرة. وجملة «ولا يزيد» إلخ بيانٌ وتفسيرٌ لقوله تعالى: «فعليه كفره»، ولزيادة تفصيله نزِّلَ منزلةَ المغاير له، ولولا ذلك لفصل عنه، والتكرير لزيادة التقرير، والتنبيهِ على أنَّ اقتضاءَ الكفر لكلِّ واحدٍ واحد من الأمرين الأمرَّين المقتِ والخسارة مستقلٌّ باقتضاء قبحه ووجوبِ التجنُّب عنه، بمعنى أنَّه لو لم يكن الكفر مستوجباً لشيءٍ سوى مَقْتِ الله تعالى لكفى ذلك في قبحه، وكذا لو لم يستوجب شيئاً سوى الخسار لكفى.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: آلهتكم، والإضافةُ إليهم لأدنى ملابسة، حيث إنَّهم هم الذين جعلوهم شركاء لِلّه تعالى، واعتقدوهم كذلك، من غير أنْ يكون له أصلٌ ما أصلاً.

وقيل: الإضافةُ حقيقيَّةٌ من حيث إنَّهم جعلوهم شركاءَ لأنفسهم فيما يملكونه، أو جعلهم الله تعالى شركاء لهم في النار، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] والصفةُ عليهما مقيِّدةٌ لا مؤكِّدة، وسياقُ النظم الكريم وسباقه ظاهران فيما تقدَّم.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل اشتمال من «أرأيتم» لأنَّه بمعنى أخبروني، كأنَّه قيل: أخبروني عن شركائكم، أروني أيَّ جزءٍ خلقوا من الأرض حتى يستحقُّوا الإلهيَّة والشركة. وجُوِّزَ أنْ يكونَ بدلَ كلّ.

وقال أبو حيان: لا تجوز البدليَّة؛ لأنَّه إذا أُبدِل ممَّا دخلَ عليه الاستفهام، فلا بدَّ من دخول الأداة على البدل، وأيضاً إبدالُ الجملة لم يُعهَد في لسانهم، ثمَّ

البدلُ على نيَّة تكرار العامل، ولا يتأتَّى ذلك هاهنا؛ لأنَّه لا عامل لـ «أرأيتم». ثم قال: والذي أذهبُ إليه أنَّ «أرأيتم» بمعنى أخبروني، وهي تطلب مفعولين؛ أحدُهما منصوبٌ، والآخرُ مشتملٌ على الاستفهام، كقول العرب: أرأيتَ زيداً ما صنع، فالأول هنا «شركاءكم»، والثاني «ماذا خلقوا»، و«أروني» جملةٌ اعتراضيَّةٌ، فيها تأكيدٌ للكلام وتسديد، ويحتملُ أنْ يكون ذلك أيضاً من باب الإعمال؛ لأنَّه توارَدَ على «ماذا خلقوا»: «أرأيتم»، و«أروني»؛ لأن «أروني» قد تُعَلَّق عن مفعولها الثاني كما عُلِّقت رأى التي لم تدخل عليها همزة النقل عن مفعولها في قولهم: أمَا ترى أيُّ برقٍ هاهنا، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين[١]. انتهى.

وما ذكره احتمالٌ في الآية الكريمة، كما أنَّ ما ذُكر أوَّلاً احتمال، وما قاله في ردِّه ليس بشيءٍ؛ أمَّا الأوَّل فلأنَّ لزومَ دخول الأداة على البدل فيما إذا كان الاستفهامُ باقٍ على معناه، أمَّا إذا نُسخ عنه كما هنا فليس ذلك بلازم، وأمَّا الثاني فلأنَّ أهل العربية والمعاني نصُّوا على خلافه، وقد ورد في كلام العرب كقوله:

أقول له ارحل لا تقيمنَّ عندنا وإلَّا فكن في السرِّ والجهرِ مسلما[٢]

وأمَّا الثالث فلأنَّ كونَ البدل على نيَّة تكرار العامل إنَّما هو - كما نقل الخفاجيُّ عنهم[٣] - في بدل المفردات.

وليس لك أن تقول: العامل هنا موجودٌ، وهو «قل»؛ لأنَّ العبرةَ بالمقول، ولا عامل فيه إذ يقال، وهو ظاهر.

وجُوِّز أنْ لا يكون «أرأيتم» بمعنى أخبروني، بل المراد حقيقةُ الاستفهام عن الرؤية، و«أروني» أمر تعجيزٍ للتبيين، أي: أعَلِمْتُم هذه التي تَدْعونها ما هي، وعلى

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٧.

(٢) سلف الشطر الأول ١٠/ ٤٥٢.

(٣) في حاشيته ٧/ ٢٢٩.

ما هي عليه من العجز؟! أو تتوهمون فيها قدرةً؟! فإن كنتم تعلمونَها عاجزةً، فكيف تعبدونها؟ أو كنتم توهَّمتم فيها قدرةً، فأروني أثرَها؟! وما تقدَّم أظهر.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: بل ألهم شركةٌ مع الله عزَّ وجلَّ في خلق السماوات حتى يستحقُّوا ما زعمتم فيهم.

وقال بعضهم: الأَوْلى أن لا يقدَّر مضافٌ، على أنَّ المعنى: أم لهم شركةٌ معه سبحانه في السماوات خلقاً وإبقاءً وتصرُّفاً؛ لأنَّ المقصودَ نفي آيات الإلهية عن الشركاء، وليست محصورةً في الخلق. والتقديرُ أوفقُ بما قبله.

والكلام ـ قيل ـ من باب التدرُّج من الاستقلال إلى الشركة، ثمَّ منها إلى حُجَّةٍ وبيِّنةٍ مكتوبةٍ بالشركة، كأنَّه قيل: أخبروني عن الذين تَدعون من دون الله، هل استبدُّوا بخلق شيءٍ من الأرض حتى يكونوا معبودين مثلَ الله تعالى، بل ألهم شركةٌ معه سبحانه في خلق السماوات ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أي: بل آتيناهم[1] كتاباً ينطقُ بأنَّا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: حُجَّةٍ ظاهرةٍ من ذلك الكتاب بأنَّ لهم شركةً معنا.

وقال في «الكشف»: الظاهرُ أنَّ الكلام مبنيٌّ على الترقِّي في إثبات الشركة؛ لأنَّ الاستبدادَ بخلق جزءٍ من الأرض شركةٌ ما معه عزَّ وجلَّ، والاشتراكُ معه سبحانه في خلق السماوات أدلُّ على إثباتها، ثم إيتاءُ كتابٍ منه تعالى على أنَّهم شركاؤه أدلُّ وأدل.

وقيل: «هم» في «آتيناهم» للمشركين، وكذا في «فهم»، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥] إلخ، ففي الكلام التفاتٌ من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة؛ إعراضاً عن المشركين، وتنزيلاً لهم منزلة الغُيَّب. والمعنى: إنَّ عبادة هؤلاء إمَّا بالعقل، ولا عقل يحكمُ بصحةِ عبادةِ مَن لا يخلق جزءاً ما من الأرض ولا له[2] شركٌ في السماء، وإمَّا بالنقل، ولم نؤتِ المشركينَ كتاباً فيه الأمرُ بعبادة هؤلاء. وفيه تفكيكٌ للضمائر.

---

(١) في (م): آتيناهم، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

(٢) في (م): دلالة. وهو تصحيف، وانظر البحر المحيط ٧/ ٣١٨.

وقال بعضهم: ضمير «آتيناهم» للشركاء كالضمائر السابقة، وضمير «فهم على بينة» للمشركين، و«أم» منقطعةٌ للإضراب عن الكلام السابق، وزُعِم أنْ لا التفاتَ حينئذٍ ولا تفكيك، فتأمل.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر: «على بيِّناتٍ» بالجمع[(١)]، فيكون إيماءً إلى أنَّ الشركَ خطيرٌ لا بدَّ فيه من تعاضد الدلائل، وهو ضربٌ من التهكُّم.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ لمَّا نَفى سبحانه ما نَفى من الحُجج في ذلك، أضربَ عزَّ وجلَّ عنه بذكر ما حملَهم على الشرك، وهو تقريرُ الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنَّهم شفعاءُ عند الله تعالى، يشفعون لهم بالتقرُّب إليهم.

والآية عند الكثير في عبدةِ الأصنام، وحكمها عامٌّ. وقيل: في عبدة غير الله عزَّ وجلَّ؛ صنماً كان أو مَلَكاً أو غيرهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لغاية قبح الشرك وهولِه، أي: إنَّ الله تعالى يحفظُ السماوات والأرضَ كراهة زوالهما، أو لئلَّا تزولا وتضمحلَّا، فإنَّ الممكن كما يحتاجُ إلى الواجب سبحانه حالَ إيجاده، يحتاج إليه حالَ بقائه.

وقال الزجاج: «يمسك» بمعنى: يمنع[(٢)]، و«أن تزولا» مفعولُه على الحذف والإيصال؛ لأنَّه يتعدَّى بـ «من»، أي: يمنعهما من أن تزولا. وفي «البحر»: يجوزُ أنْ يكون «أن تزولا» بدلَ اشتمال من «السماوات والأرض»، أي: يمنع سبحانه زوالَ السماوات والأرض[(٣)].

وفَسَّر بعضُهم الزوال بالانتقال عن المكان، أي: إنَّ الله تعالى يمنعُ السماوات من أن تنتقلَ عن مكانها فترتفع أو تنخفض، ويمنعُ الأرض أيضاً من أن تنتقلَ كذلك. وفي أثرٍ أخرجه عبد بن حميد وجماعةٌ عن ابن عباس ما يقتضيه[(٤)].

---

(١) وهي قراءة الكسائي وأبي جعفر أيضاً. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٨.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٥٥.

وقيل: زوالهُما دورانهُما، فهما ساكنتان، والدائرةُ بالنجوم أفلاكُها، وهي غير السماوات، فقد أخرج سعيدُ بن منصور وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد عن شقيق قال: قيل لابن مسعود: إنَّ كعباً يقول: إنَّ السماءَ تدورُ في قطبة مثل قطبة الرَّحى في عمودٍ على منكب مَلَك، فقال: كذب كعب، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، وكفى بها زوالاً أنْ تدور[1].

والمنصورُ عند السلف أنَّ السماوات لا تدور، وأنَّها غيرُ الأفلاك، وكثيرٌ من الإسلاميين ذهبوا إلى أنَّها تدورُ، وأنَّها ليست غيرَ الأفلاك، وأمَّا الأرضُ فلا خلافَ بين المسلمين في سكونها، والفلاسفةُ مختلفون، والمعظم على السكون، ومنهم من ذهب إلى أنَّها متحرِّكةٌ، وأنَّ الطلوع والغروب بحركتِها، وردّ ذلك في موضعه.

والأولَى في تفسير الآية ما سمعتَ أوَّلاً، وكذا كونها مسوقة لما ذكرنا.

وقيل: إنَّه تعالى لمَّا بيَّن فسادَ أمر الشركاء، ووقف على الحجَّة في بطلانها، عقَّب بذكر عظمته عزَّ وجلَّ وقدرتِه سبحانه؛ ليتبيَّن الشيءُ بضدِّه، وتتأكَّدَ حقارةُ الأصنام بذكر عظمة الله تعالى.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: إن أشرفتَا على الزوال، على سبيل الفرض والتقدير، ويؤيِّده قراءةُ ابن أبي عبلة: «ولو زالتا»[2].

وقيل: إنَّ ذلك إشارةٌ إلى ما يقعُ يومَ القيامة من طيِّ السماوات ونسف الجبال.

﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: من بعدِ إمساكِه تعالى، أو من بعدِ الزوال. والجملة جوابُ القَسَم المقدَّر قبل لام التوطئة في «لئن»، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة جواب القَسَم عليه، و«أمسك» بمعنى يمسك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] و«من» الأولى[3] مزيدةٌ لتأكيد العموم، والثانية للابتداء.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥٥. وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٩١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٨.

(٣) في (م): الأول.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ فلذا حَلُم على المشركين، وغَفَر لمن تاب منهم، مع عظم جرمهم المقتضي لتعجيل العقوبة وعدم إمساك السماوات والأرض وتخريب العالم الذي هم فيه، فلا يتوهم أنَّ المقام يقتضي ذكر القدرة لا الحلم والمغفرة.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ الضمائر لقريش، وذلك أنَّهم بلغَهم قبلَ مبعثِ النبيِّ ﷺ أنَّ طائفةً من أهل الكتاب كذَّبوا رسلَهم، فقالوا: لعنَ الله تعالى اليهود والنصارى أتتهم الرسلُ فكذَّبُوهم، فواللهِ لئن جاءنا رسولٌ لنكونَنَّ أهدى من إحدى الأمم، فكان منهم بعدُ ما كان، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

و«ولئن جاءهم» جاء على المعنى، وإلَّا فهم قالوا: «جاءنا»، وكذا «ليكونُنَّ».

و«إحدى» بمعنى: واحدة، والظاهر أنَّها عامَّةٌ وإن كانت نكرةً في الإثبات؛ لاقتضاء المقام العموم.

وتعريف «الأمم» للعهد، والمراد: الأمم الذين كذَّبوا رسلهم. أي: لئن جاءنا نذيرٌ لنكونَنَّ أهدى من كلِّ واحدةٍ من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم، فنؤمن جميعاً، ولا يكذب أحدٌ منَّا. أو المعنى: لنكونَنَّ أهدى من أمَّةٍ يقال فيها: إحدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها من الأمم، كما يقال: هو واحدُ القوم، وواحدُ عصره، وكما قالوا: هو أحد الأحدين، وهي إحدى الإِحَد، يريدون التفضيلَ في الدهاء[2] والعقل، قال الشاعر:

حتى استثاروا[3] بيَ إحدى الإِحَدِ ... ليثاً هِزَبْراً ذا سلاحٍ معتدِ[4]

وقد نصَّ ابنُ مالك في «التسهيل» على أنَّه قد يُقال لِمَا يستعظم ممَّا لا نظير له هو إحدى الإِحَد[5]. لكن قال الدمامينيُّ في «شرحه»: إنَّما ثبت استعمالُه في إحدى

(١) أورده السيوطي في لباب النقول ص ١٨١، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) في (م): الدعاء.
(٣) في (م): استشاروا.
(٤) هو للمرَّار بن سعيد، كما في الأغاني ١٠/ ٣١٧، والخزانة ٧/ ٣٥٢.
(٥) التسهيل ص ١١٨.

ونحوه المضافِ إلى جمعٍ مأخوذٍ من لفظه، كإحدى الإِحَد، وأَحَد الأَحَدين، أو المضاف إلى وصفٍ، كأحد العلماء وإحدى الكبر، أمَّا في المضاف إلى أسماء الأجناس كالأمم، فيحتاج إلى نقل.

وبُحِثَ فيه بأنَّه قد ثبتَ استعمال إحدى في الاستعظام من دون إضافةٍ أصلاً، فإنهم يقولون للداهية العظيمة: هي إحدى من سبع، أي: إحدى ليالي عادٍ في الشدَّة، وشاع: واحدُ قومه، وأوحدهم، وواحد[1] أمّه، ولم يظهر فارقٌ بين المضاف إلى الجمع المأخوذِ من اللفظ والمضاف إلى الوصف وبين المضاف إلى أسماء الأجناس، ولا أظنُّ أنَّ مثل ذلك يحتاجُ إلى نقلٍ، فليتدبر.

وقال صاحب «الكشف»: إنَّ دلالة «إحدى الأمم» على التفضيل ليست بواضحة، بخلاف: واحد القوم ونحوه، ثمَّ وجهها أنَّه على أسلوب:

أو يرتبط بعض النفوس حمامُها[2]

يعني أنَّ البعضَ المبهمَ قد يُقصَدُ به التعظيم كالتنكير، فإحدى مثلُه.

وفيه أنَّه متى ثبتَ استعمالُه للاستعظام كانت دلالته على التفضيل في غاية الوضوح.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وأيُّ نذيرٍ، وهو أشرفُ الرسل محمدٌ ﷺ، كما روي عن ابن عباس وقتادة، وهو الظاهر.

وعن مقاتل: هو انشقاق القمر، وهو أخفى من السُّها[3]، والمقام عنه يأبى.

﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي: النذير، أو مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ تباعُداً عن الحقِّ وهرباً منه. وإسنادُ الزيادة إلى ذلك مجازٌ؛ لأنَّه هو السببُ لها.

والجملةُ جوابُ «لمّا»، واستدلَّ بالآية على حرفيَّتها؛ لمكان النفي المانع عن عمل ما بعده فيها. وفيه بحث.

---

(١) في (م): وأوحد.

(٢) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص٣١٣، وسلف ٧/ ٢٣٩.

(٣) السها: كوكبٌ خفيٌّ يمتحن الناس به أبصارهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من «نفوراً». وقال أبو حيان: الظاهر أنَّه مفعول من أجله، ونَقَلَ الأوَّلَ عن الأخفش[1].

وقيل: هو حال، أي: مستكبرين.

﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ هو الخداعُ الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيدُ له، وقال قتادة: هو الشرك. وروي ذلك عن ابن جريج. وهو عطف على «استكباراً»، وأصل التركيب: وأنْ مكروا السيِّئَ، على أن «السيِّئ» صفةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ، أي: المكر السيئ[2]، ثم أقيم المصدرُ مقام «أن» والفعل، وأضيف إلى ما كان صفةً.

وجُوِّزَ أنْ يكون عطفاً على «نفوراً».

وقرأ الأعمش وحمزة: «السيئْ» بإسكان الهمزة في الوصل[3]؛ إجراءً له مجرى الوقف، أو لتوالي الحركات وإجراء المنفصل مجرى المتصل.

وزعم الزجَّاج[4] أن هذه القراءة لحن؛ لما فيها من حذف الإعراب كما قال أبو جعفر[5].

وزعم محمد بن يزيد أنَّ هذا الحذفَ لا يجوز في نثرٍ ولا شعر؛ لأنَّ حركات الإعراب دخلت للفرق بين المعاني.

وقد أعظمَ بعض النحويين أنْ يكون الأعمشُ قرأ بها، وقال: إنَّما كان يقفُ على هذه الكلمة، فغلطَ من أدَّى عنه، والدليل على هذا أنَّها تمام الكلام، ولذا لم يقرأ في نظيرها كذلك مع أنَّ الحركة فيه أثقل؛ لأنَّها ضمَّةٌ بين كسرتين.

والحقُّ أنَّها ليست بلَحْن، وقد أكثر أبو عليٍّ في «الحجة»[6] من الاستشهاد

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٩.

(٢) في (م): المسيء.

(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٦، والبحر المحيط ٧/ ٣١٩، وقراءة حمزة في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ٢٧٥.

(٥) النحاس في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٧.

(٦) ٦/ ٣١-٣٢.

والاحتجاج للإسكان من أجل توالي الحركات والوصل بنيَّة الوقف.

وقال ابن القشيريّ: ما ثبتَ بالاستفاضة أو التواتر أنَّه قُرِئ به فلا بدَّ من جوازه، ولا يجوز أن يقال: لَحْن، ولعمري إنَّ الإسكان هاهنا أحسنُ من الإسكان في ﴿بارئْكم﴾ [البقرة: ٥٤] كما في قراءة أبي عمرو(١).

وروي عن ابن كثير: «ومكر السَّأْيِ» بهمزة ساكنة بعد السين، وياءٍ بعدها مكسورة(٢)، وهو مقلوبُ السَّيْءِ المخفَّفِ من السيِّئ، كما قال الشاعر:

ولا يَجْزونَ من حسنٍ بسَيْءٍ ولا يَجزونَ من غِلَظٍ بلينِ(٣)

وقرأ ابن مسعود: «ومكراً سيِّئاً»(٤) عَطَفَ نكرةً على نكرة.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أي: لا يحيطُ ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وقال الراغب: أي: لا يصيبُ ولا ينزل(٥). وأيّاما كان فهو إنَّما وردَ فيما يُكره.

وزعم بعضُهم أنَّ أصلَ حاق: حقَّ، فجيء بدل أحد المثلين بالألف نحو: ذمَّ وذام، وزلَّ وزال، وهذا من إرسال المَثَل، ومن أمثال العرب: مَن حفر لأخيه جبّاً وقع فيه منكبّاً.

وعن كعب أنَّه قال لابن عباس: قرأتُ في التوراة: مَن حفر مغواةً وقعَ فيها. قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله تعالى، فقرأ الآية.

وفي الخبر: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ

---

(١) التيسير ص ٧٣.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.

(٣) البيت لأبي الغول الطهوي، وهو في الحماسة ١/ ١٦ (شرح التبريزي)، وكتاب الحيوان ٣/ ١٠٦، والشعر والشعراء ١/ ٤٢٩، والأمالي ١/ ٢٦٤، والخزانة ٨/ ٣١٤.
ووقع في كتاب الحيوان وفي الشعر والشعراء: من خير بشر، بدل: من حسن بسيءٍ.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٠٢، والكشاف ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.

(٥) المفردات (حاق).

ﭐﻟْﻤَﻜْﺮُ ﭐﻟﺴَّﻴِّﺊُ إِﻟَّﺎ ﺑِﺄَﻫْﻠِﻪِۦ﴾، ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]»[١].

وقد حاقَ مكرُ هؤلاء بهم يوم بدر. والآية عامَّة على الصحيح، والأمور بعواقبها، والله تعالى يُمهِلُ ولا يُهمِل، ووراءَ الدنيا الآخرة ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وبالجملة مَنْ مَكَرَ به غيرُه، ونفذَ فيه المكرُ عاجلاً في الظاهر، ففي الحقيقة هو الفائز، والماكرُ هو الهالك، أسألُ الله تعالى بحرمةِ حبيبه الأعظم ﷺ أن يدفعَ ويرفعَ عنا مكرَ الماكرين، وأنْ يعاملَهم في الدارين بعَدْله، إنَّه سبحانه القويُّ المتين.

وقُرِئ: «ولا يُحيق» بضمِّ الياء «المكرَ السيئ» بالنصب[٢]، على أنَّ يُحِيقُ من أحاقَ المتعدِّي، وفاعلُه ضميرٌ راجعٌ إليه تعالى، و«المكر» مفعوله.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون، وهو مجازٌ بجعل ما يُستقبَلُ بمنزلة ما يُنتظر ويُتوقَّع ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلَّا سنَّةَ الله تعالى فيهم بتعذيب مكذِّبيهم.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأنْ يضعَ سبحانه موضع العذاب غير العذاب[٣] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ بأنْ ينقلَ عذابَه من المكذِّبين إلى غيرهم. والفاء لتعليل ما يفيدُه الحكم بانتظارهم العذابَ من مجيئه.

ونفيُ وجدانِ التبديل والتحويل عبارةٌ عن نفي وجودهما بالطريق البرهانيّ، وتخصيصُ كلٍّ منهما بنفيٍ مستقلٍّ؛ لتأكيد انتفائهما، والخطاب عامٌّ، أو خاصٌّ به عليه الصلاة والسلام.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادٌ على ما قبله من جريان سنَّة الله تعالى على تعذيب المكذِّبين بما يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلتِهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الأمم الماضية، وعلامات هلاكهم.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥) من طريق الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً.
(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.
(٣) قوله: غير العذاب. ساقط من (م).

والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ يليقُ بالمقام ـ على رأي ـ أي: أَقَعَدوا ولم يسيروا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في موضع الحال بتقدير «قد»، أو بدونها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ أي: ليس من شأنه عزَّ شأنه أن يسبقَه ويفوتَه ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيءٍ، و«من» لاستغراق الأشياء ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هو نظيرُ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ٤٩] والواو حالية أو عاطفة.

وفي «الإرشاد»: الجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمَا يُفهم ممَّا قبلَه من استئصال الأمم السالفة[١]. وظاهره أنَّ الواو اعتراضية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ مبالغاً في العلم والقدرة، والجملةُ تعليلٌ لنفي الإعجاز.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعاً ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ فعلوا من السيئات كما واخذ أولئك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي: ظهر الأرض، وقد سبق ذكرها في قوله تعالى: (فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ) فليس من الإضمار قبل الذكر كما زعمه الرضيُّ.

وظهرُ الأرض مجاز عن ظاهرها، كما قال الراغب[٢] وغيره. وقيل: في الكلام استعارةٌ مكنيَّةٌ تخييليَّةٌ، والمراد: ما ترك عليها.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: من حيوانٍ يدِبُّ على الأرض؛ لشؤم المعاصي، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وهو المرويُّ عن ابن مسعود.

وقيل: المراد بالدابَّة الإنس وحدَهم، وأيِّد بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة، فإنَّ الضميرَ للناس؛ لأنَّه ضميرُ العقلاء، ويومُ القيامة الأجلُ المضروب لبقاء نوعهم.

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٧.
(٢) في المفردات (ظهر).

وقيل: هو لجميع من ذكر تغليباً، ويوم القيامة الأجلُ المضروب لبقاء جنس المخلوقات.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ فيجازي المكلَّفين منهم عندَ ذلك بأعمالهم، إنْ شرّاً فشرّ، وإن خيراً فخير. وجملة: «فإنَّ الله» إلخ موضوعةٌ موضعَ الجزاء، والجزاءُ في الحقيقة: يُجازي[١]، كما أشرنا إليه[٢].

هذا والله تعالى هو الموفِّق للخير ولا اعتماد إلَّا عليه.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى إيجاد عالَمي اللطافة والكثافة، وإلى أنَّ إيجادَ عالم اللطافة مقدَّمٌ على إيجاد عالم الكثافة، ويشيرُ إلى ذلك ما شاعَ: خَلَقَ الله تعالى الأرواحَ قبل الأبدان بأربعة آلاف سنة[٣].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ في إيصال أوامره إلى مَنْ يشاءُ من عباده، أو وسائطَ تَجْري إرادتُه سبحانه في مخلوقاته على أيديهم ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ إشارةٌ إلى اختلافهم في الاستعداد ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ عامٌّ في المَلَك وغيره، وفسِّرت الزيادة بهبة استعدادِ رؤيته عزَّ وجلَّ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ الزيادة المشار إليها وغيرها ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ رحمته سبحانه سبقت غضبه عزَّ وجلَّ.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ﴾ تسليةٌ لحبيبه ﷺ، وإرشادٌ لورثته إلى الصبر على إيذاء أعدائهم لهم، وتكذيبِهم إيَّاهم، وإنكارهم عليهم.

---

(١) في الأصل: مجازي. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) يعني في قوله: فيجازي المكلفين...، فهو إشارة إلى أن قوله: «فإن الله» إلخ ليس هو الجزاء، بل وضع موضعه لأنه مجاز عن الجزاء. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٢٣١.

(٣) سلف ١٣/ ٤٦١. وفيه: بألفي سنة.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ جرت سنَّته تعالى في إحياء الأرض بهذه الكيفيَّة، كذلك إذا أرادَ سبحانه إحياءَ أرض القلب، فيرسلُ أوَّلاً رياحَ الإرادة، فتثيرُ سحابَ المحبَّة، ثمَّ يأتي مطرُ الجود والعناية، فينبتُ في القلب رياحين الروح، وأزهار البسط، ونوَّار الأنوار، ويطيبُ العيش.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العزَّةَ الحقيقيَّةَ لا تحصلُ بدون الفناء، ولا تغفل عن حديث: «لا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل»[1] إلخ.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ وهو أبعدُ المخلوقاتِ من الحضرة وأسفلُها وأكثفُها ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ وفيها نوعٌ ما من اللطافة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ إشارةٌ إلى ما حصل لهم من ازدواج الروح اللطيف العلويِّ والقالب الكثيف السفليِّ، وهو مبدأُ استعدادِ الوقوف على عوالم الغيب والشهادة.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ قيل: أي: بحرُ العلم الوهبيِّ، وبحرُ العلم الكسبيِّ ﴿هَٰذَا﴾ أي: بحرُ العلم الوهبيِّ ﴿عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ﴾ لخلوِّه عن عوارضِ الشكوك والأوهام ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: بحرُ العلم الكسبيِّ ﴿مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ لما فيه من مشقَّة الفكر، ومرارةِ الكسب، وعروض الشكوك والتردُّد والاضطراب ﴿وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ إشاراتٍ لطيفةً تتغذَّون بها، وتتقوَّون على الأعمال ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ وهي الأخلاقُ الفاضلةُ، والآدابُ الجميلة، والأحوال المستحسنة التي تُكسبُ صاحبَها زينةً ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾ سفن الشريعة والطريقة ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ جاريةً ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بالوصول إلى حضرته عزَّ وجلَّ فعل ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ في سائر شؤونكم، ومراتبُ الفقر متفاوتةٌ، وكلَّما ازداد الإنسان قرباً منه عزَّ وجلَّ ازدادَ فقره إليه؛ لازدياد المحبَّة حينئذٍ، وكلَّما زاد العشقُ زاد فقرُ العاشق إلى المعشوق حتى يفنى ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ فيه من البشارة ما فيه.

---

(١) سلف ١/ ١٣٢.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: العلماء به تعالى وبشؤونه، فهم كلَّما ازدادوا علماً ازدادوا خشيةً؛ لما يظهر لهم من عظمته عزَّ وجلَّ، وأنَّهم بالنسبة إليه تعالى شأنُه لا شيء.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: الظالمُ لنفسه السالكُ، والمقتصد السالكُ المجذوبُ، والسابق المجذوبُ السالك. والسالك هو المتقرِّب، والمجذوب هو المقرَّبُ، والمجذوب السالك هو المستهلك في كمالات القرب، الفاني عن نفسه، الباقي بربِّه عزَّ وجلَّ.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ﴾ حَزَنَ تخيُّل الهَجْر، فلا حزن للعاشق أعظمُ من حزن تخيُّل هجر معشوقه له وجفوته إياه ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فلا بِدعَ إذا أذهبَ عنَّا ذلك، وآمننا من القطيعة والهجران.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ هو نَصبُ الأبدان وتعبُها من أعمال الطاعة للتقرُّب إليه سبحانه ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ هو لغوبُ القلوب واضطرابُها من تخيُّل القطيعة والردِّ وهجر الحبيب.

وقيل: لا يمسُّنا فيها نصبُ السعي في تحصيل أيِّ أمرٍ أردناه، ولا يمسُّنا فيها لغوبُ تخيُّل ذهاب أيِّ مطلوبٍ حصَّلناه. وقد أشاروا إلى أنَّ كلَّ ذلك من فضلِ الله تعالى، والله عزَّ وجلَّ ذو الفضل العظيم.

هذا ونسألُ الله تعالى من فضلِه الحلو ما تنشقُّ منه مرارةُ الحسود، وينفطرُ به قلبُ كلِّ عدوٍّ، وينتعشُ فؤادُ كلِّ محبٍّ ودود.